روايات تاريخ الإسلام

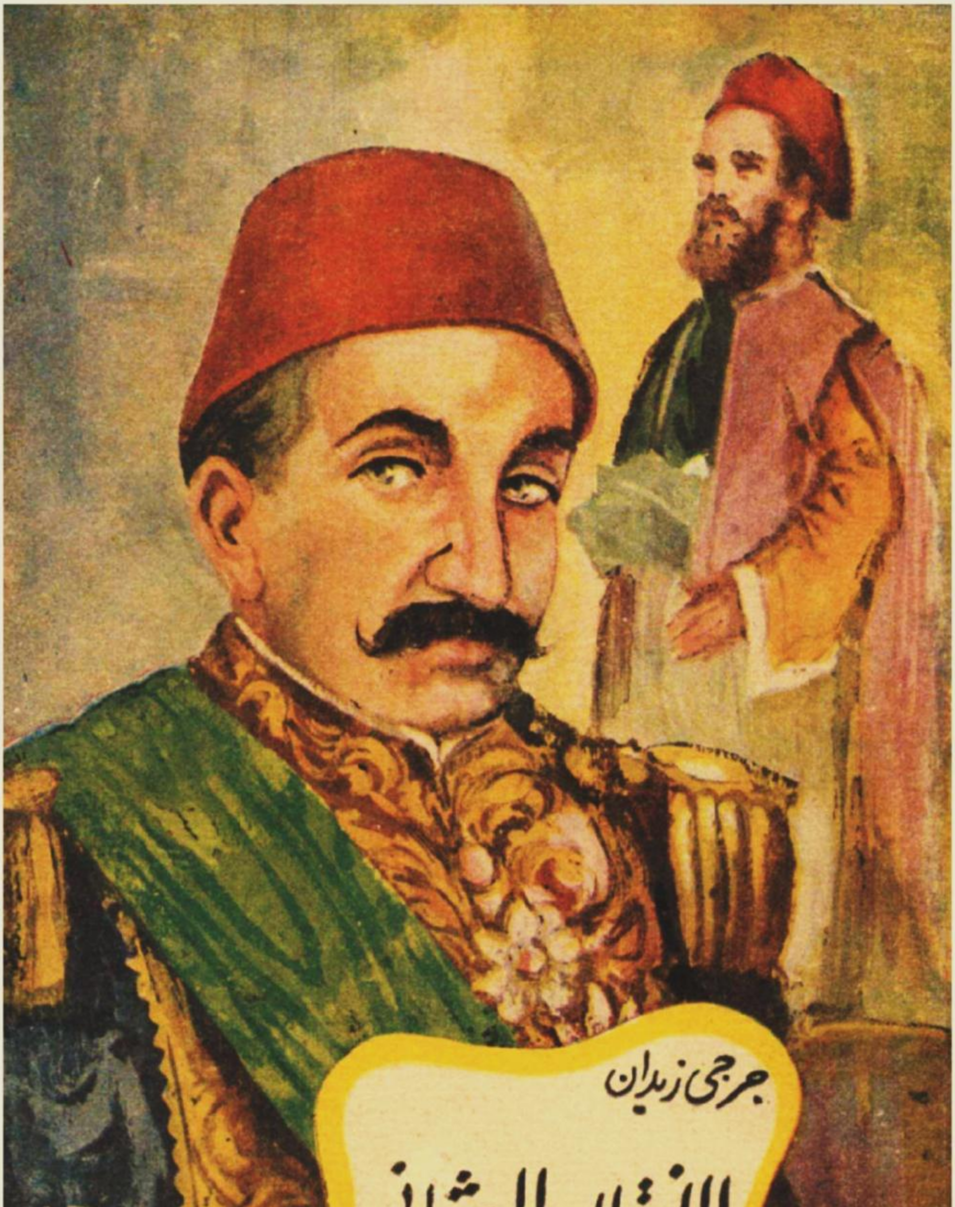

جرجي زيدان

الانقلاب العثماني

دار الهلال

منتدى مكتبة الإسكندرية
ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

الانقلاب العثمانى

رواية تاريخية

تتضمن وصف أحوال الاحرار العثمانيين وجمعيـــاتهم السرية ، وماقاسوه فى طلب الدستور .. ووصف يلدز وقصورهاوحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه وأعوانه ، وســـائر أحواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقى بنيل الدستور فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨

تاليف

جرجى زيدان

دار الهـــلال

أبطال الرواية

* عبد الحميد خان	: السلطان العثمانى
* أحمد نور الدين	: ابن السلطان عبد الحميد
* نيازى بك	: من زعماء الاحرار
* انور باشا	: من زعمـاء جمعية الاتحـاد والترقى
* ناظم بك	: قائد جند سلانيك
* نادر اغا	: رئيس اغوات يلدز
* شيرين	: فتاة تركية
* طهماز	: والد شيرين
* توحيدة	: والدة شيرين
* رامز	: من زعمـاء جمعية الاتحـاد والترقى
* صائب	: جاسوس عثمانى
* سر خفية	: رئيس جواسيس السلطان
* القادين ج	: من جوارى السلطان
* والدة سلطانة	: رئيسة دور الحريم
* فوزى بك	: أحد قواد الحرس الالبانى
* سعيد بك	: من زعماء جمعية الاتحـاد والترقى

- ١ -

حديقة البلدية

سلانيك ، أو سالونيك ، من أكبر مدن المملكة العثمانية ، وقد اشتهرت أخيرا بنيل الدستور على أيدى أحرارها .. وهى تقع على البحر مثل موقع أزمير ، وسكانها نحو ١٥٠ ألفا ؛ منهم ستون ألفا من اليهود .. والباقون من الأتراك ، والأروام ، والمقدونيين ، والألبان ، وسائر الأجناس . والسبب فى كثرة يهودها أنهم نزحوا اليها من أسبانيا كما نزحوا الى الاستانة وغيرها ، ولا يزالون يتكلمون لغة الأسبان .. وللمدينة رصيف عريض يمتد على شاطىء البحر مسير نصف ساعة ، قد غرست الأشجار على جانبيه ، تحده المنازل الفخمة من جهة ، والبحر من الجهة الأخرى ، وهو أجمل متنزهات سلانيك يؤمه الناس ساعات النزهة فى العربات ، أو الترام ، أو مشاة على الأقدام ..

وفى سلانيك حديقة للبلدية ، هى أحسن متنزه لتمضية الأوقات فى المنادمة و المحادثة .. وهى كبيرة واسعة ، فيها كل أنواع الأشجار ، والرياحين ، والأزهار ، ومطعم ، وقهوات ، وتياترو .. تشبه حديقة بتى شان فى الاستانة ، وحديقة الأزبكية فى مصر .. يأتيها طلاب التنزه أو اللهو نهارا وليلا ، ولا سيما بعد الظهر الى

العشاء .. فانك تجدها غاصّة بهم ، وفيهم الشاب ، والشيخ ، والصبية ، والعجوز .. أزواجا ، أو ثلاثا ، أو جماعات ، على اختلاف الأديان والأجناس ، من الافرنج ، أو اليهود ، أو الأتراك ، على تباين عاداتهم وأخلاقهم •• بعضهم يجلسون الى الموائد يتناولون المشروبات ، والبعض الآخر يتمشون فى طرقات الحديقة بين الأشجار •• يتمتع النـاس بالتفرج بعضهم على بعض ، وقد اختلط الحابل بالنابل ، وكل منهم فى شاغل بنفسه أو بعائلته وأولاده ، يراعيهم ويهيىء لهم ما يطلبون أو يتحدثون بما يطيب لهم بغير مراقبة أو حذر ..

أما فى زمن الاستبداد على عهد عبد الحميد ، فكان الناس اذا دخلوا الحديقة أو غيرها من أماكن الاجتماع تخاطبوا همسا ، خوفا من جاسوس أو واش يغتنم كلمة يسمعها .. فيعمل على نقلها الى المابين وأصحابه ، فيعرض قائلها للموت أو الخراب •• وقد لا يكون لذلك القول غرض أو مغزى • ولكن الجاسوسية فى زمن ذلك الطاغية بلغت مبلغا لم يكن له شبيه فى زمن من الأزمان ، ولا سيما فى أواخر أيامه ، اذ تبدأ روايتنا هذه ••

ففى أصيل يوم من ربيع سنة ١٩٠٧ ، كانت الحديقة المشار اليها فى أبهى حللها ، قد كستها الطبيعة حلة خضراء مزركشـة بالأزهار والرياحين •• وصفا الجو وفاحت رائحة الزهور بأجمل ما يكون • وتقاطر الناس اليها على جارى العادة ، وفيهم النساء أكثرهن بالزى الافرنجى ، وبعضهم بالزى التركى •• والتركيات

اذا أتين الحديقة اخترن ناحية منها منفردة يجلسن اليهـا حتى لا يكنّ عرضة لعيون المارة .. هناك تحت شجرة من الكستناء غضة الأغصان ، جلست امرأة متوسطة العمر على مقعد من مقاعد الحديقة ، والى جانبها فتاة فى مقتبل الشباب .. ولو أتيح لك رؤيتهما ، لرأيت ما يستوقف الخاطر من جمال وأدب وذكاء وكمال

— ٢ —

شـــيرين

كان لباس المرأتين نموذجا للزىّ التركى الحديث.. لا يظهر منه الا رداء بنى اللون كالبرنس ، له أكمام .. يكسو الجسم كله كالجبة الواسعة ، وعلى الرأس خمار شفاف يكسوه كله الا جانب من الوجه. وكان شعر المرأة الكهلة مضفورا على النظام القديم..أما الفتاة فقد ضفرته على النمط الافرنجى وغطته بالنقاب الشفاف ، ولا أظنك تحتاج الى امعان كثير فى وجهيهما حتى يتبين لك ان الفتاة ابنة الكهلة لكثرة ما بينهما من الشبه الشديد

وكان فى يد الفتاة جريدة فرنسية تطالع فيها ، وهى تحذر أن يراها أحد ، وقد طوتها طيات كثيرة حتى يصغر حجمها ولا ينتبه لها الناس ، فتقرأ ما يظهر منها ثم تديرها لقراءة ما بقى، ووالدتها تنتظر ما تترجمه ابنتها من المقالة التى تقرأها . فلما طال انتظارها قالت باللغة التركية : « ما بالك لا تقرأين يا شيرين ؟ »

فرفعت الفتاة رأسها من الصحيفة ونظرت الى ما حولها كأنها تحذر أن يسمعها أحد ، وقالت بصوت منخفض : « ماذا أقرأ يا أماه ؟ .. انى أرى «رامزا» قد شدد اللهجة كثيرا هذه المرة .. »

قالت والدتها : « أنت تقرأين مقالة رامز ؟.. كيف عرفت انها له ؟ .. هل وضع اسمه تحتها ؟ .. ألا يخشى الرقباء ؟ »

قالت بحذر وهدوء : « انه لايوقع المقالات باسمه ، وانما يرمز عنه بحرف (A) وكل مقالة فى هذه الجريدة موقعة بهذا الحرف فانها له .. ولا يعلم ذلك أحد سواى وسوى صاحب الجريدة . ولو اطلع رجال المابين على فحوى هذه المقالة لأخذهم الغضب »

قالت الوالدة : « وما فحواها ؟ »

فاقتربت منها وقالت همسا : « انه يشدد النكير على عبد الحميد ورجاله ويهددهم بزوال ملكهم .. ويحتج عليهم وينسب اليهم الظلم والنهب .. سامحه الله .. انها لهجة شديدة ، ولكنهم يستحقون أشد من ذلك »

فقالت والدتها : «ولكننا نخشى على عزيزنا رامز من غدرهم»

وكانت شيرين ذات جمال جذاب مهيب ، وفى عينيها ماء لامع ينم على الذكاء وسرعة الخاطر ، وعلى شدة عاطفة الحب ..وكانت طويلة القامة مع اعتدال وتناسب ، والصحة بادية فى محياها وقوة الارادة ظاهرة حول فمها .. لا ينظر اليها ناظر الا هابها ، وقد زادها العلم رونقا وطلاوة ، لأنها تثقفت أحسن ثقافة ، وهى تجيد التركية ، والفرنسية ، والرومية ، لغة تلك البلاد كلاما

وكتابة ، والفضل فى ذلك الى والدتها .. فقد كانت من فضليات النســـاء وأقواهن عقلا ، وقد ربت ابنتها على الحرية وصـــدق اللهجة .. فشبَّت شيرين كبيرة النفس ، قوية العزيمة ، تكره الظلم والظالمين . وقد أحبت رامزا كاتب تلك المقـــالة وأحبَّها منـــذ الصغر ، وهو ابن خالتها .. وقد ماتت أمه وهو صغير ، فعنى أبوه بتربيته تربية خاصة ، وغرس فى قلبه حب الحرية وكره الظالمين ، لغرض سنذكره ..

فنشأت شيرين ورامز معا وقد تحابا ، وامتزجت روحاهما وتعاهدا على الزواج ، وكان هـــو من أرباب الأقـــلام يكتب بالفرنسية ، كما يكتب بلغته التركية .. واشتهر بين معارفه بحب الحرية ، فلم يجد سبيلا للارتزاق من خدمة الحكومة كما جرت عادة أمثاله من الشبان المتخرجين من مدارس الحكومة ، وربما سعى له بعض ذوى النفوذ فى خدمة فلا يلبث فيهـــا أياما حتى يخرج منها ، فجعل الارتزاق من قلمه بمكاتبة الصحف التركية فى الاستانة ، و الفرنسية فى باريس .. بتوقيع مستعار ، وأكثر ما يكتبه فى تلك الصحف انتقاد للحكومة ..

والكتابة لذيذة ، وكانت تلذ لرامز على الخصوص لأنه كان يجعلها وسيلة للاجتماع بشيرين .. فاذا كتب مقالة وأعجبته قرأها لها وسمع ملاحظتها عليها ، وكثيرا ما كانت ترشده الى الصـــواب فى بعض النواحى لأنه كان شديد الحماس ، سريع الاندفاع ، مما يقوده الى التطرف .. وكانت هى أكثر منه اعتدالا

وأربط جأشا فتنتقده وتباحثه ، فيلذ له الرجوع الى رأيها .. أما المقالة التى كانت تقرأها فى ذلك اليوم ، فلم يكن أطلعها عليها قبل ارسالها .. فجاءت شديدة اللهجة

— ٣ —

رامز

فلما قالت لها أمها : « ولكننا نخشى على عزيزنا رامز من غدرهم » ظهرت البغتة عليها كأنها انتبهت لشىء فاتها ، وتصاعد الدم الى محياها ، ونظرت الى أمها وقالت : « صدقت يا أماه .. ان رامزا يعرّض نفسه للخطر ، ولو أطلعنى على هذه المقالة قبل ارسالها لعدلت لهجتها .. سأعاتبه على ذلك متى جاء . ياربى ما باله تأخر والشمس كادت تغيب » قالت ذلك والتفتت نحو باب الحديقة ، فرأت الداخلين يتزاحمون ورامز ليس معهم . ثم وقع بصرها على شاب بهى الطلعة ، منتصب القامة ، رشيق الحركة ، تتجلى الحماسة فى وجهه .. ورأت أمها تنظر اليه وتبتسم له ، فقالت شيرين : « من هو هذا يا أمّاه ؟.. أراك تضحكين له .. »

قالت الوالدة : « ألم تعرفيه ياشيرين .. ؟ هذا نيازى بك صديق رامز ورفيقه فى المدرسة »

قالت شيرين : « عهدته ضابطا »

قالت الوالدة : « نعم .. ولكن يظهر انه جاء متنكرا .. »

ولم تكد شيرين تعيد النظر الى نيازى حتى اختلج قلبها لأنها رأت رامزا بجانبه ، وقد قبض على ذراعه وجعل يقوده نحو تلك الشجرة ، ونيازى يلتمس التخلص والرجوع .. ولما اقتربا من مجلس شيرين وأمها سمعتا نيازى يقول : « دعنى يا رامز ، فقد أزف الوقت » ..

ورامز يجره من ذراعه وهو يضحك ويقول : « دقيقة واحدة فقط ..

ووقع نظر نيازى على والدة شيرين ، فأسرع اليها وحياها باحترام ، وحيا شيرين تحية صديق قديم لأنها عرفته من قبل ، وقد خطب فتاة من بنات مناستير تعرفها جيدا • وتقدم رامز وألقى التحية ، وابتدر شيرين بالاعتذار قائلا : « قد تأخرت عليكما ، ولكن الحق على صديقى نيازى » وضحك

فقال نيازى : « اسمح لى يا رامز أن أودعكم الآن لأنى جئت خلسة ، ولابد من رجوعى الليلة الى بلدى ، وانى أتأسف لضياع هذه الفرصة فان هذه الجلسة تلذ لى كثيرا ، ولكننى لا أحب أن أترك للقوم بابا للانتقاد حتى يأتى الله بالفرج » وابتسم

فقالت توحيدة والدة شيرين : «تسافر الليلة ؟••الى أين؟••»

قال نيازى : « الى مناستير يا سيدتى ومنهـا الى رسنة •• أستودعكم الله •• الى اللقاء •• كم كنت أحب أن أبقى معكم ، ولكن •• » قال ذلك وحياهم وتحول راجعا ورامز يتبعه ببصره حتى قرب من منعطف ، فالتفت اليهم وحياهم وانصرف

وتقدم رامز نحو شيرين وهو يبتسم ابتسام الاعتذار وقال : « أظنني شغلت بالك عليّ .. ولكنني شغلت بصديقي نيازي وأنت تعلمين صداقتي القديمة له » وخفض صوته وقال وهو يحذر أن يسمعه أحد : « قد جاء اليوم لمقابلة بعض أعضاء الجمعية ، فاجتمعنا بصديقنا الشهم أنور بك » قال ذلك وهو يجلس على كرسي ..

فقطعت شيرين كلامه وهي تجلس ، وقالت : « هل أدخلتم نيازي في الجمعية أيضا ؟ »

قال رامز : « أدخله أنور بك في غير سلانيك ، وقد أحسن بادخاله لأنه من خيرة الضباط أهل المروءة والنجدة ممن يرجى نيل الدستور على أيديهم » ولما لفظ كلمة الدستور تنهد وانقبضت نفسه وأطرق .. فأدركت شيرين ماجال بخاطره فقالت : « لاتتنهد .. ان والدك سيأتي ولو طال غيابه » ..

فهز رأسه وقال : « يا حبذا ذلك .. كيف أرجو رجوعه بعد دخوله ذلك القصر الجهنمي منذ عدة سنوات ، ولم نعد نسمع عنه خبرا ؟ .. مَن من الأحرار يدخل يلدز الملعونة ويرجع منها حيا ؟! اني لا أحسبه الا أغرق في البوسفور كما أغرق مئات قبله ، ولكنني سأنتقم له » قال ذلك وصرّ على أسنانه وكاد الدمع يتناثر من عينيه

فأحبت شيرين أن تشغله عن ذلك فقالت : « سامحك الله يا رامز على هذه المقالة .. انها النار المستعرة »

قال رامز : « انها أقل ما يستحقه أولئك القوم الأنذال ، قد آن الوقت يا شيرين •• ولا تلبثين أن ترى الدماء تجرى أنهارا »

فأجفلت شيرين عند سماع قوله وتصاعد الدم الى وجنتيها ، وقالت : « أرجو أن لاتجرى الدماء ، بل أتمنى أن يظهر الحق ويزهق الباطل » ..

قال رامز : « وأنا أتمنى ذلك أيضـا ، ولكنهم لا يريدون الاذعان وهذا ناظم بك (وخفض صوته) قائد جند هذه المدينة صنيعة ذلك الطاغية وأحد ياورانه ، قد تلقى الأوامر بالتشديد فى البحث عن أعضاء جمعية الاتحـاد والترقى والقبض عليهم ، والتنكيل بهم بلا شفقة ، لأن ظهور هذه الجمعية فى سلانيك أدهشهم وهم يبحثون عن زعمائها ليفتكوا بهم »

فبغتت وتوردت وجنتاها ، والتفتت الى ماحولها كأنها تحذر أن يكون لتلك الشـجرة آذان تسمعهم وتشى بهم وقـالت : « صحيح ؟ •• من قال لك ذلك ؟ •• »

قال رامز : « جاءنا الخبر من جاسوس لنـا فى يلدز ، وقد علمنا منه أن عبد الحميد وقع الرعب فى قلبه حين علم ان الضباط ينتظمون فى هذه الجمعية المقدسة ، وأيقن ان الجيش لا يلبث أن ينقلب عليه •• فعمد الى التنكيل بهم ، فاستقدم ناظم بك اليه ورفع رتبته ، وزاد راتبه ، وأصدر اليه أوامر مشددة بالبحث عن رئيس الجمعية وأعضائها العاملين ، ووعده بهبات جزيلة اذا هو استطاع معرفتهم »

فقالت توحيدة والدة شيرين : « اسكت ياحبيبى..ان للشجر آذانا .. وقاك الله كيد الكائدين » ..

فقالت شيرين : « لله در أبيك .. اذ لولاه لم تعمد الجمعية الى هذه الخطة »

قال رامز : « بل لله در ذلك الثاوى فى الطائف المقتول ظلما وعدوانا .. انها وصيته قبل موته أودعها أذن والدى ، فحملها الى الأحرار ، ولكن آه .. أين أنت يا أبى ؟ وأين باقى الوصية لعلها تنفعنا اليوم ؟ »

فقالت توحيدة : « يكفى يابنى..ان الحديث قد طال فاحتفظ سرك وانى أنبهك الى شىء طالما نبهتك اليه .. احذر أن تذكر شيئا من هذا القبيل أمام طهماز والد شيرين، فانه ضعيف الارادة بسيط القلب لايؤمن معه أن يستغويه بعض الجواسيس ويسرق منه خبرك .. ان طهماز قوى البدن لكنه ضعيف الارادة »

قالت ذلك وتنهدت ..

— ٤ —

طهماز وصائب

وكانت الشمس قد غربت ، وأخذ خـدم الحديقة فى انارة القناديل ، والناس يتزاحمون دخولا وخروجا . ولاحت من شيرين التفـاتة فرأت والدها قادما ، فصاحت : « هذا والدى أتى .. »

وهى لم تظهر هذه البغتة من فرح بقدومه ، ولكنها أرادت أن تنبه رامزا الى وجوده .. فالتفت رامز فرأى طهماز ومعه شاب يعرفه من أيام المدرسة ، حسن الملبس ، قد أرخى لحيته على الطراز التركى ، وعلى عينيه نظارة مذهبة ، وقد ارتدى ثوبا أسود تعلوه الستامبولينا التى يلبسها الأتراك فى المناسبات الرسمية ، رآه آتيا مع طهماز وهو يحادثه ويلاطفه .. فلما اقتربا منه ، تقدم رامز لاستقبال صديقه ورحب به وقدمه الى شيرين ووالدتها قائلا : « هذا صديقى صائب بك »

فلما رأته شيرين نفرت منه ، وظهر الانقباض فى عينيها .. لكنها تجلدت تأدبا وحنت رأسها احتراما ، فتقدم والدها طهماز وكان كبير الجسم عظيم العضل ، كبير الرأس ، واسع الفم ، غليظ الشفتين ، معروفا بين أهله ومعارفه بقوة الساعدين . يلبس ثوبا واسعا أشبه بما يلبسه أهل الأناضول . يرفع الرجل بيده الواحدة ويرميه الى الأرض كأنه رغيف . وكان كثير الاعجاب بقوته وهى الهبة الوحيدة التى وهبته اياها الطبيعة ، لأنه كان ضعيفا فيما خلا ذلك .. وكان جشعا نهما ، لاتكاد تراه الا وفى فمه شيء يمضغه من حلوى ، أو باميش ، أو طعام . وكان ساعتئذ يأكل كعكة تناولها من أحد الباعة فى الطريق .. فلما دنا من زوجته وابنته ، ألقى التحية ببرود ولم يسلم عليهما الا ليقدم لهما صديقه الفاضل الوجيه صائب بك ، فرحبا به .. فصفق صائب بك لخادم الحديقة أن يأتيهم ببعض المشروبات ، فاعتذر

رامز انه لا يشرب شيئا وكذلك فعلت شيرين وأمها ، فأبى الا أن يفتح زجاجات البيرة ، والكازوزة ، ويعزم عليهم أن يشربوا .. فكان أكثرها من نصيب طهماز

وفى أثناء تناول الشراب ، اجتهد صائب بك أن يلفت انتباه شيرين الى حديثه ، بما أخذ يقصه من أحاديث نفوذه فى المابين وما أتاه من الجرأة على كبار المقربين مثل عزت باشا ، ونحسين باشا وغيرهما ، وانهم يخشون بأسه ويهابون جانبه •• وانه طالما انتقد رجال الحكومة على مسمع منهم ، وخوفهم من العاقبة وغير ذلك •• وشيرين لم تزدد الا نفورا ، وتظاهرت انها أحست بالبرد فجعلت والدتها تساعدها فى تأكيد ذلك التماسا للنهوض •• فاستاء طهماز وقال : « انتم هنا منذ عدة ساعات ، ولم تشعروا بالبرد الا الآن ؟ » قال ذلك بخشونة تعودوا سماع مثلها منه فأغضوا ••

أما صائب فحوّل حديثه نحو رامز ، وقال له : « انى لا أنسى الأيام التى قضيناها معا فى المدرسة •• رعيا لهـا •• ان أيام الصبا ليس ثمة ألذ منها .. هل تذكر من كان معنا ؟ .. »

فلم ير رامز بأسا من مسايرته ، فقال : « كان معنا كثيرون أذكر منهم نيازى و •• »

فقطع صائب كلامه قائلا : « نيازى ؟ أظنـه الآن ضابطا فى الجيش .. »

قال رامز : « نعم »

قال صائب : « ولماذا لم تنتظم أنت فى الجيش ؟ » ..

قال رامز : « لأنى لم أوفق الى ذلك ، وليس عندى استعداد على ما أظن » ..

قال صائب : « اذا شئت فانى أتوسط لك فى خدمة اذا لم تكن فى الجندية ففى غيرها . أنت تحب العلم والأدب ولك معرفة جيدة باللغات لأنى أذكر تقدمك على أقرانك ، فاذا شئت وجدت لك منصبا فى المدارس أو فى الداخلية أو غيرها .. لا يثقل عليك أن تطلب منى كل ما تريده وهذا هين على . نحن اخوان طبعا لا تكليف بيننا ، وقد وعدت سيدى طهماز بك برتبة ستأتيه بعد أيام قليلة » ..

فلما سمعت شيرين ذلك شعرت كأن أحشاءها تتمزق ، ولم تتمالك عن الوقوف وهى ترتعد وتظهر انها ترتجف من شدة البرد .. والحقيقة انها ترتعد غيظا من ذلك الثقيل ، فوقفت ووقفت والدتها معها ووقف رامز ، فلم يجد صائب بدا من الاذعان وضرب على المائدة بعصا قبضتها من ذهب تلمع فى النور ، فأتى الخادم « جارسون » فدفع اليه ليرة عثمانية ولم ينتظر أن يرد اليه الباقى ، فانحنى الجارسون الى الأرض . ونهض صائب ونهض طهماز ومشوا يلتمسون الخروج من الحديقة ، وقد دنا العشاء وأخذ الناس يخرجون ..

— ٥ —

الوشـــاية

فلما صاروا خارج الحديقة ودعهم صائب وانصرف ، وقبل انصرافه أطال النظر فى شيرين وهى تتجاهل ، وودعه طهماز وداع الصديق الحميم .. أما رامز فرافق شيرين وأباها ، وفى أثنـــاء الطريق خاطبته بالفرنسية وصرّحت له بنفورها من صائب ، وأوصته أن يبتعد عن صحبته ، فقال : « وما الذى يهمنى منه ؟ »

قالت شيرين : « لا أدرى ، ولكننى شعرت بنفور منه ورأيت الشر ينبعث من وراء نظارته ، ولا يبعد أن يكون جاسوسا .. »

قال رامز : « فليكن ما شاء .. »

وبعد قليل وصلوا الى طريق ، عرج منه رامز الى منزله بعد أن ودع رفاقه وقال لشيرين بالفرنسية : « انه ذاهب الى منزله وسيكتب مقالة فى تلك الليلة » . فقالت له : « سر فى حراسة الله » وتواعدا أن يأتى فى الغد ليقرأ لها ماكتبه ويتغدّى معهم

أما صائب فلم يفته ما أضمرته شيرين من بغضه — اذ من القلب الى القلب دليل — فشبت الغيرة فى قلبه ، فركب مركبة سارت به الى الفندق الذى كان نازلا فيه ، وهو يشرف على الرصيف الذى تقدم ذكره .. وقد قضى معهم الطريق وهو مستغرق فى الهواجس ، وقد أخذت شيرين بمجامع قلبه .. وكان قد لمح الى والدها بشأنها ، فأظهر ارتياحه طمعا فيما وعده به من الرتب

وصلت المركبة الى الفندق وهو لا يدرى ، فلما وقفت انتبه لنفسه وتحول وهو يفكر فى رامز وشيرين .. وكلما تصور عينى شيرين وابتسامتها يختلج قلبه • وكان قد شاهدها مرارا وهى لاتدرى ، وافتتن بجمالها وهو صابر هادىء .. حتى لقى والدها وملكه بأسلوبه ودهائه ، وصار له أمل فى الظفر بها •• فذهب معه وهو يرجو أن يرى منها عطفا ، فلما رآها تجافيه وتلاطف رامزا هبّت الغيرة فى قلبه ..

ولم يصل غرفته حتى عزم على التنكيل برامز ، فأخذ فى خلع ثيابه وهو يحدث نفسه قائلا : « أراها تستخف بى ، وما علمت أنى أستطيع أن أحرمها من ذلك الشاب المغرور الذى يعدّ نفسه من الأحرار •• يحسب أمره مجهولا ، وفاته انى أعلم الناس به ، وأستطيع بكلمة يخطها هذا اليراع أن ألحقه بقاع البوسفور •• أليس هو عضوا فى الجمعية السرية الناقمة على السلطان ؟ •• ماذا يكون شأنه لو رفعت ذلك الى المابين ؟ انى فاعل الساعة »

وكان قد فرغ من تبديل ثيابه فتناول قرطاسا وقلما ، وأخذ يكتب تقريرا عن رامز وأعماله ضد الحكومة ، وانه من أعداء الذات الشاهانية الخ ••

قضى ليلة فى كتابة ذلك التقرير ، وركب فى الصباح باكرا الى ناظم بك وهو يعرف علاقته بالمابين فقال له : « قد كشفت للذات الشاهانية عن شاب كل أسرار الجمعية عنده ، وهذا تقريرى كتبته بهذا الشأن •• فأطلب اليك باسم جلالة البادشاه

أن تقبض عليه وتحبسه ، وتبعث الى المابين خبره تلغرافيا ، وهذه صورة التلغراف : عثر صائب بك الخفية على أحد كبار الجمعية الجهنمية وعنده أسرارها وقد قبضنا عليه وننتظر الأمر بشأنه »

فبعث ناظم بك الى سامى بك رئيس البوليس أن يقبض على رامز وأوراقه حالا ، وأرشده الى منزله ٠٠وبعث صائب بتقريره مسجلا الى المابين

وكان رامز قد قضى ليلته فى كتابة المقالة المشار اليها ، وتأخر فى الفراش .. فما شعر الا والبوليس محيط بمنزله ، فأيقظوه ودخلوا الغرفة وقبضوا عليه وعلى خادمه ، وجمعوا ما عنده من الأوراق ٠٠ وضعوها فى ظرف كبير وختموها بالشمع الأحمر وقادوه الى السراى ، وحجزوه فيها ٠٠ فتأكد رامز انها فعلة صائب ، فلم ير بدا من الصبر ٠٠

أما صائب فكان على موعد للقاء طهماز ذلك الصباح ، فى احدى القهوات على الرصيف ، فذهب فى الوقت المعين كأنه لم يفعل شيئا .. فوجد طهماز فى انتظاره فى قهوة قرب قصر الالاطينى فى آخر الرصيف ، فرحب به طهماز ٠٠ فقال له صائب : « كيف فارقت رامزا ؟ »

فهز رأسه ، وقال : « فارقناه بعد ذهابك بقليل ، وقد توجه لمنزله » ..

فأصلح صائب نظارته على عينيه وحك لحيته ، ثم أخذ يلاعب عصاه بيده وقال : « انه شاب لطيف لكنه كثير الغرور بنفسه

فعسى أن لايسبِّب غروره ضررا له أو لكم لأن الجاهل عدو نفسه .. وقد كنت ولا أزال راغبا فى مساعدته اكراما لكم ، لأنه ينتسب اليكم على ما أظن »

قال طهماز : « نعم هو ابن أخت توحيدة ، ولكنه كما قلت طائش » ..

قال صائب : « واذا كان طيشه يقتصر على ضرر نفسه ، فذلك هيِّن » ..

قال طهماز : « وما الذى يهمنا منه ؟ »

قال صائب : « أراه يحب التقرب منكم فوق القرابة التى ذكرتها » ..

فضحك طهماز .. وكان خادم القهوة قد أتاهمـا بالقهوة فتناول الفنجان ورشف منه رشفة وقال : « يظهر انه يطمع فى شيرين ، ولكننى لا أزوجها لرجل لا عمل له »

فمد صائب يده الى جيبه وأخرج علبة سجاير مذهبة وأخذ منها سيجارة مذهبة من أحد طرفيها ودفعها الى طهماز وهو يقول : « ان شيرين تستحق رجلا يستحقها ، فانها والحق يقال كاملة الأوصاف »

فتناول طهماز السيجارة ، وقال وهو يشعلها من عود أشعله له صائب بك وقدمه له : «وأنت كامل الأوصاف ياصائب بك » .. وضحك

فتنصل صائب بك من مغزى هذا التعريض وقال : « انى

أحترم الفتاة .. وأراها تستحق من هو أحسن منى .. »
فقال طهماز : « انها لا تطمع فيمن هو أحسن منك ياسيدى »
فأجابه صائب بك : « كل شىء نصيب .. » وأظهر انه يريد تغيير الحديث تواضعا ، فقال : « لقد أرسلت تلغرافا الى صديقى عزت باشا أطلب منه رتبة تليق بشأنك .. واذا رأيت رامزا يقبل معونتى ، فانى أوصى له على منصب »
فأعجب طهماز بأريحية صائب وقال : « سأخاطبه فى ذلك ، لعله يرضى .. وهو عندنا للغداء .. تعال تتناول طعام الغداء معا »
فأجاب : « حسنا .. سأحضر .. »

— ٦ —

الانتظار شاق

أما شيرين فباتت تلك الليلة ونفسها تحدثها بشرٍّ تتوقعه ، وكذلك شأن المرأة فانها كثيرا ما يدلها شعورها على أمور لا يدركها الرجل الا بالتفكير العميق والقياس العقلى .. أما هى فانها تشعر وتحكم بناء على شعورها بغير برهان .. ويصدق حكمها فى أكثر الأحيان ..
قضت معظم الليل فى الهواجس .. وماصدقت أن طلع النهار ، فأخذت تنتظر الوقت المعين لمجىء رامز ، وقد سرها خروج أبيها

مبكرا ليخلو لها المنزل برامز • ولم يكن وجود والدتهـا يعكّر عليها صفو ذلك الاجتماع لأنها كانت مستودع أسرارها ، وهى تحب رامزا كثيرا •• وتعده بمنزلة شيرين لأنه ابن أختها ؛ وقد ربى تحت اشرافها ••

دقت الساعة العاشرة على التوقيت الافرنجى ، ولم يأت رامز، فزادت دقات قلب شـيرين ، وصارت تنتقل من النـافذة الى الشارع ، ومن الباب على الدهليز . ثم تعود فتجلس على المقعد فاذا سمعت مشيا نهضت تظن رامزا قادما مع انها تعرف خطواته دون سائر خطى الناس ، ولكن القلق أذهب رشدها • فلما دقت الساعة الحادية عشرة ذهبت الى والدتها ، وكانت تشتغل بشئون المطبخ تساعد خادمتها فى الطهى ليكون الطعام معدّا وقت الظهر ، والا غضب زوجها وأسمعها كلاما فظا • فلما رأت شيرين داخلة بادرتها قائلة : « هل أتى رامز ؟ •• »

فكان لهذا السؤال وقع شديد انفجرت له عواطفها ، فقالت : « لا •• لم يأت •• » وغصت بريقها

فاستغربت توحيدة اضطرابها وقالت : « لم يفت الوقت على مجيئه •• ان وقت الظهر لا يزال بعيدا •• لا تقلقى يا بنية •• »

قالت شيرين : « أعلم ذلك ولكن •• » وسمعت حركة فى الدار فأصغت بسمعها ، فاذا هى خطى أبيها فتوقعت أن يكون رامز معه •• فخرجت للقائه فوجدت أباها وحده دخل يتمايل مزهوا بقوته ، وقد زادته وعود صائب بالرتب اعجابا بنفسه ..

فلما أقبل على شيرين حيته ، فرد التحية وابتدر قائلا : « ألم يُعد الطعام بعد ؟.. أين والدتك ؟ » ..

وقالت شيرين : « هى فى المطبخ .. تتعجل اعداد الطعام »

وهمت أن تسأله عن رامز فغلب عليها الحياء ، فذهبت الى والدتها وحرضتها على سؤاله

فخرجت توحيدة من المطبخ ، وهى تجفف يديها بمنشفة وتصلح ذيل ردائها •• وتأمر الخادم أن يعد المائدة ويحضر كل شيء ، لعلمها ان ذلك يشرح صدر زوجها •• فقابلها ضاحكا ، فقالت : « ألم يأت رامز معك للغداء ؟ •• »

قال طهماز : « لم أره اليوم •• »

قالت توحيدة : « دعوته أمس للغداء معنا ، وهاقد دقت الساعة الثانية عشرة ولم يأت •• »

قال طهماز : « لعله استغرق فى النوم ، وبعد قليل يأتى •• لاتخافى » ..

قال ذلك وهو يحل سيور نعاله ، وقد أسرع اليه الخادم بالقلشين ، ثم أخذ ينزع رداءه والخادم يساعده •• فلما سمعت شيرين قوله : « لا تخافى » أدركت انه يقول ذلك تهكما فالتفتت الى والدتها ، فرأتها تفهم مرادها ، فقالت توحيدة : « لست خائفة وما الباعث على الخوف ؟ »

قال طهماز : « أما الباعث على الخوف فانه موجود لأن رامزا يتعرض لأمور كثيرة لا تعنيه ولا تنفعه وقد تضره •• واذا خاطبه

أحد فى سبيل مصلحته استخف به »

ففهمت شيرين انه يشير الى حديث أمس ، وان أباها ناقم على رامز استخفافه بصائب ، فتحولت من بين يدى أبيها الى غرفة قريبة ، وجلست تسمع صوته ولا تراه .. فسمعت والدتها تقول له : « هذا شأنه .. وهو يعرف مايفيده وما يضره .. ؟

فقال بصوت عال : « ولكن تردده الى بيتنا يوقع الشبهة علينا .. »

فعلمت توحيدة ان الكلام مع زوجها فى هذا الشأن ، أصبح عبثا بعد أن رفع صوته ، وقد تعودت طباعه وعرفت كيف تتجنب غضبه لأنها كانت عاقلة حكيمة .. والمرأة اذا عاشرت زوجها زمنا طويلا يجدر بها أن تعرف ما يرضيه أو يغضبه .. فسكتت توحيدة وأظهرت انها مشغولة فى المطبخ ، فلحقتها شيرين والدمع ملء عينيها وصاحت فيها : « أماه .. أماه .. ان قلبى على مثل الجمر » ..

فأشارت بأصبعها على فمها أن : « اسكتى » والتفتت الى الخادم وأمرته أن يذهب الى مسكن رامز يسأل عنه ، ولا يطيل غيابه .. فذهب الخادم مسرعا ، ومالبث أن عاد وقصّ عليهم الخبر ، وان ناظم بك أرسل جندا للقبض عليه وأخذه مع أوراقه الى السراى ..

فلم تتمالك شيرين أن لطمت خدها وقالت : « ويلاه .. ان قلبى دلنى على شرٍّ أتوقعه له .. منذ أتانا ذلك الجاسوس .. قد

صدق ظنى .. »

أما والدتها فأخذت تخفف عنها لئـلا يسمعها أبوها ، وكان طهماز قرب غرفة المائدة واقفا عنـد البوفيه يتناول قدحا من الكونياك قبل الطعام ، فلما سمع التهامس صاح بصوت كالرعد: « ما بالكم ؟ .. ماذا جرى .. هل أتى رامز ؟ »

فأسرعت اليه توحيدة وقالت : « ان ناظم بك قبض عليـه وسجنه » .. قالت ذلك وهى تفرك يديها حسرة وأسفا ..

فضحك طهماز وقال : « هذا الذى كنت أخافه عليه لتهوره.. ولكن لا تخافى .. ان صديقى صائبا يستطيع أن يخـرجه من السجن لأن ناظم بك يراعى جانبه لنفوذه فى المابين ، وسيأتى صائب بك بعد قليل فقد دعوته للغداء معنا .. »

— ٧ —

الرياء

وكانت شيرين منزوية فى غرفتها ، وقد استغرقت فى البكاء لعلمها بالخطر الذى يهدد من يقع هذه الوقعة..وهى تعلم بنشاط رامز ضد عبد الحميد ، فأيقنت من تلك اللحظة ان رامزا مقتول لا محالة فأخذت تندبه .. فلما سمعت أباها يطمئن أمها بصداقة صائب مع ناظم ، تنفست الصعداء لحظة ، ثم تذكرت أن صائبا

أصل هذه المصائب ، فعادت الى البكاء •• ولكن والدتها أظهرت التصديق فدخلت عليها ، وجعلت تخفف عنها قائلة : « يقول أبوك ان صديقه صائبا ينقذه بكل سهولة ، وبعد قليل يأتى ونسأله » قالت ذلك وأمسكت شيرين بيدها كأنها تشغلها عن البكاء وهى تعتقد مثل اعتقاد ابنتها ، ولكنها أرادت تخفيف حزنها وهى خائفة عليها لعلمها ان بين أوراق رامز أوراقا لها لا تقل خطرا ، لأنها كثيرا ما كانت تساعده أو تكاتبه فى موضوعات تدور حول الحرية والنقمة على المابين وأهله ..

فاجتذبت شيرين يدها من يد أمها وغطت بها عينيها وهى تقول : « تسألون صائبا انقاذه وهو الذى تسبب له فى ذلك .. دعينى .. لن أغير اعتقادى فان قلبى دلنى » ..

وبينما هما فى ذلك سمعا وقع حوافر أفراس وقفت عند باب منزلهم ، وهرع الخادم لاستقبال القادم ، ثم سمعته يقول : « انى صائب بك »

فقالت توحيدة : « أتى الرجل .. تجلدى وقومى للغداء ، لعله يستطيع انقاذه .. وعهدى بك انك حكيمة واسعة الصدر ، فمالى أراك تغيرت •• لا يبعد أن يكون لهذا نفوذ عند أولئك لأنهم من طينة واحدة •• قومى وتجلدى •• »

فنفرت وهى تهز رأسها هزة انكار ، وقالت : « قد فارقنى تجلدى •• دعينى •• أم أنت تطلبين منى أن أرى هذا الشيطان وآكل معه ؟•• هل أبدل رامزا به ؟ » ونهضت وأخذت تحل

أزرارها وهى تقول : « انى مريضة لا أستطيع الجلوس »

فاستحسنت والدتهـا أن تمكث فى الفراش لئـلا يشاهدها أبوها على هذه الحال فيغضب

وخرجت توحيدة لملاقاة الضيف والترحيب به ، مراعاة لحق الضيافة وخوفا من غضب زوجها ، وأملا بالنفع على يده فوجدته قد دخل الدهليز وهو يضع عصاه الذهبية على المشمعة ، فلمـا رآها أسرع اليها متأدبا وحياها بلطف وانحناء ، وقد قبض على قفازه بيده الأخرى ، ثم تقدم الى طهماز فحياه وتلطف بمسايرته فدعتهما توحيـدة الى الصالون .. وهو مفروش على الطراز الافرنجى ، فدخلا وجعلت توحيدة تسايره كما ينبغى لها

فافتتح طهماز الحديث عن رامز قائلا : « ان خوفنا على رامز كان فى محله ، وقد بلغنى أنهم قبضـوا عليه فى صـباح اليوم وأخذوه الى السجن .. هل تعلم بذلك ؟ »

فأظهر صائب البغتة وقال : « وهل الذى قبضوا عليه اليوم هو رامز ؟.. كنت عند ناظم منذ ساعة ، وأخبرنى أنه قبض على رجل من أعضاء الجمعية السرية .. ووجدوا معه أوراقا خطرة أرسلوها الى يلدز حالا ، وأرسلوا تلغرافا بخبرها .. ولم يخطر لى أن الرجل هو صديقى رامز .. لاحول ولا قوة الا بالله »

وكانت غرفة شيرين بجانب قاعة الاستقبال (الصالون) فكانت تسمع كل كلمة من الحديث .. وسمعت أباها يقول : « ولكن رامزا ابننا وأنا أعد نفسى بمنزلة أبيه وهو أيضا صديقك .. ألا

تستطيع أن تنقذه من هذه الورطة ؟.. »

قال وهو يمشط لحيته : « لو أخبرتمونى فى الصباح لكان ذلك هينا على .. أما الآن وقد بلغت أخباره الى المابين وأرسلت أوراقه الى الاستانة فكيف السبيل الى انقاذه ؟ »

قال طهماز : « أنت تستطيع ياصائب بك .. »

فأطرق صائب حينا يفكر ، ثم قال : « أما اخراجه من سجن سلانيك فقد أصبح مستحيلا .. لكننى أبذل جهدى فى تخفيف جرمه فى الاستانة اذا أمكن ، ولكنه سامحه الله لم يدع بابا للمصالحة . أخبرنى ناظم بك ان بين أوراقه ما يدخل كثيرين فى الخيانة معه وفيهم امرأة »

فلما سمعت توحيدة قوله صعد الدم الى وجهها وظهرت البغتة عليها لعلمها أن هذه المرأة انما هى ابنتها .. وانها واقعة فى الفخ لا محالة .. ولكنها تجلدت وأصغت ، لعلها تسمع شيئا جديدا وودت لو أن ابنتها مستغرقة فى النوم حتى لا تسمع ذلك . ونهضت تظهر انها تريد مخاطبة الخادم لاعداد المائدة ودخلت الى غرفة ابنتها فرأتها مستلقية على الفراش ، وقد أصاخت بسمعها فحالما أقبلت عليها قالت شيرين : « سمعت كل شىء .. »

قالت توحيدة : « هل سمعت آخر فقرة ؟.. »

قالت شيرين : « ألا تعنين تهمة امرأة مع رامز ؟ قد سمعتها .. وهى تعزيتى الوحيدة لأنى عند ذلك أحمل اليه ، فاما أن نموت معا أو نعيش معا .. هل أنا خير منه ؟ »

فاستولى اليأس على توحيدة لأنها كانت تحسب تعرّض شيرين للاتهام ، مع الأمل فى النجاة على يد صائب ؛ يجعلها تلين وترضى بمخاطبته ، لعله ينقذها من أجلها .. وهى وان كانت تحب رامزا مثل ولدها لايزال قلبها على ابنتها فى الدرجة الأولى فقالت : « نعم يشق علينا كثيرا تعرّض عزيزنا رامز للخطر .. ولكن هل نلقى بأيدينا الى التهلكة ، واذا كان فى امكاننا تخليصك فكيف لا نفعل ، ولعلنا بذلك ننجى رامزا ! »

فقطعت شيرين كلامها قائلة : « تريدين انقاذى على يد هذا الجاسوس .. وهل صدقت قوله ، انه لم يكن يعلم من هو الذى وشى به ؟ .. اننى لا أريد نجاة على يده بل أريد أن يؤكد التهمة على لأشارك رامزا فى حظه خيرا كان أم شرا » . قالت ذلك واستقلت على سريرها ، وغطت وجهها بزندها .. فتركتها والدتها وتوجهت الى المطبخ ، وأمرت الخدم بنقل الطعام ، وأتت الى زوجها فوجدته يتهامس مع صائب وهو يضحك ، فلما رآها سألها عن الطعام هل هو معد .. فقالت : « تفضلوا الى المائدة »

فنهضوا وغسلوا أيديهم وصائب يتوقع أن يرى شيرين قادمة الى المائدة ، فلما جلسوا ظل كرسيها فارغا فقال : « انى لا أرى شيرين معكم .. هل عليها بأس ؟ »

فقالت والدتها : « انها تشكو من صداع أليم لم يفارقها منذ هذا الصباح » ..

فقال طهماز : « دعيها تأتى .. لا بأس عليها »

قالت توحيدة : « ألححت عليها كثيرا ، وأنا آتية من عندها الساعة .. فلم تستطع أن ترفع رأسها ، واستولى عليها البكاء من شدة الألم » قالت ذلك خوفا من أن ينهض أبوها فيراها باكية ويتهمها بشيء آخر

فقال له صائب : « سلامتها .. لا بأس عليها .. هل علمت بحديث رامز .. لاشك أنها تأسف كثيرا عليه . سامحه الله ماكان أغناه عن تلك الأعمال الصبيانية »

وكان الطعام قد أحضر وصب في الأطباق.. واستغرق طهماز في الالتقام والمضغ ، فوضع صدر دجاجة كما هو في فمه .. ولما سمع كلام صائب هم أن يجاوبه وفمه مملوء ، فاستمهله بضم أصابعه الثلاثة اشارة الاستمهال ريثما يبلع بعض مافي فمه ، ثم قال وهو يقطع الخبز ويهيىء لقمة أخرى : « كثيرا مانصحته فلم ينتصح ان شبان هذا الزمان لايعجبهم العجب .. لايعجبهم سلطاننا أيده الله مع أنه من أحسن سلاطين آل عثمان ، هل كان عبد العزيز أحسن منه ؟.. انه لايفوت الصلاة مطلقا ، وفي الاستانة ألوف من الناس يعيشون من بقايا مطبخه ، فلو أقفلت يلدز الآن لمات هؤلاء جوعا .. ثم هم كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول؟! كان ينبغي أن يكون لهم عبرة بالذين تقدموهم من أمثالهم الشبان المغرورين ، كيف كانت عاقبة أمرهم ؟.. ماذا ينالهم من هذا العناد غير العذاب ؟.. ألا يرضون أن يعيشوا كما عاش آباؤهم وأجدادهم ؟! .. » وقد اختصر طهماز خطبته البليغة

لئلا تضيع عليه لقمة وعاد الى الأكل

فقال صائب : « أنا لا ألوم الأحرار على الشكوى من الخلل فانه موجود .. لكننى ألومهم لاستعمال العنف فى مساعيهم كتدبير المكايد لقتل الخليفة أو أعوانه ، والنقد اللاذع فى الصحف الأجنبية .. هذا لايفيد ، ولابد من التؤدة »

وكانت شيرين تسمع قوله ، وتكاد تثب من السرير لتعلق على حديثه ، لكنها صبرت نفسها وسكتت ..

— ٨ —

حديث الخطبة

ولما فرغوا من تناول الطعام ، شربوا القهوة ونهض صائب للانصراف ، فودع طهماز وزوجته ، وكلفهما بالسلام على شيرين ودعا لها بالسلامة ، وركب عربته وانصرف

ودخل طهماز لمشاهدة ابنته ، فرآها نائمة فتركها وذهب ليستريح ، ولم تمض بضع دقائق حتى ملأ شخيره البيت . وكذلك فعلت توحيدة ، لكنها لم تنم لما تولاها من القلق على ابنتها فضلا عن خوفها على رامز

وفى الأصيل نهض طهماز .. وبعد أن تناول القهوة نادى زوجته الى غرفته ، فأتت وهى تقول فى نفسها : « ماذا عسى أن

يكون الغرض من هذا الطلب ؟ » فلما دخلت عليـه ، ناداها للجلوس الى جانبه ، فجلست . فقال لها : « بعـد قليل يأتى صائب بك .. ماذا تقول له ؟ »

فلم تفهم مراده ، فقالت : « عن أى شىء ؟ »

قال طهماز : « عن شيرين .. »

ففهمت أنه يريد خطبتها له ، ولكنها تجاهلت وقالت : « من أية جهة ؟ »

قال طهماز : « ألم تفهمى ؟.. لايخفى عليك ان رامزا المسكين لن ينجو من هذه الكارثة وهو الذى ألقى بنفسه فيها .. وهذه شيرين اذا لم تفهم حقيقة مركزها تكون طائشة مثله . وقد تقدم لها هذا الرجل ، أعنى صائب بك ، وهو رجل وجيه صـاحب نفوذ وثروة .. واذا صاهرناه نلنا العز على يده ، وربما استطعنا بواسطته أن ننقذ رامزا .. ولايخطرن ببالك أنى أكره هذا الشاب، ان رامزا مثل ابنتى كما تعلمين ، لكنه طائش تأخـذه الحـدة ويتطاول الى ماهو فوق طاقته حتى ألقى بنفسه فى ورطة لا نجاة له منها ، وأخشى والكلام فى سرك أن تقع الشبهة علينـا غـدا لكثرة تردده الى منزلنا فنقع فى الشرك .. فاذا كان صائب بك صهرنا ، كنا فى مأمن من ذلك كله »

فرأت فى كلامه تعقلا لم تعهده من قبل فقالت : « أرى الحق فى جانبك ، ولكن هل نفعل ذلك بدون رأى شيرين ؟.. »

قال طهماز : « نسألها .. ولكنها لاتخالف رأى والديها طبعا »

قالت توحيدة : « لا نستطيع أن نخطبها لأحد الا بارادتها »

فهز رأسه ، وقال : « ان بنات هـذا العصر مثـل شـبابه ، لايعملون الا مايخطر لهم •• وكنا فى زماننا تلقى اتكالنا على آبائنا ، وهذا هو سبب الشرور التى نراها تنتابنا من كل ناحية . لم يعد يعجبنا العجب •• نريد أن تتدخل فى كل شىء ونعمل على هوانا حتى صرنا نطلب أن نشارك سلطاتنا فى الحكم ، واذا أبى علينا ذلك نقمنا عليه وأردنا قتله •• مالنا ولذلك ، فاذهبى الآن الى شيرين واقنعيها بوجه الحق وافهميها مركز صائب وأهميته »

فنهضت توحيدة وهى على ثقة من رفض ابنتها ، لكنها أطاعت زوجها ودخلت على شيرين ، وكانت قد تولاها الوسن لحظة . فلما سمعت وقع أقدام والدتها ، استيقظت مذعورة وجلست على الفراش حالا وهى تنظر الى ماحولها وتفرك عينيها لتتحقق أنها فى يقظة.. فلما رأت والدتها ، صاحت : « أماه .. أين رامز ؟.. أين رامز ؟•• ويلاه انى فى حلم •• » وعادت الى فرك عينيها ••

فأدركت والدتها أنها رأت رامزا فى المنام لفرط تفكيرها فيه وتقدمت اليها وضمتها الى صدرها وقبلتها فى عنقها تقبيلا طويلا شاركها الدمع فى الانحدار عليه .. فأحست شيرين بالدمع يتساقط على عنقها سخينا ، فأسفت لأنها سببت لها ذلك الحزن فتباعدت عنها قليلا ، وتفرست فى وجهها وتوحيدة تحاول اخفاء دموعها بالابتسام فلم تستطع . فقالت شيرين : « قد سببت لك حزنا وتعبا يا أماه » ..

قالت توحيدة : « كلا ياحبيبتى ان تعبك راحة ، ولـكننى لا أحب أن يستولى عليك اليأس وعهدى بك عاقلة حازمة .. اصبرى ولا تستسلمى للحزن »

فقالت شيرين : « صدقت يا أماه .. لابد من الصبر»ومسحت عينيها وتنهدت تنهدا خفيا وهى تصلح شعرها ، وتنظر الى مرآة معلقة بالحائط مقابل باب الغرفة المستطرق الى الدار ، فرأت خيال أبيها فى المرآة يمشى حافيا على أطراف أصابعه مسرعا .. فأجفلت عند رؤيته وظهرت البغتة على وجهها ، ولاحظت والدتها عليها ذلك ، فقالت : « مابالك ياشيرين ؟.. ماالذى تفكرين فيه ؟ » ..

فأجابتها وهى تلتفت نحو الدار وقالت بصـوت منخفض : « لا أفكر فى شىء ، لكننى رأيت والدى مارا من هنا .. لعله استيقظ ؟ »

قالت توحيدة : « نعم ياعزيزتى وكنت معـه الآن نشرب القهوة فى غرفته وأنا قادمة من عنده »

فدلها قلبها على شىء تكتمه والدتها لأنها دقيقة الشعور الى درجة التنبؤ .. فلايكاد جليسها يهم بالكلام حتى تفهم مراده . لكنها كانت تصبر نفسـها عن التصريح بما يجول فى خاطرها ، فقالت : « لأمر أتيت الى .. خيرا ان شاء الله »

فمدت توحيدة يدها الى شعرات مسترسلة على جبهة شيرين وجعلت تعبث بها ، كأنها تضفرها.. وقالت : « لم آت الا لخير

ياحبيبتى » وغصت بريقها وتلألأ الدمع فى عينيهـا فتداركت نفسها بالكلام فقالت : « قد كلمنى أبوك بشأن صائب بك .. ان الرجل سيعود الينا بعد قليل »

فأجفلت شيرين عند ذكر اسمه وحولت وجهها نحو الحائط وقالت : « مالى وله .. ان عاد أو لم يعد .. انى لا أريد أن أراه » ..

قالت توحيدة : « ليس الأمر أن تريه أو يراك فقط .. »

ففهمت شيرين مرادها ، لكنها استبعدت أن يتقدم صائب بك لخطبتها بعد مالاحظه من جفائها وتباعدها ، فقالت : « ماالذى يبغيه اذن ؟ »

قالت توحيدة : « ان والدك خاطبنى بشأنه ، وكلفنى باقناعك انه شاب وجيه غنى معروف عند رجال الدولة ، وهو الآن صاحب النفوذ الأكبر .. فمثله لايرد طلبه ياعيونى » قالت توحيدة ذلك وهى لاتعنيه ، لكنها تعلم أن زوجها لابد أن يتلصص لسماع ماتقوله لابنتها لسوء ظنه بها ، وتحققت مما قالته شيرين أنه دخل الصالون ليسمع مايدور بينهما ، وهى مع ذلك على ثقة أن ابنتها سترفض ذلك الطلب رفضا باتا

« .. وظهرت البغتة على وجهها ، ولاحظت والدتها عليها ذلك ،
فقـــالت : ما بالك يا شيرين ! .. ما الذى تفكرين فيه ؟.. »

— ٩ —

الرفض

أما شيرين فاستغربت كلام والدتها بهذه اللهجة مع علمها بما فى نفسها نحو رامز ، فلاحظت أنها تقوله كأنها على مسمع من أبيها تتجنب به غضبه وفظاظته •• فرأت أن تجاريها بالملاطفة لنفس هذا السبب فقالت : « انه نعم الشاب ، أو فليكن كما يشاء ، ماالذى يعنينى من أمره ؟•• انه لايعنينى •• »

قالت توحيدة : « ان والدك ألح على أن أقنعك بأنه شاب يليق بك ، وانك اذا لبيت طلبه ، فقد يكون واسطة لانقاذ رامز بنفوذه » ..

فأحبت شيرين أن تبقى على تجلدها ، لكنها غلبت على صبرها فقالت : « انقاذ رامز ؟.. وهو ينقذه ؟.. ماذا يفيدنى انقاذه اذا كنت عند هذا الجاسوس •• بل كيف ينقذه وهو الذى رماه فى هذا الفخ •• و •• »

فبادرت توحيدة فأقفلت فم شيرين بكفها ، وهى تشير بوضع سبابتها الأخرى على فمها اشارة السكوت خوفا من سامع أو متلصص ..

فنفرت شيرين وأزاحت كف والدتها عن فمها وقالت : « ولماذا أسكت •• بأى قلب تخاطبوننى فى هذا الشأن ؟ » وغلب عليها

البكاء ، فلم تر والدتها خيرا من تركها لئلا تقول مايكدر والدها خوفا من الفضيحة ، لأنه اذا غضب لايقدِّر عواقب مايقوله .. فتنحت عن سرير ابنتها ، وهي تقول لها : « سأتركك الآن ريثما تفكرين في الأمر وسأعود اليك بعد قليل » وأشارت بعينيها انها تفعل ذلك حذرا من طهماز • وخرجت وأغلقت باب الغرفةوراءها وأظهرت انها ذاهبة الى غرفة زوجها لتخبره بما جرى ، وهي تعلم أنه في الصالون .. فلم تتحرك سوىخطوتين ، حتى رأته يمشي في أثرها وهو يشتغل باخراج فضلات الطعام من بين أسنانه بظفر خنصره ويتلمظ •• فتظاهرت بالبغتة ، وأومأت اليه أن يتبعها فدخلا غرفته وقالت له : « لابد من الصبر ياسيدى •• انشيرين لاتزال منحرفة الصحة فلنتركها الآن •• »

قال طهماز : «تتركها ؟.. ولماذا ؟.. بعد قليلسوفيأتى صائب ويجب أن نجيبه سلبا أو ايجابا وأنا وعدته بالايجاب ، فهلأكذب عليه ؟•• أم كيف تريدين ياهانم أفندى ؟•• » قال ذلك بتهكم وجعل يعبث باخمص رجله اليسرى بأصابع يده اليمنى

فاهتمت توحيـدة بالأمر لعلمهـا أن زوجها لم يعط الثبات والحزم الا فى معاكستها •• فهو ضعيف مع كل انسان ، كثير الاصغاء والاذعان لأهل الدسائس ، يدار بكلمة ويقاد بشعرة الا معامرأته ، فانه عنيد معها لايرجع عنقوله لأنه يعد رجوعهضعفا.. فكيف وهو رجل البيت لايكونكلامه نافذا ؟••فلما رأتتوحيدة تصميمه قالت : « لابد من التأني ياسيدى •• لأنشيرينمشغولة

الخاطر على رامز مثلنا ، فاتركنى ريثما أخاطبها فى فرصة مناسبة»

قال طهماز : « بل هى مشتغلة الخاطر عليه أكثر منا جميعا لأنها تريد أن تكون من الأحرار ، ماشاء الله .. هل تظنين سكوتى عنها فى الماضى كان عن قبول ورضى بما كانت تأتيه ؟.. ولكنى كنت أغتفر ذلك أحيانا لأن رامزا ابن خالتها ، وأتوقع أن ترجع من نفسها ، فاذا هى لاتزداد الا تماديا حتى كادت توقعنا فى ورطة لاخلاص لنا منها .. الا على يد صائب بك ، وقد تفضل علينا الرجل وحذرنا ، بارك الله فيه .. فكيف نقابله بالكذب أو الجفاء ها أنا صرحت لك بكل شيء .. فهمت ؟ » قال ذلك وهو يشير بيديه متحمسا ، ثم أخرج سيجارة من صحن بين يديه وأشعلها ، واتكأ وأخذ يدخن ولسان حاله يقول : « قد فعلت ما علىّ .. فافعلى ماعليك .. »

أما توحيدة فلم يبق عندها شك فى حرج مركزها ، فاستندت الى الحائط وأخذت تفكر فى الأمر ، وقد بدا القنوط على محيّاها خوفا على شيرين من دناءة ذلك الجاسوس واستبداد والدها . وهى تعلم جيدا أن ابنتها لاتقبل بدلا من رامز ، فكيف اذا كان البديل مثل صائب .. لكن خوفها على حياتها وحياة رامز ، هوّن عليها الاقتناع برأى زوجها — وهم فى عهد كل فعل فيه جائز — عهد الجاسوسية ، والظلم، وقد أصبحت الأرواح ، والأعراض، والأموال ، فى أيدى الجواسيس يضعون من شاءوا ، ويرفعون من شاءوا ، لايتكلفون فى ذلك الا كلمة يقولونها بتقرير يرفعونه

الى ذلك الطاغية السفاح .. وقد عرفت أناسا ذهبوا غرقا فى البوسفور ، أو قتلوا بحد السيف أو بالسم ، وهم أبرياء .. فخشيت أن يصيب ابنتها شيء من ذلك وهى متهمة بالحرية ، ولا بد من عثورهم على أوراق لها فى جملة أوراق رامز ، وفيها مايكفى لاثبات التهمة عليها ، واذا أغضبت صائبا تمت أسباب النحس لأنه يسعى فى الانتقام لنفسه

— ١٠ —

التلغراف

مرت هذه الخواطر أمام مخيلة توحيدة ، وهى مسندة كتفها الى الحائط وقد أطرقت واستغرقت فى لجج الأفكار ، وزوجها مشتغل بالتدخين يتلهى عنها بمراقبة حلقات الدخان وهى صاعدة . أو ينفض الرماد عن طرف السيجارة وان لم يكن هناك رماد

وبينما هى فى ذلك ، سمعت جرس الدار يدق فاستيقظت من هواجسها ، وأسرعت دقات قلبها خوفا من أن يكون القادم صائبا ، فأصغت ريثما يفتح الخادم الباب .. ولم تمض برهة حتى جاء الخادم مسرعا وهو يقول : « أتى البيك .. أتى صائب بك»

فهب طهماز من مجلسه ، ولم يعرف كيف ينتعل قلشينه من البغتة والدهشة ، وانصرفت توحيدة الى بعض مهام البيت، وهى

تود أن تعود الى ماكان يريده زوجها من التحجب عن كل زائر لتتخلص من رؤية هذا القادم لأنها هى التى حملته على التساهل فى أمر الحجاب جريا على مقتضى التمدن الحديث .. على أن الأتراك وخاصــة فى ســلانيك كانوا قد خففوا الحجاب على الاجمال ، فالمرأة تجالس الرجال وهى مكسوة الرأس بالنقاب ، أو الشال .. ولم يكن طهمــاز يأذن لزوجته أن تلاقى ســوى الأخصاء من معارفه مثل صديقه صائب

فودت توحيدة فى تلك الساعة أن تكون محجبة لأنها كرهت أن تعود الى موضوع خطبة هذا الرجل لابنتها ، رغم ماهمها من أمره بعد ماسمعته من التهديد .. فتولتها الحيرة ، وذهبت من تلك الغرفة الى غيرها وهى تسمع قرقعة عصا صائب وهو يضعها على الشماعة .. ثم سمعت طهماز يرحب بضيفه العزيز ويدعوه الى الصالون ..

فخطر لها أن تفتقد ابنتها لترى حالها بعد سماع جرس الدار ، وعلمها بمجيء صائب .. فدخلت الغرفة من باب داخلى فوجدتها قد توسدت الفراش وأحاطت رأسها بعصابة كأنها تشكو صداعا فهرعت اليها وأخذت تجس يدها لئلا تكون محمومة ، فلم تجد بها بأسا .. فضمتها وقبلتها وهى تقول : « مالك ياعيونى .. مم تشكين ؟.. »

فأجابت شيرين بصوت ضعيف : « أشكو من صداع خفيف لاتخافى » ..

فقبّلت جبينها ، وكأنها تتحسسه بشفتيها ، لتتحقق من خلوه من السخونة ثم قالت : « توسدى ياحبيبتى .. نامى .. ان النوم يخفف الصداع »

فقالت شيرين : « أنا أحاول النوم جهد طاقتى » وأرادت توحيدة من اغرائها على النوم أيضا ، ألا تدعها تسمع ماقد يدور بين أبيها والضيف من الحديث الذى يحز فى نفسها ، لقرب غرفتها من الصالون ، فسرها أنها أذعنت حالا لأمر أمها ونامت بدون أن تبدل ثيابها . وخرجت توحيدة وهى تسمع صوت زوجها يناديها ، فأصلحت من شأنها ووضعت الخمار على رأسها ودخلت الصالون . فوقف صائب بك يهش لها ويرحب بها وقال : « انى فى غاية الامتنان للطف سيدى طهماز بك وأنسه ، فانه يعدنى من أهل المنزل كأحد أولاده . وأنا أعرف أنه لايفعل ذلك مع كثيرين وهذه هى المرة الثانية التى جئت فيها اليكم اليوم .. تفضلى اجلسى » قال ذلك وجلس

فجلست توحيدة باحترام ، وهى تجامله بالترحاب ، فوقع نظرها على ورقة فى يد طهماز يتصفحها وهو يبتسم ، ولسان حاله يقول : « اسألونى عن فحواها »

فأدركت توحيدة غرضه فقالت : « ما هذا ياسيدى ؟.. » وأشارت الى الورقة ..

فقال طهماز : « تلغراف من الاستانة » وأبرقت عيناه

فتبادر الى ذهنها أنه تلغراف باطلاق سبيل رامز ، فتسارعت

دقات قلبها وهمت أن تخطفه من يده لتقرأه ، لكنها أمسكت نفسها تأدبا وقالت : « لعله بشأن رامز ؟.. »

فهز كتفيه وقال : « ان أمر رامز بعيد المنال .. ولكنه بشأن آخر لا أصارحك به » وفى صوته غنة دلال أو مداعبة ..

فلم يرق لها ذلك الدلال بعد ذهاب أملها أن يكون التلغراف بشأن رامز ، ولكنها تجلدت وقالت : « بأى شأن ياسيدى ؟.. هل يهمنى أن أعرفه ؟ »

فضحك وقال : « طبعا يهمك لأنه بشأن زوجك .. لاتخافى .. ليس فيه أمر بالنفى ، ولا السجن ، والحمد لله »

فتناول صائب الحديث وهو يتواضع قائلا : « طبعا لاينبغى أن يكون فيه شىء من ذلك لأن المخلصين للذات الشاهانية يعاملون غير معاملة الخوارج المارقين » وتشاغل باصلاح نظارته لحظة وتنحنح ثم قال : « هذا تلغراف ياسيدتى من المابين الهمايونى ينبىء بأن جلالة مولانا البادشاه أعزه الله قد أنعم على سيدى طهماز بك برتبة سنية بناء على ماتحققوه من صدق عبوديته للذات الشاهانية المقدسة .. »

فقطع طهماز كلامه قائلا : « ومن أين عرفوا ذلك لو لم يتفضل سعادة البيك بابلاغه اليهم .. فانك صاحب الفضل فى هذه الرتبة .. »

فأخذ صائب يتلطف ويتواضع ويقول انه لم يفعل شيئا ، وان طهماز انما نال تلك الرتبة عن استحقاق لصدق عبوديته ولما يرجوه

أمير المؤمنين من الخدمات النافعة على يده .. وطهماز يجيب معتذرا متواضعا ، وتوحيـــدة بينهما جامدة كالصنم لاشـــتغال خاطرها بما تخشاه من حديث زوجها بشأن الخطبة أو ما يجرى مجراها ، فأحبت أن تشغلهما عن هذا الموضوع فقالت : « هل يعلم صائب بك شيئا عن رامز ؟ »

فتزحزح صائب عن كرســيه ، وهو يظهر الاحتفاء بحديث توحيدة وقال : « نعم ياسيدتى ان أمر هذا الشاب همنى كثيرا نظرا لما علمته من علاقات القربى بينكم وبينه ، وقد سألت ناظم بك القومندان عما جرى بشأنه فقال : « انه جاءه تلغراف من المابين يطلبون فيه توجيه رامز الى الاستانة وأظنهم يحملونه اليها بقطار الليلة » ..

فأجفلت توحيدة وندمت لأنها فتحت هذا الحديث خوفا من أن تسمعه ابنتها ، وأرادت تحويله فلم تجد غير الرجوع الى حديث الرتبة فقالت : « كم ينبغى أن نشكر لك سعيك فى هذه الرتبة .. »

فقطع طهماز كلامها قائلا : « وسنشكر فضله أكثر من ذلك متى نجح سعيه فى سبيل رامز .. لا أظن أن ذلك يصعب عليه .. أين ابنتنا شيرين ؟ .. »

قالت توحيدة : « لاتزال مريضة ، وقد مررت بها قبل مجيئى الى هنا فوجدتها نائمة مشدودة الرأس من صداع طرأ عليها .. »

فقال طهماز وهو يتناول سيجارة من علبة بين يديه ويقدمهـــا

الى صائب : « طبعا أصابها الصداع من شدة الحزن..ولكن..»

– ١١ –

الهـــدية

فقطع صائب كلامه قائلا : « ألا يحق لها أن تحزن ، والشاب ابن خالتها ، وقد تعاشرا كالأخوين .. انى قاسيت كثيرا ومرت بى أحوال عديدة ، ومع ذلك فان أمر رامز أقلـــق راحتى .. مسكين .. سأبذل جهدى فى التخفيف عنه . وأنا أعد ذلك واجبا على بالنظر لما لاقيته من مؤانسة سيدى البيك وحضرة هانم أفندى (وأشار الى توحيدة) وأود أنأستطيع أمرا عاجلا يخفف عن شيرين لأنى أشعر بعطف خاص نحوها بعد ما آنسته من آدابها ولطفها وحسن تربيتها .. حفظها الله .. » قال ذلك ومد يده الى جيبه وأخرج علبة مكسوة بالمخمل المزركش ، وقال وهو يفتحها بين أصابعه : « وأظن مما ألاقيه من لطفكم ان شـــيرين تشعر نحوى بمثل ما أشعر به نحوها .. فاذا قبلت هذه الهدية منى يتحقق ظنى ، وعند ذلك أعد نفسى سعيدا »

ثم وجه خطابه الى توحيدة وقال : « لاتستغربى يا ســـيدتى هذه الجسارة منى ، فان سيدى طهماز بك جرأنى على ذلك » وقدم العلبة مفتوحة الى توحيدة فوقع بصرها فيها على قطعة من

الحلى بشكل الطير مرصعة بحجارة من الماس والياقوت ، يأخذ لمعانهـا بالبصر ، لا يقدرها الخبراء بأقل من خمسمائة ليرة ٠٠ فتناولت العلبة ويدها ترتجف من الارتباك لعلمها أن شيرين لايرضيها شيء من ذلك ، فلم تعرف ماذا تجيب ٠٠

فأجاب طهماز عنها قائلا : « ان شيرين عاقلة ومدركة ، وهى من بنات هذا العصر اللواتى اختبرن وطالعن ٠ فهى لاتجهل مركز صائب بك بل هى تقبل هديته مع الامتنان ٠٠ » وتناول العلبة وجعل يتفرس فى أحجارها ولمعانها ، وقال : « أنا أقدم لها هذه الهدية عنك » قال ذلك ونهض وهو يتهادى فى مشيته والعلبة فى يده ، فتبعته توحيدة وقلبها يختلج خوفا مما تخشى وقوعه على أثر تلك المقابلة

وكانت شيرين متوسدة الفراش ، وأذناها صاغيتان لما يدور من الحديث فى الصالون ، فلم تفتها كلمة قيلت هناك ٠ فلما سمعت قول والدها وعلمت انه مشى نحو غرفتها ارتعدت فرائصها ، وغلب عليها الغضب ٠٠ وودت لو أنهم يعفونها من تلك المقابلة ٠ لكنها مالبثت أن سمعت نحنحة والدها بالباب ٠ وأسرعت والدتها أمامه تسترق الخطى نحو سريرها وتحسبها نائمة ، فاذا هى قد جلست وأخذت تفرك عينيها فقبلتها والدتها وقالت لها : « كيف حالك الآن ياشيرين ؟٠٠ »

فلم تجبها ، لكنها تجلدت وحولت نظرها نحو الباب ، فرأت أباها داخلا وقد أخرج الطير المرصع من العلبة وتقدم نحـوها

بلطف لم تعهده فيه من قبل .. حتى اذا دنا من السرير ابتسم وهو يتجشأ ، وقدم الطير المرصع اليها قائلا : « كيف تجدين هذا الطير يابنية ؟.. ألا تستلطفينه ؟.. »

فتباعدت شيرين عن الطير المرصع كأنما تخشى أن يلسعها ولم تجب .. فتفرس أبوها فى وجهها وهو يضحك ، وقال : «لاتخافى، انه لايؤذى .. بل هو حلية ثمينة تليق بعنقك الجميل » وقربه نحو صدرها ..

فتراجعت شيرين وهى لاتنظر اليه .. ودفعت يد والدها عنها بلطف ، فقال : « مابالك .. لعلك لاتزالين مريضة ؟.. »

فسرها سؤاله لأنه فتح لها بابا للكلام ، فقالت : « نعم يا أبى .. انى أشكو صداعا شديدا » وأظهرت ميلها الى الرقاد..

فأمسكها من ذراعها ليمنعها من النوم ، وقال : « اذا كنت تشكين صداعا ضعى هذا الطائر على رأسك فانه يشفيه » ورفعه الى رأسها

فردته شيرين وأظهرت الامتناع ، فأظهر انه عاتب عليها وقال : « أقدم لك هدية وترفضينها ياشيرين ؟ »

فنظرت اليه نظرة عطف ، وقالت : « انك والدى وتستطيع أن تأمرنى بما تريده فأطيعك .. الا هذا الأمر فانى لا طاقة لى به ».

فقال طهماز : « لا أظنك فهمت مرادى ياشيرين .. انى أقدم لك هدية ثمينة جاءنا بها صديقنا صائب بك »

قالت شيرين وصوتها يرتجف : « اذا كان صديقك قدمها لك

فالبسها أنت واعفنى منها •• »

قال طهماز : « انها هدية لك .. وليست لى .. »

قالت شيرين : « لا أعهد بينى وبينه مايسوغ له تقديم هدية من هذا النوع » ..

قال طهماز : « ان الرجل ذو فضل علينا .. وقد أراد اكرامنا ، هل يليق بنا أن نرفض اكرامه ؟ »

قالت شيرين : « يمكنك أن تقبل مايقدمه لك •• أما أنا فلا»

فأظهر طهماز الغضب وقال : « أنا أقول لك اقبليها ياشيرين »

فلم تعد شيرين تستطيع صبرا على كظم غيظها ، فقالت وقد ارتفع صـــوتها رغم ارادتها : « لا •• لا •• لايمكننى قبولها ياسيدى » ..

– ١٢ –

قلب الوالدة

وكانت والدتها واقفة وقد تولتها الحيرة •• ونظرا للهفتها على ابنتها وما كانت تتوقعه من مساعدة صائب فى انقاذ رامز، أحست بميل الى قبول شيرين لما يعرضه عليها أبوها ، فقالت : «لاتتشبثى برأيك ياشيرين ياحبيبتى •• استوعبى المقصود ثم قولى مايبدو لك » ..

فالتفتت الى والدتها لفتة عتـــاب وقالت : « وأنت أيضـــا

يا أماه ؟ » وغصت بريقها وظهر الدمع فى عينيها ، فكان لذلك المنظر وقع شديد على قلب والدتهـا فسكتت • فعاد أبوها الى الكلام فقال : « ألا ترينني أطيل بالى عليك وأتلطف فى محادثتك؟ فاصغى لما أقوله لك •• أنا أعلم انك غاضبة مما أصاب عزيزنا رامز اليوم •• ولكن •• »

فقطعت كلامه ولم تعد تتمالك عن البكاء ، فأدارت رأسها نحو الحائط وأكبت على ذراعها فوق الوسادة وبكت همسا • لكن والدها عرف بكاءها من اهتزاز كتفيها فغضب لأنها قطعت كلامه بالبكاء وقال : « وتبكين أيضا وأنا أتزلف اليك وأراعى خاطرك ؟ تبكين لذكر رامز وهو الذى جر البلاء على نفسه وعلينا ؛ وأنا أسعى فى ترقيع ما مزقه بطيشه •• ألا تعلمين انه أوقع نفسه فى غضب البادشاه وأخشى أن يكون أوقعنا معه ، وقد وفقت بمعونة الله الى من ينقذنا من هذه الشرور عند الحاجة • أعنى صديقى صائب بك .. وهو مع ذلك يعرض علينا موته ، فترفضينه بهذه الفظاظة •• قومى •• اجلسى •• » وأمسكها من ذراعها يريد اجلاسها فأفلتت منه ، وظلت مكبة على ذراعها •• وقد استرسلت فى البكاء

فالتفت طهماز الى توحيدة وهز رأسه استنكافا من تصرف ابنته ، فوقعت توحيدة فى حيرة ، وخشيت الفضيحة •• فأشارت الى زوجها بضم أصابعها الثلاثة اشارة الاستمهال ، وأومأت إليه بعينيها أن يخرج ويتركها معها على انفراد •• فاستبشر وتوقع أن

تتمكن من اقناعها ، فتنحى الى أحد جوانب الغرفة ثم خرج الى الدار ..

فعلمت شيرين بخروجه من صوت مشيه ومن سعاله وهو خارج ، ثم سمعت والدتها تهمس فى أذنها قائلة : « لايليق ياحبيبتى أن تجيبى والدك على هذه الصورة ·· ولو علمت ما فعلوه برامز بعد القبض عليه لما ·· »

فقطعت كلامها قائلة : « نعم ·· علمت »

فقالت توحيدة : « هل علمت انهم سيأخذونه الليلة الى الاستانة بأمر من السلطان ؟ »

قالت شيرين : « نعم ·· وأنا أتوقع أعظم من ذلك ·· »

قالت توحيدة : « اذن فكرى فى الحرج الذى نحن فيه ، وأنا على يقين اننا اذا سايرنا صائب بك أمكن أن ينقذ رامزا ، وينقذنا اذا لحقتنا تهمة بسببه ·· بالله ألا خففت من جفائك وسايرت أباك بحسب الظاهر لنرى ماذا يكون ·· قومى قبلى يده وخذى الهدية ، فانها لاتقدم ولا تؤخر ·· »

فرفعت شيرين رأسها عن الوسادة وقد احمرت عيناها كأنها محمومة وتكسرت أهدابها من فرط البكاء وقالت : « لم أكن أحسبك تصدقين الأكاذيب أو تنخدعين بأقوال المنافقين ··وهبى أن الرجل صادق فيما يقول ، فانى لا أستطيع أن أتصوره ولا أقبل منه شيئا .. لاتتعبى نفسك »

قالت توحيدة : « أخشى أن تندمى ياشيرين اذا علمت بعدئذ

انه كان فى امكانك أن تنقذى رامزا من الخطر ولم تفعلى »

فصرت شيرين على أسنانها وهى تتنهد وقالت : « لا •• لن أندم ، لأن هذا الرجل الذى يدعى الغيرة علينا وعلى رامز •• هو الذى رماه فى ذلك الفخ »

فغطت توحيدة فم شيرين بكفها خشية أن يسمعها أحد وقالت بصوت ضعيف : « لانستطيع أن نثبت هذه التهمة •• وما علينا الا أن نساير الكاذب حتى باب الدار »

فبادرتها قائلة : «كفى يا أماه •• انى لم أعد أستطيع صبرا على هذا الجدال ، ان موتى وموت رامز أهون على من قبول هذا الرجل •• » قالت ذلك وشرقت بريقها وعادت الى البكاء

وبينما هما فى ذلك ، سمعا وقع أقدام طهماز داخل الغرفة وهو يقول : « اسمعى ياتوحيدة •• ان صائب بك يجب أن يكلم شيرين بنفسه .. لعله يستطيع اقناعها » ..

فلما سمعت شيرين قوله ، وثبت عن السرير ووقفت وأسندت يدها الى احدى قوائمه •• وقد حولت وجهها عن باب الغرفة كأنها تحذر أن يقع بصرها على ذلك الرجل الذى لاتستطيع أن تتخيله ..

فأعاد طهماز كلامه قائلا : « ان صائب بك يريد أن يكلم شيرين على انفراد •• فهل من بأس ؟•• »

فارتبكت توحيدة من هذا الاقتراح لأنه يخالف العادة المألوفة، ونظرت الى زوجها كأنها تستشيره • فقال : «دعيهما يتحادثان اذ

ربما كان صائب بك أقدر على الاقناع منا ، وهو لم يقدم على ذلك طبعا الا لشدة محبته .. الا اذا كانت شيرين ترفض هذا الطلب منى أيضا »

أما شيرين فاستجمعت رشدها وتجلدت ، وأحست بميل الى الحديث مع ذلك الرجل ، وهى فى تلك الحال من الغضب ، لتقول له فى وجهه ماتعتقده فيه ، وتشفى غليلهـا بتوبيخه وتعنيفه ، والتفتت الى أبيها وقالت : « لابأس من دخوله »

— ١٣ —

صائب يتكلم

وكان صائب واقفا بالباب ينتظر الاذن بالدخول ، فلما سمع قولها استبشر ، واستبشر أبوها أيضا .. فخرج الأبوان من الغرفة ، ودخل صائب وهو ينظر الى شيرين نظر المحب الولهان ، ويتشاغل باصلاح نظارته باحدى يديه ، وقد حمل بيده الأخرى العلبة وفيها الطير المرصع

فلما دنا منها وهى واقفة بجانب السرير ، التفتت اليه شزرا وقالت : « ما الذى تريده ياسيدى ؟.. »

فتقدم بلطف كأنه يحذر أن يدنو منها وقال : « أريد رضاك »

قالت شيرين : « وما الذى يهمك من رضاى ..؟ »

قال صائب بك : « ذلك كل مايهمنى .. فاذا وُفّقت اليه فقد

تحققت لى السعادة .. وتكونين أنت سعيدة أيضا ، بل تكونين أسعد مخلوقة على وجه الأرض » قال ذلك بنغمة التذلل والتودد

فقالت شيرين : « أية علاقة بين سعادتى وسعادتك ..؟ »

فابتسم وقال : « لأنك اذا رضيت وقبلت هذه الهدية الحقيرة ، بذلت نفسى فى سبيل سعادتك » وقدم العلبة على كفه نحوها فتباعدت هى عنه ، وخبأت يدها وراء ظهرها وهى تقول : « أنت لاتستطيع أن تجعل أحدا سعيدا »

فاستبشر بذلك التوبيخ ، وقال : «جربى ياشيرين وانظرى .. فانك ترين منى خادما مطيعا ، أذعن الى أوامرك وأكون طوع ارادتك .. فأبذل جهدى فى كل ماتريدينه »

فقالت شيرين : « هل صحيح ماتقول ؟ »

فسره سؤالها وتأكد من رضاها ، فقال بلهفة : « أقسم لك انى أفعل ماتريدينه »

فقالت شيرين : « ان غاية ما أريده أن تكون بعيدا عنى .. فاذا كنت صادقا فيما تقول ، فانصرف بسلام »

فنظر اليها نظرة عتاب وقال : « هل بمثل هذا الجواب تقابلين توددى .. ثقى ياشيرين انى مفتون بك لا أدخر وسعا فى سبيل الظفر برضاك .. »

فقطعت كلامه قائلة : « هل كان من عظم حبك لى وشغفك بى أنك رميت ذلك الشهم الحر فى أعماق السجن ؟ »

فتحمس عند سماع كلامها وقال : « أنا رميته فى السجن ؟

أعوذ بالله •• أنا رميته ؟•• انما رماه طيشه وســوء تدبيره !•• ولـكننى مستعد أن أنقذه من الفخ اكراما لعينيك »

قالت شيرين : « تنقذه من الفخ ؟ ومن رماه فيه سواك ؟ »

فبالغ فى الاستغراب وقال : « أنا ؟•• رميته ؟•• ارجعى الى رشدك » وأظهر الاستخفاف بقولها ليبعد التهمة عنه ، وتجاهل وقرب يده والعلبة فيها وقال : « دعى عنك الأوهام •• وارجعى الى رشدك ، واقبلى هذه الهدية •• واعلمى ان ذلك الغلام ليس أهلا لك ، بل انه أوشك أن يوقعك فى خطر لايُنجيك منه أحد .. أوشك أن يجعلك سجينة مثله لتهمة مثل تهمته • ولولاى •• ولولا حبك لكنت الآن تحت غضب الذات الشاهانية •• صدقينى ياشيرين انى خدمتك خدمة لاتقدر بالأموال » قال ذلك والعلبة لاتزال مرفوعة على كفه يقدمها نحوها ، وهو ينظر فى عينيها نظر العاشق المفتون ..

فاختطفت العلبة من يده ورمتهـا الى الأرض وهى تقول : « دعنى من هديتك الملطخة بالدم وقل لى كيف أنقـذتنى من الهلاك ؟•• ان حبل الكذب قصير »

فشق عليه ماصنعت •• ولكنه تجلد والتقط العلبة ، فوضعها فى جيبه ، وقال : « انى أعذرك لجنونك ، ولا أعاملك بعملك •• لكننى أنصح لك أن تصدقينى •• صدقينى ياشيرين ، انى أنقذتك من الهلاك »

قالت شيرين : « كذبت •• ان مثلك لايستطيع سوى ايقاع

الناس فى المهالك »

قال صائب : « ولكن الذى يستطيع أن يوقع الناس فى المهالك يستطيع أن يخلص الناس منها » ومد يده الى جيبه وأخرج ورقة أمسك بها وهو يقول بلهجة التهديد : « اعلمى ان حياتك وموتك فى قبضة يدى هذه »

فضحكت ضحكة ازدراء ، وقالت : « خسئت .. يكفيك تمويها .. يكفيك ما ارتكبته بايقاع ذلك الشاب الحر فى أيدى القوم الظالمين . أوقعته بين مخالب الموت لترضى ذلك الطاغية السفاح .. قبحكم الله من أشرار .. ويل لكم من موقفكم يوم الحساب » وغصت بريقها رغم ارادتها ثم تجلدت ، وقد أحست بقوة وبسالة لم تشعر بمثلهما من قبل ، وحولت وجهها عنه وجعلت تمشى فى الغرفة مشية الأسد الظافر

— ١٤ —

التهديد

فأخذ الحنق من صائب مأخذا عظيما ، وصر على أسنانه ومد يده وهو ممسك بها على تلك الورقة وقال : « لا أراك فهمت ما أقوله لك .. قلت ان موتك وحياتك فى قبضة يدى هذه ، فاذا أطعتنى ورجعت الى رشدك ورضيت بما عرضته عليك كنت سعيدة .. والا فانى .. »

فقطعت كلامه قائلة : « انك أقصر باعا مما تشير اليه .. »
فتقدم نحوها وقد أمسك تلك الورقة بسبابته وابهامه بحيث ظهرت كلها .. وانحنى انحناء التهكم وقال : « ألا تعرفين هذه الورقة ؟ »

فلما وقع بصرها عليها علمت أنها من الورق الذى كانت تكاتب به رامزا أحيانا ، فأجفلت ولكنها كظمت غيظها وقالت : « وماذا عساها أن تكون ؟ » ..

قال صائب : « أنا أقول لك ماهى .. هى كتاب منك بخط يدك وجدته بين أوراق ذلك الطائش الغر .. أتعلمين ماتقولين له فيه ؟ »

فأوجست خيفة لعلمها انها كانت تكتب الى رامز بدون حذر ، وقد يكون فيها ماتؤاخذ عليه ، لكنها أدارت رأسها وقالت : « لا أعلم ما بها ولا يهمنى أن أعلم »

قال صائب بك : « ألا يهمك اذا كنت تقولين له فيها أنك تجدين بقاء الذات الشاهانية ، جلالة مولانا أمير المؤمنين ، مصيبة على الأمة العثمانية ؟ »

قالت شيرين : « أليس ذلك حقا ؟ »

قال صائب بك : « لا أدرى .. ولكننى أعلم ان وصول هذه الورقة الى يدى جلالته يجعلك تندمين ساعة لاينفع الندم . واذا كنت لم تصدقى ما أقوله ، فهذا خطك اقرئيه » قال ذلك وفتح الورقة فوقع بصرها عليها .. فعرفت خطها ، فلم يبق عندها شك

من وقوع الخطر •• لكنها ظلت تظهر الاستخفاف
أما هو فقال : « هل تظنين أن هذه الورقة لاتحوى غير ما ذكرته لك •• لو قلت فحوى مابقى منهـا لترامیت على قدمى تلتمسين كتمان هذا الكتاب ، تقولين له فيه انك تستغربين صبر الأحرار على بقاء هذا السلطان على قيد الحياة ؟•• هل فى الدنيا ذنب أعظم من هذا ؟•• هل تجدين سبيلا للانكار ؟ » ثم خفض صوته وقال : « هل تحققت الآن ان حياتك وموتك فى قبضـة يدى ؟ » قال ذلك وشمخ بأنفه ووقف ، وهو يتوقع ان تترامى شيرين على قدميه كما قال •• لكنه رآها لاتزال مستخفة به كأنه لم يقل شيئا ، فتقدم نحوها وقال : « ومع ذلك فأنا حتى الساعة أعرض عليك حياتك .. أى أنى أهبها لك ، على شرط أن ترجعى عن غيك وتعتذرى عما مضى وتعتقدى انى أحبك والا •• »
فحولت وجهها عنه وهى تنظر اليه بطرف عينيهـا ازدراء وتمتمت : « أعتذر عما مضى •• » ثم توجهت نحوه بجسارة ، وقالت : « اسمح لى أن أثبت كذبك قبل كل شىء •• حين قلت لك انك ألقيت رامزا فى السجن بوشـايتك ، تنصلت وأنكرت وأنت تقول الآن انك أخذت هذه الورقة من بين أوراقه .. فكيف توصلت لها لو لم تكن أنت الساعى فيه .. ثم اعلم أن الحياة ليست هى وحدها غاية الانسان فى دنياه .. هل تحسب السعادة بالطعام والشراب أو باكتساب الأموال ؟.. اذا كنت تعد ذلك سعادة فاعلم أنها سعادة حيوانية ، وانما السعادة سعادة الضمير الحر .. سعادة

القلب السليم .. تلك سعادة النفوس الأبية .. سـعادة طلاب الحرية . ولكنك لم تذق هذه السعادة ولن تذوقها .. انك وأمثالك تحسبون أن هدف الحياة هو أن تكدسوا الأموال بأية وسـيلة كانت،تبيعون ضمائركم بالجاسوسية ، فتخربون البيوت العامرة.. وتقتلون النفوس البريئة .. تمتعوا ماشئتم ، واقتلوا ما شئتم .. ليس هذا مذهب الأحرار الصادقين ، فاذا علمت ذلك .. هان عليك ماتشاهده من استخفافى بتهديدك .. فافعل ما تراه ، فما أنا خير ممن سبقنى الى هناك »

وكانت تتكلم كأنها تخطب أمام جمهور .. وصـائب يسمع كلامها ، ويهز رأسه تارة ، ويقلب شفته تارة أخرى ، ولسان حاله يقول : « هذا هو الجنون بعينه »

فلما فرغت من كلامها ، سكت برهة وهو مطرق ، وقد أخذته الحيرة .. ثم رفع بصره اليها وقال : « لاأزال أراك تتكلمين كلام أهل الطيش الذين يتفلسفون ، فيضيعون أيامهم بالكلام الفارغ.. وقد كان يجدر بى بعد ماسمعته منك أن أكتفى برفع أمرك الى صاحب الأمر ، وهو يعرف شأنه معك .. لكننى لا أزال ضنينا بحياتك شفوقا على شبابك اكراما لأبيك ، ولأنى أحبك ، فأنا أعرض عليك الحياة مرة ثانية وأجيبك على قولك ان ما ذكرته من الألفاظ الضخمة ، كالضمير ، والحرية ، والنفس الأبية ، انما يلجأ اليها أهل الفاقة الذين تضيق دونهم سـبل الرزق ، فاذا عجزوا عن اكتساب المال عـدوا اكتسـابه رذيلة .. أى فائدة

لأصحاب تلك النعوت ان لم يكن لديهم من المال مايدفعون به الجوع والبرد . وماهى الحرية ، أو ما الفائدة منها لمن خلا جيبه وخوى جوفه ؟.. هل تجدين بين أولئك الذين يسمون أنفسهم أحرارا من يستطيع أن يعيش من ماله ؟.. حتى أصبح لفظ حر لقبا لأهل الطيش الأفاقين الذين يضربون فى الأرض لخلو أيديهم من المناصب .. فيزعمون أنهم تخلوا عن الخدمة رغبة فى الحرية ، ولكنهم يفعلون ذلك عن عجز .. ولو أعطيت لهم المناصب لنبذوا الحرية وركنوا الى العبودية كما فعل كثيرون منهم .. توسّطت أنا فى ردّهم الى رضى الذات الشاهانية .. ما لنا ولذلك الآن ؟.. هذه آخر كلمة أقولها لك ، ثم يكون دمك على رأسك . انى أعرض عليك النجاة من خطر الموت .. ولا أزال أقول انى أعدك بانقاذ رامز أيضا ، ولا أشترط شيئا سوى رضاك بى ، والا فلا تلومى الا نفسك » قال ذلك بلهجة التهديد ، وتحول نحو الباب وهو يتوقع أن تندم فتستقدمه وتباحثه ، فلم يسمع منها الا قولها : « افعل ما بدالك .. واذا كانت الحياة على يدك وأيدى أمثالك فلا حاجة لى بها » ..

فعاد صائب اليها بعجلة وهو يشير بيديه اشارة الوعيد والتعنيف وقال : « تزعمين انك تحبين رامزا ، وها أنت تقتلينه .. قد سنحت لك فرصة لانقاذه فلم تفعلى .. »

فأجابته شيرين : « ان حبى رامزا لا دخل لك فيه .. وان رامزا لايرضى أن تكون حياته منة من جاسوس منافق . وأما أنا

فانى أفضل أن يموت رامز وأموت أنا معه ضحية الحرية ، وقول الحق ، ولا نعيش عيشة المتملقين المنافقين .. وزد على ذلك فان يدك أقصر من أن تستطيع خيرا .. انك لا تستطيع غير الشر فانصرف عنى ودعنى »

فضحك صائب ضحكة طويلة ، وان كانت مغتصبة .. وتحول وخرج ، وهو يردد قولها باستهزاء : « نموت ضحية الحرية وقول الحق .. ماشاء الله !! »

— ١٥ —

الخلوة

وكان طهماز وامرأته جالسين فى الصالون يسمعان ما دار بين شيرين وصائب ، وكانا يتوقعان أن تذعن شيرين خوفا ، فلما رأيا هذا العناد قال طهماز : « قبّح الله هذه الفتاة ما أشد جنونها .. اذا كانت لا تخاف على حياتها ، فاننا نخاف على حياتنا بسببها » فلما خرج صائب بادر طهماز اليه .. وأخذ يستعطفه أن لايتعجل بالانتقام ، وأن يعذر شيرين على طيشها ويتمهل ريثما يقنعانها . فرفض فى بادىء الأمر .. فبالغ طهماز فى استعطافه ، فوعده انه صابر يوما أو يومين اكراما لخاطره ، وودعه وانصرف وهو ينتفض من شدة الغيظ لما سمعه من شيرين .. وكان يتوقع استسلامها له بمجرد اطلاعها على ذلك الكتاب ، وكان قد وجده بين أوراق

رامز فاحتفظ به ليتخذه ذريعة لاذلالها . فلما رأى جفاءها حدثته نفسه أن ينتقم منها ، لكنه علم انه اذا فعل خرجت شيرين من يده ، فلما استمهله والدها ووعده باقناعها انتظر ليرى ما يكون من أمرها ..

أما توحيدة فانها أصبحت لا تعلم ماذا تعمل ، وقد لامت ابنتها على مابدا منها ، وصممت على اقناعها بالرجوع عن عنادها وطلبت من طهماز أن يعتمد عليها فى اقناع شيرين ، وأن يلحق بصائب ويؤكد استعطافه ، ويعتذر له عما بدا .. فلبس ثيابه وسار فى أثره ..

أما شيرين فلما خرج صائب من غرفتها أغلقت الباب بعنف ، وأظهرت أنها تلتمس الانفراد والراحة فى الفراش ، فتركتها والدتها وذهبت الى غرفتها كى تفكر فى حيلة تدبّرها لاقناعها

فلما خلت شيرين بنفسها فكرت فيما سمعته ورأته ، فتحققت من وقوع الخطر عليها وعلى رامز ، وأيقنت أنهما مقتولان .. وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، وهى ساعة تستولى فيها الوحشة على قلوب البشر ، كأنهم يشاركون الطبيعة فى الأسف على فراق سيدة العالمين ، فتنقبض القلوب وتظلم النفوس وتتسلط السويداء على العقول ، فلا يرون من الدنيا الا وجهها المظلم .. فكيف بمن كان فى مثل حال شيرين من اليأس بعد أن قضت نهارها بين جدال وبكاء وحزن وخوف ؟..

لقد جاش الحزن فى خاطر شيرين بعد أن أغلقت ، فتذكرت

حبيبها وكيف كان يأتيها فى مثل تلك الساعة فيخفف أحـزانها ويذهب وحشتها بلطف حديثه،فيتشاكيان ويتحادثان . وتصورت ماهو فيه من الضيق .. وكيف انه لايلبث أن يصير فريسة لذلك الظالم ، ولا تدرى ماذا يكون من أمره هناك .. اذ قد يسجن ويعذب ، أو يقتل ، أو يلقى فى البوسفور ..

ولم تجد مايفرج كربتها سوى البكاء .. فأطلقت لنفسها العنان وأخذت تندب سوء حظها وتبكى وتشهق كالطفل ، وجعلت تناجى نفسها قائلة : « رامز .. حبيبى رامز .. أين أنت الآن ياترى ؟.. انك مسجون ، وعما قليـل يحملونك الى يلدز قبر الأحـرار ومدفن الحرية .. لا تخف .. لا تبال بالموت فى سبيل الحـق والحرية .. ولكن آه .. يموت رامز .. يموت حبيبى رامز الحر الصادق ، ويبقى هذا الجاسوس وأصحابه على قيد الحياة ؟ »

قالت ذلك وصرّت على أسنانها ووثبت من فراشها ، وقد أظلمت الغرفة واتسع مجال الخيال ، فتصورت رامزا فى ضنك وانه لاشك يفكر فيها ويخاف عليها .. ويخشى أن يحظى صائب بها بعده ، فقالت : « لا تخف ياحبيبى انى ثابتة على ودك .. انى متفانية فى حبك .. وان يد ذلك المنافق أقصر من أن تنال منى شعرة وهو أبعد من أن يحظى منى بنظرة .. لكن آه ما الفائدة من ذلك وأنت تحت خطر القتل الشنيع .. ماالعمل الآن ياشيرين ؟ »

وكانت تقول ذلك وهى تتمشى فى الغرفة ، وقد أصبحت فى غفلة عما يحيط بها .. ونسيت موقفها فأخذت تستجمع قـواها

فرجعت الى السرير واستلقت عليه ، وأطلقت لتصورها العنان فسمعت وقع خطوات فى الدهليز عرفت أنها خطوات أمها ، ثم سمعت نقرا على الباب فعلمت أن والدتها تطلب الدخول عليها ، فتظاهرت بالنوم ولم تجب .. فألحت والدتها فى النقر خوفا على ابنتها من تلك الوحدة ، لئلا يصيبها اغماء أو سوء آخر .. فلم تجد شيرين بدا من النهوض .. فنهضت وفتحت الباب وهى تتجلد لتخفى ما فى نفسها ، فدخلت والدتها وفى يدها مصباح وقد بلل الدمع عينيها .. فتأثرت شيرين من حنان تلك الوالدة التى ليس لها تعزية فى الدنيا سواها . وكانت رابطة شيرين بوالدتها أشد من رابطة سائر البنات بأمهاتهن ، لأن شيرين كانت مستودع أسرار تلك الوالدة التعسة التى خانها الحظ وصارت زوجة لذلك الرجل الجاهل .. فاحتملت فظاظته وحماقته اكراما لابنتها ، فربتها أحسن تربية .. وحينما كبرت اتخذتها صديقة تشتكى اليها همومها ومصائبها ، وهى التى سهلت عليها الاجتماع برامز . وكانت تسر باجتماعهما وينشرح صدرها لتحابهما .. وكانت تعد الأيام ليتم قرانهما ، وقد أحبت رامزا محبة الوالدة لولدها .. فكان وقوعه فى هذه الورطة من أكبر أسباب شقائها .. وزاد بلبالها حين علمت مما دار بين شيرين وصائب أن ابنتها عرضة لذلك الخطر الا اذا رجعت عن عنادها ورضيت بصائب مع كرهها له واستنكافها من دناءة أخلاقه . ولكن غلب عليها حنان الأمومة ، فاختارت أهون الشرين لعلمها أن صائبا اذا لم

ينل رضاها وشى بها وساعد على قتلها

كل هذه الهواجس مرت فى خاطر توحيـــدة حينما انفردت فى غرفتها بعد ذهاب صائب ، وكانت تنوى أن تؤجل مخاطبة شيرين الى الصباح ، لكنها لما تراكمت عليها الهواجس لم تعد تصبر عن رؤيتها لتطمئن عليها ، ولعلها تستطيع اقناعهـا بالقبول . وكان زوجها قد غادر البيت فرحا برتبته ليقضى السهرة مع صـائب ويطمئنه على نيل بغيته ، فحملت المصباح وتوجهت نحو غرفة شيرين كما رأيت ..

— ١٦ —

شيرين ووالدتها

وحينما تلاقت نظراتهما ، ابتسمت كل منهما للاخرى تخفيفا عنها ، والدمع يتساقط من أعينهما .. وغلب حنان الوالدة فوضعت المصباح من يدها على منضدة هناك ، وأكبت على ابنتها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهى تقول لها : « أين كان هذا البلاء مخبأ لنا ؟ .. قبحك الله ياصائب .. قد كنا فى نعيم وراحة فأتيت وكدرت عيشنا » ثم رفعت رأسها عن عنق شيرين وقالت : « سامحك الله ياطهماز .. » وأمسكت شيرين من يدها وأجلستها على المقعـد وهى تقول لها : « لا تحزنى ياعيونى .. لا تيأسى .. ان الله معنا » ..

فظلت شيرين ساكتة وقد أطرقت وعيناها مغرورقتان بالدمع ، ولا تستطيع الكلام . فأخرجت توحيدة المنديل من جيبها ومسحت عينى ابنتها وهى تقول : « لا بأس عليك ياحبيبتى .. تكلمى .. فقد أتيت وأبوك خارج البيت لأخفف عنك .. ما من علة الا ولها دواء .. »

فتنهدت شيرين تنهدا عميقا ، ولم تجب ..

فقالت توحيدة : « ان الأمر صعب ولكن نجاتك فى يدك .. وسكتت وهى تراعى مايبدو من شيرين .. فاذا هى لم تزد على انها نظرت الى والدتها بطرف عينها ولم تتكلم ، فقالت توحيدة : « ألا ترين الحق معى ياحبيبتى .. أليس خلاصك فى يدك ؟ »

فتنهدت شيرين مرة ثانية وقالت : « اذا كنت تعنين خلاصى من الموت .. فنعم »

فقالت توحيدة : « اذا فافعلى .. ارجعى عن عزمك وقولى كلمة فتنقذى حياتك وحياة رامز أيضا »

فقالت شيرين : « ولكن اذا رضيت أنا بانقاذه على هذه الصورة — لاسمح الله — فانه لايرضى .. »

انى لا أعنى أن تقبلى صائبا فعلا .. بل أعنى أن نسايره ونعده ريثما نرى ماذا يكون من أمره .. فاذا أنقذ رامزا فليفعل رامز به مايشاء .. وانما نحن ننجو من الخطر الذى يهددنا به »

فقالت وهى تهز رأسها هز الانكار : « وان رضى رامز فأنا لا أرضى .. لا أرضى »

قالت توحيدة : « بالله عليك اشفقى على والدتك اذا كنت لا تشفقين على شبابك ، ان هؤلاء القوم لايخافون الله ولايبالون ماذا يفعلون .. دعينا نخادعهم مرة واحدة التماسا لحياتك وحياة حبيبنا رامز وحياتى »

فتململت شيرين وبلعت ريقها كأنها تهم أن تقول شيئا وتمسك نفسها ، فعادت توحيدة الى الكلام قائلة : « بالله قولى ياشيرين .. قولى انك أذعنت لتوسلى » ..

فقالت شيرين : « دعينى الآن يا أماه .. انى لا أملك نفسى »

قالت توحيدة : « سأتركك تفكرين فى الأمر الليلة ، وأرجو أن تتحققى من صواب رأيى وتطيعينى ، وسأعود اليك فى الغد ان شاء الله .. هل آتيك بالطعام ؟ انك لم تأكلى اليوم شيئا .. »

فأشارت شيرين برأسها أن : « لا .. »

فألحت عليها والدتها أن تأكل ، فقالت : « لا أشعر بالجوع الآن واذا جعت فانى أعرف مكان الطعام .. كونى مطمئنة »

فاطمأن بال توحيدة ، ونهضت وأنهضت شيرين معها ، وساعدتها على خلع ثيابها ووضعتها فى الفراش .. ومضت وقد أنعشها الأمل ..

- ١٧ -

الى أين ذهبت ؟!

ونهضت توحيدة فى الصباح باكرا قبل أن ينهض زوجها من

الفراش ، وذهبت الى غرفة شيرين فوجدت الباب مفتوحا وليس في الغرفة أحد ، فظنتها في مكان آخر من البيت .. ففتشت في سائر الغرف فلم تجدها ، فعادت الى غرفتها وأمعنت النظر فيها .. فأدركت من عدم وجود نعالها والثوب الذى تلبسه في الخـارج انها ليست في البيت ، فاقشعر بدنها .. وأعملت فكرتها في المكان الذى يمكن أن تذهب اليه ، فتذكرت صاحبة لها كانت مستودع أسرارها تسكن على مقربة من بيتهم .. فنادت خريستو «الخادم» لترسله في التفتيش عنها ، فلم تسمع جوابا منه .. فظنته لا يزال نائما ، فأسرعت الى حجرة ينام فيها فوجدتها مفتوحة وليس فيها أحد ، فوقعت في حيرة وترقرق الدمع في عينيها .. ولكنها ظلت ترجو أن تقف على خبرها ، فلم تشأ أن تبكى .. فعادت الى غرفة شيرين وجلست على المقعد خائرة القوى ، وأسندت رأسها بين كفيها وأخذت تفكر في خروج ابنتها على تلك الحالة خلسة .وأول خاطر بدا لها أنها هربت خوفا من غضب المابين عليها اذا اطلعهم صائب على كتابها . ولكنها لم تجد سببا لفرارها خلسة عنها ، ولكن الى أين تفر ؟.. فتذكرت الخادم خريستو وهو ألبـانى الأصل متقدم في السن ، وقد ربى شيرين في صغرها .. وكان يتفانى في سبيل مرضاتها . وهو نشيط همام يحب الحرية ويكره أهل الاستبداد ، وكان يزداد احتراما لشيرين وتفانيا في خدمتها كلما رآها تحب الأحرار وتخدم مصلحتهم ، فتصورت توحيدة أن خريستو أغرى شيرين على الفرار الى بلده

على انها لم تجد باعثا على خروجها بدون أن تخبر والدتها ، فوقعت فى حيرة .. واذا هى تسمع سعال زوجها وهو خارج من غرفته . ثم رأته وعليه ملابس النوم وعلى رأسه طاقية حمراء ، وقد انتفش شعر رأسه ولحيته وحمل على كتفيه منشفة واتجه نحو حنفية الغسيل ، وهو يحك رأسه ويفرك عينيه . فلم تشأ أن تباغته ، لكنها سمعته ينادى خريستو ويلح فى النداء ، فتقدمت نحوه وقالت : « ان خريستو ليس هنا .. »

فالتفت طهماز اليها وقال : « الى أين أرسلتموه فى هذا الصباح .. ؟ »

قالت توحيدة : « لم نرسله الى مكان ، ولكن شيرين أيضا .. وغصت بريقها وبكت .. »

فاستغرب طهماز بكاءها فقال : « ما بالك تبكين .. ماذا فعلت شيرين ؟ انها لا تزال تتعبنا بأعمالها وعنادها .. »

فتجلدت توحيدة وقالت : « شيرين ليست هنا .. لا أدرى الى أين ذهبت .. » وكانت تتوقع أن يشاركها طهماز فى الدهشة والبغتة ، فاذا هو تحول نحو الحنفية وأخذ يعالج الصابون ليغسل وجهه وهو يقول : « ولا أنا أدرى .. يظهر انها توجهت الى احدى صاحباتها اللاتى يوافقنها على الحديث عن الحرية والطعن فى السلطان وأعوانه .. انها سوف توقعنا فى ورطة لا خلاص لنا منها .. » وأخذ فى الغسيل كأن الأمر لا يهمه

وقد خفف دهشة توحيدة استخفاف طهماز بخروج شيرين ..

اذ أوحى اليها أنها مبالغة فى الخوف ، فقد تكون فى زيارة لاحدى صاحباتها كما قال .. على انها لم يطل صبرها على هذا الاعتقاد فعادت الى الوجل وأحبت أن تبعث من يبحث عن شـــيرين .. ولكنه لم يكن عندهم أحد ترسله ، ولم تجسر أن تطلب الى زوجها أن يذهب ، فأخذت تستعد للذهاب بنفسها .. فلبست ثيابها ، ولم تقل شيئا حتى فرغت من ارتداء ملابسها .. وكان طهماز قد فرغ من الغسيل ، وهى تعلم انه سيطلب القهوة ، ثم الطعام ، فاذا وافقته ضاع الوقت .. فغافلته وخرجت الى الأماكن التى تظن أن شيرين ذهبت اليها ، وهى قريبة من المنزل . ولم تغب نصف ساعة حتى عادت ولم تقف لها على خبر هناك .. فوجدت زوجها قد صنع القهوة لنفسه ، وأخذ فى ارتداء ثيابه

فقالت توحيدة : « ذهبت للبحث عن شيرين فلم أجدها عند صاحباتها .. »

فقال طهماز : « ستجدينها بعد قليل .. ولكن يظهر من ذهابها مع خريستو انها هربت ، وكم من مرة أردت اخراج هذا اللعين من بيتنا وأنت ترفضين .. انه من جملة أسباب تمسك شـــيرين بعنادها ومتابعة أولئك المغرورين الذين يسمون أنفسهم أحرارا ــ لأنه من أهل ذلك الجنون أيضا ــ فاذا كنت تظنين أن شيرين قد هربت ، فلا حيلة لنا فيها ولا ذنب لنا لأننا نصحنا لها وكدنا نقبل يدها لترجع عن غيها ، وتوافق صائب بك على طلبه ، لتنجو وتنجينا من الخطر فلم ترض .. وها هى ذى قد هربت وتركت

الخطر يحدق بنا .. فان الحكومة اذا طلبتها ولم تجدها تمسكت بنا .. أخشى أن يكون صائب بك قد دفع كتابها الى ناظم بك رغم التماسنا ألا يفعل .. »

قال طهماز ذلك وهو يرتدى ثيابه وتوحيدة واقفة بباب الغرفة مطرقة لا تدرى ماذا تقول .. وحين ذكر طهماز اسم صائب وكتاب شيرين ، خشيت أن يتحقق قوله ويكون صائب قد بعث الكتاب الى المابين غيظا من شيرين ، ولم يصبر .. فقالت : « صدقت .. انى أخشى أن يفعل صائب بك ذلك .. ما العمل ؟ .. »

قال طهماز : « وعدنى أمس أنه سوف يتريث حتى صباح اليوم .. فاذا لم ترض بعث الكتاب ، وتواعدنا أن يأتى الينا فى الصباح .. فلا يلبث ان يكون هنا .. أعدّى لنا الفطار .. »

فنهضت توحيدة نحو المطبخ وأخذت فى اعداد الطعام وركبتاها ترتجفان من شدة التأثر ، وتعجبت كيف يخطر لزوجها أن يطلب الطعام ، وهم فى تلك الحالة من الاضطراب ..

— ١٨ —

الاستمهال

وبعد ساعة سمعت توحيدة قرقعة المركبة بجانب البيت تلاها وقوف ، فعلمت أنها مركبة صائب .. فأخذتها الرعدة وتشاغلت باعداد المائدة ريثما يدخل ، ثم سمعت وقع خطواته وطرق عصاه

على السلم ، وما لبث أن صار فى الدار ، ووضع عصـــاه على منضدة ، وخفّ طهماز لاستقباله وهو يهش له .. فتصافحا ودخلا الصالون ، وصائب يمشى مرحا مشية الظافر ويتكلف التواضع والتلطف ، وجاءت توحيدة بعد قليل للسلام عليه فلاحظ دمعا فى عينيها ، فسأل عن السبب ، فقال له طهمــاز : « لا شيء .. ولكننا أصبحنا اليوم فلم نجد شيرين فى البيت ، فاضطرب بالنا عليها .. »

فأجفل صائب .. وأول شيء خطر بباله انها هربت ، فصاح : « الى أين تهرب .. ؟ » ونهض كأنه يهم بالخروج وقد ظهــر الغضب فى عينيه فاستوقفه طهماز قائلا : « تهرب ؟ » لا نظنها تفعل ذلك .. انها لا تلبث أن ترجع الينا .. وهب انها اختبأت عند احدى صاحباتها يوما أو يومين .. ثم .. »

فابتدره صائب قائلا : « كيف تذهب وحدها ؟.. »

قال طهماز : « يظهر انها ذهبت مع خريستو الخادم لأننا لم نجده فى البيت .. »

فجلس صائب وهو يهز رأسه للتهديد وقال : « مع خريستو الألبانى ؟.. ها ها .. » وأخذ يفتل شاربه وهو يعمل فكره ، ثم أخرج علبة السجاير وأخذ منها سيجارة ، فأسرعت توحيدة الى عود كبريت أشعلته وقدمته له ويدها ترتجف .. فأشعل سيجارته منه ونفخ الدخان نفخة طويلة ، وهو ينظر الى صورة معلقة فى الحائط كأنه يتشاغل عن الغضب الذى تولاه .. فابتدرته توحيدة

قائلة : « ان شيرين لايمكن أن تفر ياسيدى .. لعلها عند احدى صاحباتها ، وان كانت لم تفعل ذلك من قبل »

قال صائب : « تفر ؟.. الى أين ؟.. وكيف ؟.. اننا نسد الطرق دونها .. واذا هربت فانها تطلب موناستير أو غيرها ، أو لعلها تذهب الى رسنه لأن لكم أهلا بها .. ولو فرض انها فرت مع خادمها الى ألبانيا بلده ، فانها تحمل الينا صاغرة »

فصاحت توحيدة بلهجة العطف : « أتوسل اليك ياسيدى أن تساعدنا فى رجوعها .. »

فقال صائب بك : « ولكنى لا أستطيع ذلك الا اذا أبلغت الحكومة عن ذنبها ، فتبعث برقيات الى محطات السكك الحديدية لحجزها »

قالت توحيدة : « لا .. لا ياسيدى .. ليس هذا ما نطلبه ، وأخشى حينئذ أن نقع نحن فيما هو أشر من ذلك ، وأنت لاترضى أن تلحق بنا هذا الأذى .. اذ لاذنب لنا ولا ذنب شيرين ، ولكنها مغرورة . ولو صبرنا عليها يوما أو يومين وأخذناها بالتؤدة لانصاعت الى ما نريد ، ولكننا تعجلنا رضاها وهى فى ابان غضبها فلم تطع . ومع ذلك لا أعتقد أنها خرجت من سلانيك ، لأنها لم تتعود الخروج من المنزل ، فكيف تطلب موناستير أو غيرها . فلنصبر هذا اليوم فقط .. ونحن نبحث عنها فى أحد الأماكن التى نظنها توجد فيها الى المساء ، فاذا لم نجدها تكلمنا فى الطريقة المثلى للبحث عنها » قالت توحيدة ذلك وعيناها تذرفان الدمع ،

وصوتها مختنق ، ولم تستطع الوقوف فانصرفت الى غرفتها

فلما خلا طهماز بصائب قال له : « لا تخف .. انها لا تهرب .. وكيف تهرب وليس معهــا نقود ؟ .. انها ستعود صاغرة مطيعة وتعترف بخطأها .. وقد صدقت توحيدة فى أننا أخطأنا بمباغتتها وتعجيل رضاها .. أنا وعدتك بهــا وأنا مطالب بوفاء الوعد .. قبحها الله .. أين تجد أحسن من صائب بين جميع الذين حولنا ؟ »

قال صائب بك : « لايهمنى الآن رضيت أم لم ترض بعد الذى شاهدته من فظاظتها وعنادها .. لكننى أصبحت مطالبا ألا أخون ولى نعمتى .. »

فأدرك طهماز انه يشير الى الكتاب الذى بيده منها ، وانه ينوى تبليغ أمره الى المابين ، فقال : « لا تفعل ياسيدى .. فانك اذا بلغت خبر هذا الكتاب الى الحكومة ولم يجدوا صاحبته ، وقع الغضب على أهلها .. هل أذنبنا نحن فى حقك ؟ .. ألم تجد أننا أخلص الناس للذات الشاهانية ؟.. فهل تريد أن نؤخذ بذنب سوانا ؟ .. »

قال صائب بك : « أنت والحق يقال مخلص لأمير المؤمنين ، ولو كان الجميع مثلك لخلصت البلاد من القلاقل وستنال المكافأة اللازمة .. ولا ريب عندى أنك اذا أطعتنى ، وذهبت معى الى المابين ستلقى مايسرك .. »

فأبرقت أسرة طهماز اعجابا بنفسه وقال : « اذن فلننتظر يوما أو يومين ، ولابد من ظهور الفتاة بعد أن تكون قد قاست الهوان

والعذاب ، فترجع عن غيها وتثوب الى رشدها وتعلم انك نصحت لها . ولا ينبغى لنا أن نحاسبها على ما فرط منها ، فانها لم تخرج عن كونها امرأة . وهل تحاسب النساءعلىأعمالهن وهن ناقصات عقول ؟!.. وخاصة فى هذا العصر الذى أصبح رجاله لايحاسبون على غلطهم لشذوذهم عن المألوف فى أيامنا .. انهم يخرجون على الخليفة ويطلبون قلب الحكومة .. أليس هذا من الطيش ؟ .. فكيف اذا كان صاحب هذا الرأى فتاة ، والنساء لم يخلقن الا للطبخ والخدمة وتربية البنين . ولكن الزمان تغير ، وقانا الله عاقبة أعمالنا »

فصادق صائب على ما قاله طهماز ، ووافقه على الانتظار .. وكانت المائدة قد أعدت ، فنهضوا لتناول الطعام

— ١٩ —

ثبات رامز

فلنتركهم يبحثون عن شيرين .. ولنذهب الى رامز ، لنرى ماذا حدث له .. انه سيق الى سراى الحكومة مخفورا ، كما يساق المجرمون ، فى مركبة مقفلة .. ومعه اثنان من الضباط ، وحملوا أوراقه معهم فى محفظة كبيرة قد ختموها فى غرفته بوجود ناظم بك . فكان وهو فى المركبة المقفلة مستغرقا فى تصوراته ، وقد علم انه مساق الى أشد الأخطار ، فلم يبال بشىء منها ، لولا

شيرين .. لأنها كانت مستقر آماله ومستودع مسراته ، يكفيه منها نظرة ود ، أو كلمة اعجاب ، بما يكتبه حتى يستفزه الطرب وتهب فيه الحماسة وينشط الى مواصلة الأخذ بناصر الأحرار . وكانت هى التى زادته تمسكا بأذيال الحرية والدفاع عنها بشدة ، والطعن فى الظالمين .. حتى تهور وألقى نفسه فى ذلك الخطر

وللمرأة روح تبثها فى قلب الرجل ، فتنبه عقله وتثير همته ، ويصبح طوع ارادتها .. يحب ماتحب ، ويتفانى فى سبيل ما يرضيها. فاذا كانت قوية المبدأ ، سامية الخلق، شريفة الاحساس، صعدت به الى سماء المجد ، وأصبح همه التخلق بتلك الأخلاق . وقد علمت أن شيرين كانت مفطورة على حب الحرية تعشقها وتتغزل بها ، فكيف لا يعشقها رامز ويتفانى فى نصرتها .. وكم من قائد يخوض ساحة الوغى ويعرض حياته للخطر .. وهو لا يرجو من وراء ذلك الا ابتسامة من حبيبته ، أو كلمة اعجاب من شفتيها . وكم من عالم ، أو كاتب ، أو فنان ، أو مصلح ، انما يشقى فى جهاده التماسا لرضى حبيبة عاقلة ، فطرت على حب هذه الفضائل .. فيالسعادة الأمة التى تسمو فيها أخلاق المرأة حتى تعشق الفضائل فتكون عونا للرجل على المبرات ، أو الحسنات ، أو السعى فى سبيل الحق والحرية .. اذ تكون محرضة له تستنهض همته بنظرة أو كلمة .. الأم تحفز ابنها ، والحبيبة حبيبها ، والأخت أخاها .. وويل للامة التى انحطت فيها أخلاق المرأة ، فاقتصر همها على الطعام والشراب ، وانحصرت أحاديثها

فى الخرافات والأوهام ..

قضى رامز مدة الطريق من منزله الى سراى الحكومة وهو غارق فى بحار الهواجس ، لم تبرح صورة شيرين من مخيلته كما فارقها للمرة الأخيرة .. وتذكر نصيحتها له أن لا يثق فى اخلاص صائب ، فقال فى نفسه : « لابد أن تكون هذه الوشاية منه » ثم أكبر أن يرتكب صديق مثل هذه الرذيلة فى حق صديقه

ولم ينتبه لنفسه الا وقد وقفت المركبة به وفتح بابها ، فنزل وهو يتجلد ويظهر عدم المبالاة بأعمالهم .. فاستقبله ضابط كان واقفا هناك وأشار اليه أن يمشى فى أثره ، فتبعه حتى دخل قاعة ناظم بك القومندان .. وكان رامز طويل القامة ، جميل الطلعة ، متناسب التكوين ، وفى عينيه ذكاء ومهابة .. حسن الهندام ، نظيف الثوب ، لكنه لم يستطع اصلاح شأنه فى ذلك الصباح لأنه نسى نفسه ، وانصرف بكليته لما بين يديه . فلما دخل قاعة ناظم بك وجده جالسا فى صدرها بملابسه العسكرية ، وأمامه المحفظة المختومة ، وبجانبه صائب بك .. فلما رأى صائبا أجفل وتحقق ظنه ، فارتعدت فرائصه من الغيظ .. لكنه تجلد ، فابتدره ناظم بك قائلا : « كيف ترى نفسك يا رامز أفندى ؟.. »

قال رامز : « لا أدرى شيئا ..! » .. وهز كتفيه ازدراء

فتصدى صائب للكلام بلطف ، وهو يظهر الأسف ، وقال مخاطبا ناظم بك : « ان رامز أفندى مخدوع فى الطريق الذى سار فيه .. فقد أغراه أهل الطيش .. ولا شك عندى أنه حمل

على مافعله مراعاة لأصدقائه »

فقال ناظم بك : « كيف يكون ذلك ؟.. وهذه الأوراق تؤيد أنه خائن للدولة والملة .. وهـذه كتاباته فى الجرائد التركية ، والفرنسية تشهد عليه .. وأظنك تدافع عنه لأنه من أصدقائك »

فقال صائب وهو يظهر الاهتمام : « نعم أفندم .. ان رامز أفندى صديقى .. لكنى أقول الحق ، فأنا أعرف أخلاقه ، وأعرف أنه مغرور » ثم حول خطـابه الى رامـز وقال : « أليس كذلك ؟.. »

فهز رامز رأسه بأنفة ورفعة ، وقال : « لا .. »

فقال ناظم لصائب : « وتقول انه مغرور .. ان هؤلاء الغلمان المتهورين الخارجين على جلالة البادشاه، ينبغى أن نجتث أرومتهم ونعلمهم كيف تكون عاقبة الخائنين .. ؟ وهم أن يأمر بأخـذه الى السجن .. فوقف صائب ، وأظهر أنه يبذل وسعه فى الدفاع عن صديقه رامز وقال : « تمهل أفندم .. انى أعرف رامزا من الصغر وكنا معا فى المدرسة .. انه مغتر ، ومن غروره انكاره ذلك بين يديك »

ثم تحول نحو رامز وقال : « لايغرنك الغلمان الذين يزعمون أنهم ينصرون الحرية ، فانهم انما يطلبون وظيفة .. ومتى حصلوا عليها تركوك فى الخطر ، وقد سبق وخدعوا كثيرين من أمثالك ثم رجعوا الى صوابهم ونالوا رضى الذات الشـاهانية وتنعموا بخيراتهـا . وانما المطلوب أن نعرف الأشرار الأصـليين الذين

يحركون هـــذه الشرور ، وهم قليلون .. وأكثر الذين معهم مغشـــوشون نظيرك . فأنت الآن اذا دللتنا على رؤساء هـــذه العصابة التى تسمى نفسها « جمعية الاتحاد والترقى » أو دللتنا على محل اجتماعها فقط ، فأنا الضامن باطلاق سراحك . واحفظ هذه المحفظة بما فيها من الأوراق أمامك .. وأضمن لك مكافأة عظيمة بالرتب السنية والرواتب الباهظة..» ولما وصل الى هنا بلع ريقه وتنحنح يتشاغل لحظة ليرى ما يبدو فى أثنائها من رامز ، فوجده ساكتا مطرقا ، فتخيل له قرب قبوله فعاد الى الكلام فقال: « واعلم أنه لايمكن أن يعجزنا الوصول الى سر هذه العصابة ومكانها من أحد أعضائها .. اذ لابد من أن يعضـــهم الجوع ويتعبوا من مناطحـــة الصخر ، فيرجعوا الى مراضاة مولاهم ومولانا جلالة البادشاه أمير المؤمنين كما فعل الذين سبقوهم فى باريس وجنيف ومصر وغيرهم ، ولابد من أن ينال المكافأة الكبرى من يبلغ خبر هذه الجمعية ويقع الغضب على الباقين . فكن أنت ذلك المبلغ ونحن نوافقك فى اخراج من شئت من الأعضاء الذين تعتقد أنهم مخدوعون نظيرك .. يكفى أن تخبرنا عن المكان الذى يجتمع فيه أولئك العصاة الخوارج »

وكان ناظم بك يسمع كلام صائب ، وعيناه ترعى رامزا وما يبدو منه .. فلما طال سكوته استبشر ، وحين فرغ صائب من كلامه رفع رامز بصره اليه وقال : « ان عزة النفس والحـــرية الشخصية وشرف القول ألفاظ لا معنى لها عندك ، ولا تستطيع

أن تتصورها .. فالكلام معك عبث . أنا لست مخدوعا وليس رفاقى مخدوعين ، وانما المخدوعون أنتم الذين تبيعون وطنكم وتسوقون أهله الى الخراب طمعا فى المال . فاذا كان عندك كلام تقوله غير هذا الموضوع ، ومنه فائدة قل .. والا فافعلوا بى ماتشاؤون » ..

فرجع صائب وهو يهز رأسه استغرابا ، وجلس على كرسيه وتناول ناظم بك الكلام قائلا : « ان صائب أخلص لك النصح .. فكيف تخاطبه بهذا الأسلوب ؟.. ان غاية مايطلب منا أن نرسلك مغلولا الى الاستانة مع هذه الأوراق وأنت تعلم مصيرك . لكن صائب بك أراد أن ينقذك ، فعرض عليك هذا الأمر فأجبته بكلام قبيح تستحق عليه العقاب »

قال رامز : « لا حاجة لى بنصحه .. فافعل ما تشاء »

قال ناظم بك : « خذوه الى السجن .. »

فمشى رامز بقدم ثابتة وهو لا يبالى .. وبعد انصرافه اتفق صائب وناظم بك على ارسال تلغراف الى المابين بالقبض على أحد أعضاء الجمعية وأوراقه ، ويسألانه عما يرى أن يفعلوا به ..

— ٢٠ —

الاستانة

تترك أهل سلانيك ونذهب الى الاستانة دار الخلافة ومصدر

متاعب الأحرار ومرجع آمالهم .. ونشرف على يلدز مدفن الأفكار الحرة وبؤرة الجواسيس ومسرح أهل المطامع والأغراض

والاستانة هى القسطنطينية مدينة قسطنطين الكبير ، وكانت قبله تسمى بيزنطة .. فسماها باسمه وجعلها سنة ٣٣٠ م ، كرسى المملكة الرومانية الشرقية أو مملكة الروم فى اصطلاح العرب . وقد خصها الله بموقع طبيعى لا مثيل له على سطح هذه الكرة ، لأنها موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين تمنعها المضائق وتصونها البواغيز . وتقسم الاستانة الى المدينة الكبرى والى الضواحى ..

والاستانة ثلاثة أقسام : اثنان فى أوربا ، والثالث فى آسيا ، كأنها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه .. أو هى ثلاث مدن بريه تفصل بينها ثلاثة بحار . فالأقسام البرية هى : استامبول فى الجنوب ، وبك أوغلى أو بيرا فى الشمال ، وكلاهما فى أوربا واسكودار فى الشرق ، وهى فى آسيا .. يفصل بينها البوسفور فى الشمال الشرقى ومرمرا ، أو الدردنيل فى الجنوب ، وقرن الذهب فى الغرب الشمالى .. تلك هى أقسامها اليوم ، أما فى زمن الروم فلم يكن عامرا منها الا استامبول أى البلد الذى فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ، ولا تزال الى الآن مقر رجال الدولة ، وفيها أبنية الحكومة والجوامع والمساجد والمدارس ، وهى تعد اسلامية لأن أكثر سكانها من المسلمين . ولذلك فأكثر الآثار التاريخية فيها .. وكانت « بيرا » عند الفتح ضاحية يقيم فيها

بعض الأجانب اذا نزلوا الاستانة ، ثم عمرت فصارت بلدا أكثر سكانه من الافرنج ونحوهم . ويوصـــل بين استامبول وبيرا جسران : أحدهما جسر غلطة القديم ، وهو أقربهما الىالبوسفور، وثانيهما الجسر الجديد الى غربيه . أما اسكودار فانهـا بلد اسلامى تركى يتفاءل به الأتراك خيرا لأنهم نزلوه قبل الفتح ، ومنه انتقلوا الى أوربا ومدوا سلطانهم فيها

وضـــواحى الاستانة أهمها يقع على شـاطىء البحر ، وهى قسمان : شـــمالى ، وجنوبى . والشـــمالى يقع على ضـــفاف البوسفور ، والجنوبى يقع فى جنوبها ، مما يطول شرحه فنذكر أهمها وهو البوسفور

والبوسفور ، يمتد من الاستانة شمالا الى البحر الاسود على مسافة ٢٧ كيلومترا ، فهو موصل بين البحر الاسود فى الشمال، وبحر الدردنيل فى الجنوب ، وعرضه عند مدخله نحو كيلومتر ونصف كيلومتر ، وأضـــيق المسافات فيـــه عند روملى حصار وأناطول حصار نحو ٥٠٠ متر ، وأوســـعها عند بيوك دره فان المســـافة بين الشاطئين هناك ٣٥٠٠ متر . وهو عبـــارة عن قرى متقاربة تمتد على ضفتى البوسفور شرقا وغربا . يهمنا منها مما على شواطىء أوربا محلة بشكطاش التى فيهـا يلدز وقصورها وحدائقها ..

وفى جنوب الاستانة عدة قرى على شاطىء أوربا وراء سور استامبول ، والبعض الآخر على شاطىء آسيا .. وهناك خط آخر

بحرى تكتنفه القرى من الجانبين فى قرن الذهب ، وهو يعد من الاستانة نفسها . والاستانة كثيرة الشواطىء عليها الأغراس ، والأشجار وبينها الأبنية .. ثم ان هذه الشواطىء سلسلة تلال أو هضاب بينها الأودية ، حتى الاستانة نفسها فانها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع ، اذا أطل عليها القادم بالبحر رأى تلك الأبنية تتدرج صعودا من الشاطىء الى قمم الهضاب ، وتتخللها الحدائق .. فاستامبول مثلا مؤلفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدة على شاطىء قرن الذهب ، لا تظهر جليا للمتأمل .. الأولى منها تشرف على الدردنيل ، وعليها الآن بناية الطوبخانة والسراى القديمة (طوب قبو) وجامع أياصوفيا وجامع السلطان أحمد . وعلى الهضبة الثانية جامع نورى عثمانية . وعلى الثالثة سراى السر عسكريه ، وجامع السلطان سليمان أو السليمانية . وعلى الرابعة جامع السلطان محمد الفاتح أو المحمدية ، وعلى الخامسة جامع السلطان سليم أو السليمية وحى الأروام المعروف بالفنار وفيه بطركخانة الروم . وعلى السادسة أبنية سراى لكفور عند محطة بلاطة وبعدها . وعلى السابعة جامع أيوب وغيره .. وبين هذه الأبنية البارزة ، القصور ، والمنازل ، والأسواق ، والبساتين وغيرها ، متلاصقة أو متقاربة .. تظهر للناظر اليها من البحر ، كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض بشكل « امفيتياتر »

ومثل ذلك بيرا ، تجاه استامبول على قرن الذهب ، فانها

مؤلفة من تلال متقاربة . وهكذا أيضا ضفتا البوسفور وشواطىء الدرذنيل ، فانها عبارة عن تلال متحاذية على الشاطىء يختلف طول قاعدة كل منها من نصف كيلومتر الى كيلومترين أو أكثر أو أقل . وعلوها من مائة متر الى بضع مئـات .. أجملهـا على ضـفاف البوسفور ، فانك ترى القرية من قراها أشبه بمعرض من الخمائل والقصور ، تتدرج بعضها وراء بعض من الشاطىء الى قمة التل ، وبينها بساتين بعضها من الشجر القديم كالسنديل ، والصنوبر ، والدلب ونحوها ، تقادم عهدها وأهملها الانسان .. فنمت على الفطرة بلا رعاية ولا تقليم ، فاشتبكت أغصانها وتعانقت افنانهـا ثم جاء الانسان فابتنى بينها قصورا متفرقة ، أو بيوتا صغيرة من الخشب سقوفها من القرميد .. وانما عمدوا الى الخشب دون الحجر لأنه أقل كلفة وأبعد عن خطر الزلازل ، فتعرضوا بذلك لخطر الحريق ..

فالمتوغل فى البوسفور على البـاخرة ، يرى نفسه فى بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالخمائل والحدائق ، بينهـا الأبنية مختلفة الألوان والأشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال . وأجمل ما تشاهده من مناظرها قبيل الغروب انعـكاس أشـعة الشمس عن زجاج النوافذ من منازل الشاطىء الاسيوى لامعـة تبهر النظر ، كأنها منعكسة عن ماس ترصعت به تلك المنازل .. ثم تحمر ، فيخيل لك أن النار شبت فى الغرف حتى كاد لسان لهيبها يندلع من النوافذ مما يلفت النظر . فاذا غابت الشمس وخيم

الظلام ارتسمت السماء على صفحات الماء والجالس فى أى منزل من منازل تلك القرى ، سواء كان على الشاطىء قرب الماء أو فى سفح الهضبة أو على قمتها ، فانه يشرف على المياه والبواخر تسبح فيها ، ويرى وراءها التلال المكسوة بالأشجار والأبنية

ذلك شأن ضفاف البوسفور وغيرها من شواطىء الاستانة وضواحيها .. واذا أوغلت فى البر وراءها لا يقع نظرك الا على واد خصيب ، أو غابة غضة ، أو جبل مكسو بالأشجار الكثيفة ، بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجرى صافية كالزلال . وقد أقيمت هناك أماكن للنزهة يقصدها الناس ، يقضون عندها الساعات والأيام كما يفعل المصطافون بلبنان فى خروجهم الى الينابيع المشهورة .. كعين الرمانة ، وعين حمانا ، ونبع العسل ، ونبع اللبن ، وغيرها . وان كانت هذه أشد برودة من ينابيع الاستانة الا أن هذه أجمل منظرا وأكثر خضرة لأن معظمها يجرى فى جبال تكسوها أشجار هائلة الكبر قد تعانقت أغصانها وتكاثفت أوراقها حتى تحجب أشعة الشمس ، لكنها لا تسبب ضيق الصدر لأنها عالية وبين جذوعها منفرجات .. وقد تعاظم حجمها لقدم عهدها ويندر أن تكون للانسان يد فى اصلاحها . وهذه الينابيع كثيرة بعضها فى شاطىء الأناضول ، والبعض الاخر فى جهات الروملى ، وأشهر الينابيع فى الروملى نبع الكاغدخانة فى آخر قرن الذهب ، وهو متنزه جميل مساحته عشرات من الأفدنة مكسوة بالأشجار والأعشاب ، وتجرى فيها المياه فيقصدها الناس زرافات ووحدانا

فى فصل الربيع ، وجرجر نبع كثير الشبه فى موقعه وبرودته بعين الرمانة بلبنان ، وبالقرب منه نبع خونكار « خونكار صو » وهو أعلى كثيرا من جرجر ، لا يمكن الصعود اليه الا بالمركبات ، ويصعب تسلقه على الدواب

فالطبيعة وهبت الاستانة هبات يعز مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها .. ولكن الانسان لم يحسن استخدام تلك الهبة ، فبينما ترى منازل الاستانة متراصة بعضها وراء بعض ، تشرف على البحر وعلى ماجاورها من المنازل .. ترى شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خرابا لتقلقل بلاطها ، وقلة العناية باصلاحها ، فضلا عن ضيقها .. كأن حكام العصر الماضى لم يكن يهمهم الا مايخصهم أو يؤول الى منافعهم الشخصية ، لأنك ترى منازلهم على أتم نظام ، وحدائقهم على أجمل ترتيب .. يتعهدون أشجارها بالمقراض على أحسن صورة ، ويرصفون الطرق بين المساكب بالحصى الملونة على شكل الفسيفساء . وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومتنزهاتهم ، ويضنون بالقروش على الأماكن العامة

— ٢١ —

يلدز

أما وقد عرفت الاستانة ، فتعال معى الى يلدز .. وان كان ذهابنا اليها فى زمن روايتنا خطرا ، فانى أطير بك الى عالم

الخيال ، لأصف لك تلك السراى التى جرت أكثر وقائع هــذه الرواية فيها .. وهى وان سموها بالسراى أو القصر ، فانها ليست قصرا واحدا فخما كما يتبادر الى الذهن .. وانما هى عدة قصور قد لايرى فى احدها فخامة مايراه المرء فى قصر طوطه بغجه ، أو الجمال الذى يراه فى قصر جراغان . وانما هى هضبة كبيرة واقعة فى بشكطاش وراء محطة أرته كوى فوق قصر جراغان ، تكتنفها الأودية والتلال .. وقد أنشئت فيها الحدائق والبساتين والبحيرات، وبنيت فيها قصور تتفاوت قدرا وجمالا ، وهى عديدة ومتفرقة بين الخمائل والغابات على غير نظام . وليس فى وصف هذه القصور كثير مما يدهش القارىء ، ولكن العبرة بما هنالك من المخبآت الغريبة التى تصادفها فى أثناء حوادث روايتنا .. واليك تفصيل ذلك ..

ان البقعة التى أقاموا فيها قصور يلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير .. أكثرها غابات كثيفة الأشجار ، بينهــا حدائق غناء وبحيرات تجرى فيها السفن .. وتقسم بجملتها الى قسمين كبيرين : القسم الأول ، الحديقة الداخليــة ، والقسم الثــانى ، الحديقة الخارجية . وليلدز باب خارجى كبير تدخــله المركبــات الى بقعة فيها طريقان : أحدهما الى اليسار يؤدى الى طــريق الحديقة الداخلية ، والآخر الى اليمين يؤدى الى طريق الحديقة الخارجية ، وفى كل من الحديقتين قصور وأبنية سنذكر ما يهمنا منها ..

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبير محاط بسور عال أشبه بأسوار الحصون منه بالحدائق ، يفصله عن الحديقة الخارجية . يدخل المرء الى الحديقة الداخلية من باب كبير مذهب هو باب السراى المؤدى الى القصور الداخلية ، وهى قصر المابين الصغير مسكن السلطان المخلوع وقصر جيت ، وقصر مالطة وقصر جهان نما ، ومعرض الحيوان . فهذه القصور متقاربة كل منها يؤدى الى الحديقة الداخلية . وفى الحديقة المذكورة بحيرات تجـرى فيها السفن ومسارح للطير هى عشرات من الغرف المتقنة ، مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصـقة لجدار الحديقة الشرقى . ولهـا واجهات من الزجاج ونوافذ من الأسلاك ، وبعض الغرف كلها من الزجاج يسرح فيها الحمام كل نوع فى غرفة أو بضع غـرف متقاربة ، وبينها الحمام الأبيض ، والأسود ، والمرقط ، وذات العرف الطويل ، أو الذيل الغريض ، على اختلاف الأجناس . ولها فى مسارحها مجالس تأوى اليها وتبيض أو تفقس فيها على أبدع نظام . ويلى مسارح الحمام غرف لتربية الأزهار الشتوية التى يضر بها البرد ، مصنوعة من الزجاج السميك التماسا للدفء . ويلى ذلك أقفاص فيها بنات آوى أو بعض الكلاب الضخمة . وفى بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات ، فيها مواقف للخيل .. فى كل موقف اسم الجواد الذى كان يقف فيه

وأهم القصور الداخلية فى يلدز قصر جهان نما وهو صغير ، لكنه فى غاية الاتقـان ، يشرف على البوسفور اشرافا رحبا .

وقصر جيت ســمى بذلك لأنه مبطن بالأنسجة ، بابه خارج باب الحديقة الداخلية .. لكنه يُعد منها لأنه من جملة أبنيتها . وقد يدخـل اليه من باب سرى فيه . ومعرض للحيوانات فيه أنواع الطيور وغيرها محنطة . وقصر جادر ، وقصر مالطة ، وقصر مراسم فى الحديقة الخارجيـة ، وهو أجملهـا كلها وأفخمها ، وفيه من التحف ما يعجز القلم عن وصفه ، وقصر المـابين الكبير فى تلك الحديقة أيضا ، وهناك جامع لتلك القصور اسمه الجامع الحميدى. ثم المابين الصغير أو مسكن عبد الحميد وهو أهمها كلها بالنظـر الى ما نحن فيه . وهو أول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية الى يمينـه وليس هو بالقصر الفخم . يرقى اليـه على بضع درجات بسيطة ، ومدخله باب اعتيـادى يؤدى الى ردهة صغيرة ، ومنها الى الدهاليز والغرف على غير نظام وفيها غـرف المائدة ، والاستقبال ، والكتابة ، وغيرها ، وسيأتى وصـفها فى حينه ..

- ٢٢ -

يلدز بعد نصف الليل

نام أهل الاستانة واسـتغرقوا فى أحلامهم .. والأحـلام يقظة ثانية يكابد فيها الناس شقاء ثانيا فى عالم آخر . وكانت الليلة مقمرة ، وقد وقع ضـوء القمر على الاسـتانة وضـواحيها ،

فانعكست عن مياه البوسفور .. فأصبح سطحه كالصحيفة البيضاء لا يخترقه قارب ، ولا تمخر فيه سفينة خوفا من غضب رب يلدز ، لأنه أمر الناس أن لا يعكروا ماءه ليلا والا أرسلهم الى قاعه جثثا هامدة .. حتى الريح فانها أطاعته ولم تهب فى تلك الليلة ، فظل سطح البوسفور هادئا لا تتلاطم فيه أمواج ، ولا يتحرك فيه ساكن .. أو لعله شارك أهل الاستانة فى نومهم ، فانه كان رفيقا بهم ، وقد عاصر أجيالا منهم فلم يمر به جيل أتعس حالا من هذا الجيل .. حتى فى أقدم أزمنة الاستبداد .. شاهد اليونان والرومان ، والفرس ، والعرب ، والأتراك ، واخترقه داريوس وقسطنطين ، ومحمد الفاتح ، وغيرهم من كبار الرجال . وقطعه الصليبيون فى طريقهم الى الحرب المقدسة ، فلم ير بين هؤلاء وغيرهم من أشبع جوفه من الجثث ، كما فعل صاحب الاستانة ورب يلدز فى هذا العصر

نام أهل الاستانة بين كهل يحرق الارم أسفا على ما ذهب من شبابه عبثا فى معالجة باب الرزق ، فلم يجد له فيه مدخلا . وسجين يدعو ربه خلسة أن يقتص له من القوم الظالمين . وأرملة أغرق بعلها فى مياه البوسفور ضحية الجواسيس . ويتامى يتضورون جوعا ولا ذنب لهم الا أنهم ولدوا فى عصر طاغية لا ينام عن الأذى ، تنتابهم المخاوف حتى فى الأحلام ، فتصور لهم عبد الحميد كالتنين فاغرا فاه ، أو كالثعبان ينساب بين أسرتهم ينفث سمه فى جراحهم حتى أهل يلدز .. وهى الجنة بأغراسها

وقصورها ومياهها ، والجحيم بمن تفشى فى أكنافها من أعـداء الانسانية الذين تغمض عيونهم للنوم ، ولا تنام أفكارهم عن نصب الحبائل .. يمضى النهار بنوره ، ويقبـل الليل بديجوره ، وتتبدل مظاهر الوجود ولا يتغير مافى نفوسهم .. اذا خيم الظلام سكنت الطبيعة وتجلت هيبتها واتسع مجال الخيال ، وانقشعت بهرجة النور عن وجه الحقيقة .. فيرى العقل من مساوىء النفس مالا يراه فى رابعة النهار .. كالسكوت اذا استولى على المـكان أسمعك أخفت الأصوات ، فالليل بديجوره يكشف لأهل الأرض سيئاتهم ويجسم أعمالهم . اذا نظروا الى السماء رأوا نجومهـا كالعيون المحدقة اليهم ، أو كالحارس يراقب أعمالهم .. وكأن النوم يجرد النفوس من الأجساد ، فتتقابل وتتعاقب لافرق فيها بين الملك والصعلوك ، والظالم والمظلوم ، كأنها فى حضرة الديان العظيم .. ان الظلمة تكشف لأهل الظلم موبقاتهم ، فيرونها مكبرة فى ذلك السكوت المهيب ، كأن الطبيعة صامتة غضبا من أعمالهم

ذلك موقف يبين لك فضل الحيوان على الانسان .. ان الحيوان لا يؤذى أخاه الا اذا جاع .. فيتنازعان على الفريسة ، فاذا شبعا تآلفا وتكاتفا . والانسان كلما زاد شبعا زاد طمعا ، وكلمـا زاد ثروة زاد جشعا .. اذا شبع قتل أخاه الجائع ، وقد يقتل المئـات ليقال انه قاتل . ويستعبد الألوف ليسمى نفسه الحاكم . فيموت هو من التخمة وأخوه بجانبه يموت من الجوع

أنظر الى أهل يلدز ، فقد ناموا ملء جفونهم بعد أن تآمروا

وتجسسوا ، وتخادعوا ، وتواطأوا على خراب بيت ، أو تعذيب نفس ، أو ابتزاز مال . ولو اطمأنت نفوسهم وهدأت ضمائرهم لم يركنوا الى الأسوار العالية والأبواب الموصدة ، يقيمون عليها الحراس : سبعة آلاف رجل من الألبان والشراكسة ..

هنالك الحدائق الغناء والقصور الزهراء .. يعيش من فضلات طعامها ألوف من المتزلفين ، وقد أبيح دخولها للدبابات تسرح فى ساحاتها ، والطيور ترفرف فى أكنافها ، ولم يمنعوا الأفاعى من الانسياب بين أغراسها .. حتى الحشرات والديدان وأدنى أنواع الحيوان وجدت فيها ملاذا أو مسرحا .. ولكنها أوصدت فى وجه طلاب الرحمة من بنى الانسان

أنظر الى تلك القصور،وما أنفق فيها من الأموال وما أهرق فى سبيل بنيانها وزخرفها من الدماء .. وقد أقيم على أبوابها وفى طرقاتها وحول أسوارها ألوف من الرجال الأشداء بأسلحتهم ، وأفراسهم ، وعيونهم كالشهب ، وقلوبهم كالرجم .. وقد جردوا السيوف ، وأغمدوا الضمائر ، وباعوا الآخرة بالدنيا لحماية رجل واحد لاتقع العين عليه الا بعد اختراق الأبواب،وتسلق الأسوار . يحسبه غير العارف متمتعا بأشهى ملاذ الحياة ، وهو محروم مما يتمتع به أحقر رعاياه مع مخاوفهم ومظالمهم .. انهم ينامون بلا حراس ، واذا خافوا نزحوا الى بلاد الله واسعة .. وهو لا يستطيع نزوحا ، لأنه يخاف على حياته من الجميع .. حتى من أعوانه وحراسه ، ومن أولاده ونسائه .. يخاف من طعامه وشرابه ..

يخاف من فراشه ووساده ، لايستقر به مضجع ولا يهدأ له بال .. يقضى ليله ساهرا وحذرا ، واذا غلبه النعاس توسد كرسيا .. وكان نومه متقطعا يتقلب على أشواك المخاوف

— ٢٣ —

عبد الحميد فى ليله

كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين وخاقان البحرين الذى دانت له الرقاب ، وقبض على الحياة والموت . ويزعم المتملقون أنه اذا غضب غضبت عناصر الكون ، وان رضى ابتسمت الطبيعة ، تحييه الرياح وتطيعه الأمطار ، لم ينفعه ذلك بعد ما ارتكبه من الشطط فى تلك السيادة ، فتجاوز بها الحد ، اذ تولاه الخوف والقلق .. تلك كانت حاله فى ذلك الليل

ولو أوتيت المعجزة ، فلبستَ قبعة الاخفاء .. ودخلتَ ذلك القصر الفخم فى غفلة من الحراس ، وأقبلت على المابين الصغير مسكنه الخاص فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل ، لعلمت ان أهل تلك القصور قد استغرقوا فى نومهم حتى الحراس المكلفين بالسهر والحذر .. حتى هؤلاء غلب عليهم النعاس فناموا ولم يبق أحد ساهرا هناك ، ولا الحشرات .. حتى الأشجار أطبقت أزهارها تلتمس الراحة ، الا صاحب ذلك القصر وسيده الذى أوصدت الأبواب لوقايته ، وأقيم الجند لحمايته .. فانه ظل ساهرا يتقلب

على كرسى طويل توسده ، وقد التف بملاءة من الصوف وأخـذ يقرأ تقريرا جاءه من بعض جواسيسه ، فأقلق راحته وحرمه النوم . وقد غلب عليه التعب والأرق .. وهو يطلب النوم ليريح جسـمه ويبعد مخاوفه فلا يجد اليه سبيلا

فلما دقت الساعة الرابعة أطبقت أجفانه وأصبح كالنائم ، ولكنه ساهر مستيقظ بما انتابه من الأحلام المزعجة ، ففضل اليقظة لأن النور يؤنسه .. والاستغراق فى الأفكار المتضاربة أولى من الذهاب فريسة تلك الأحلام ، فعمد الى كتاب تعود أن يلهو بقـراءته تأليف ماكيافللى الشهير ، ففتحه وقرأ فيه برهة .. ثم تركه وخطر له أن يلهو بالنجارة ، وعنده فى ذلك القصر غرفة فيها كل معدات هذه الصناعة .. ولكنه تكاسل

وظن أن العلة من الفراش ، فغادر الكرسى فى غرفة المائدة الى كرسى فى غرفة البيانو .. فلم يجْده التغيير نفعا ، فرمى الورق من يده ومشى يطلب النوم فى غرفة أخرى . ثم ندم فعاد والتقط تلك الأوراق المتناثرة فجمعها ورتبها واحتفظ بها وضمها الى صدره ، وذهب الى كرسى آخر فى غرفة الكتابة وطفق يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأ لفرط التعب ، فغلبه النوم فنام حتى مطلع الفجر .. وكأن صياح الديك نبهه فنهض ، ودقت الساعة السادسة .. ثم سمع صوت المؤذن فعرف أن الصلاة قد أذنت ، فخرج للوضوء فرأى صاحب الوضوء فى انتظاره .. ووضوؤه أشبه بحمّام عاجل ، فهرع « بالبنطوفلى » الى حمامه الخاص فى ذلك القصر ، وفيه

الاجران الرخامية المعرقة بالذهب والحنفيات المذهبة وسائر معدات الاستحمام .. فاستحم وأفكاره تائهة ، وأدى فريضة الصلاة وعاد الى التقرير فتأبطه ، ومشى نحو باب من ذلك القصر يؤدى الى الحديقة الداخلية ، وقد التف بعباءة كستنائية اللون واسعة الأردان تكسو أثوابه

وهو نحيف الجسم ربعة أو تحت الربعة ، لايزيد طوله على خمسة أقدام ، عصبى المزاج .. وكان فى شبابه طلق المحيا مستدير الوجه ، فأصبح يومئذ وقد تغيرت سحنته لفرط ما عاناه من بواعث الحذر على حياته .. لأنه قاسى عذاب الموت خوفا من الموت ، وكابد مرارة الاستعباد رغبة فى الاستبداد . فمن عرفه فى شبابه قد ينكره فى ذلك اليوم بسبب التغيير الكبير الذى طرأ عليه ، فقد برز فكاه ووجنتاه وأنفه وخفت لحيته وغارت عيناه لارتخاء الجفنين العلويين من الشيخوخة ، وظهرت غضون وجهه وتساقط شعر رأسه فصار يغطى صلعته بطربوش كبير ينزل الى أذنيه ، وقد لبسه فى ذلك الصباح فظهر امتقاع وجهه من تحته ..

وأصبح فى شيخوخته سوداوى المزاج ، فاذا رأيته تحسبه مثقلا بالهموم ولو كان فى أسعد أحواله .. فكيف وهو فيما تقدم من القلق ..

دخل الحديقة وهو ملتف بالعباءة ، وقد تأبط ذلك التقرير تحتها . وكانت الشمس قد أطلت من وراء جبال آسيا فأصابت

أشعتها أطراف الأغصان ، فاستيقظت العصافير وأخذت ترفرف وتزقزق . وابتسمت الأزهار وصفقت الأوراق وسرح الأوز فى البحيرة حول القوارب . وتطاير الحمام فى أبراجه وأخذ يتداعب هذه تتمايل ، وتلك تهدر ، وأخرى تحضن فراخها .. وبسط الطاووس ذيله ، وتبختر فى قفصه مزهوا .. وتجاوبت الكراكى والحساسين ، وصهلت الخيول .. وأصبح كل حى فى تلك الحديقة ضاحكا مسرورا الا عبد الحميد ، فانه مشى فى أكنافها مقطب الوجه ، منقبض النفس فى غفلة عن كل ذلك ، والقهوجى باشا يسير فى أثره ومعه أدوات القهوة ، لعل سيده يطلب منه أن يعدها .. ولم يكن هناك سواهما مع كثرة من فى تلك القصور من النساء والرجال ، وعددهم يزيد على خمسة آلاف .. لكنهم لا يجسرون على الظهور فى حضرته الا بناء على طلبه ، على أنهم كانوا يتطلعون اليه من النوافذ يراقبون حركاته خلسة ..

— ٢٤ —

الببغاء

وبعد أن جال فى الحديقة برهة ، تحول الى كشك من الخشب بجانب البحيرة ، وجلس على مقعد فوق وسادة من الحرير وأشار الى القهوجى باشا أن يعد له القهوة ، فتناولها وهو يعمل فكره فيما قرأه .. واذا هو يسمع ضحكا عرف من طوله ورنينه

أنه ضحك ابنه أحمد نور الدين أفندى ، وهو يومئذ فى السابعة من عمره .. ومن يجسر على الضحك فى حضرة البادشاه سواه ، فالتفت نحو الصوت ، فرأى الغلام يداعب ببغاء جميلة اللون بين يدى مربيته ويضحك لرفرفة جناحيها وصياحها

ولم تكن المربية تعلم بوجود السلطان هناك ، فاسترسلت فى ملاعبة الغلام .. وما لبثت أن سمعت نحنحة السلطان فأجفلت وهمت بالفرار ، ثم سمعته يناديها فتلملمت واحتجبت بالغلام فقادته بيده الى الكشك تلتمس الاعتذار عن جسارتها بوجوده معها . فأفلت الغلام من يدها وأسرع بدالة الطفل الى أبيه ورمى نفسه عليه . فاستقبله أبوه وقبله وأراد أن يخفف ما به بمحادثته ، فأجلسه على حجره وسأله عن سبب مجيئه الى الحديقة فى تلك الساعة ..

قال الغلام : « جئت لأكلم صديقتى الببغاء » وضحك ضحكة الطفل وأشار الى الببغاء فى يد المربية . وكانت لا تزال واقفة فى الخارج وقلبها يختلج خوفا من غضب السلطان لئلا يظن بها سوءا فيقتلها . وقد عرفت كثيرا من أمثال هذه الفظائع فى يلدز يقتل فيها الرجل أو المرأة بطلق نارى من يد عبد الحميد لمجرد التوهم انه جاء بدسيسة .. فظلت واقفة فى الخارج وودت لو أن الأرض تبتلعها وتخفيها ، ولولا علمها أن عبد الحميد يكون فى مثل ذلك الوقت منزويا فى مكتبه يقرأ التقارير ما رافقت الغلام الى هناك ..

فلما أشار الغلام الى الببغاء ، التفت أبوه الى المربية وأومأ اليها أن تعيد الطير الى قفصه . وكان قفصه معلقا بشجرة من الدلب قريبة من الكشك ، فما صدقت أنه أمرها بذلك حتى مشت الى أحد البستانيين ، فأعانها فى ادخال الببغاء الى القفص وانزوت فى أحد جوانب الحديقة

وأخذ عبد الحميد فى مداعبة ابنه فقال له : « هل تحب الببغاء كثيرا يانور الدين ؟ » ..

قال الغلام : « نعم .. أحبها يابابا »

فقال السلطان : « هل تحبها أكثر منى ؟ » ..

فاهتم الغلام بذلك السؤال رغم طفولته ، لأن تعظيم شخص عبد الحميد كان قاعدة متبعة يتدارسها الكبار والصغار . ولعله آنس فى عينى أبيه ما بعثه على الاهتمام . فقال : « عفوا أفندم .. لا ينبغى أن نحب أحدا فى الدنيا أكثر من الذات الشاهانية »

فأدرك عبد الحميد أن مثل هذه العبارة لا يقولها هذا الغلام من عند نفسه ، فقال له : « ومن علمك هذا » .

فخشى الغلام أن يكون قد أخطأ ، فبدا الخوف فى وجهه مع التردد .. ولم يدر بماذا يجيب ، فضحك أبوه تشجيعا له على الكلام ، فقال الغلام : « علمتنى اياه قادين ج .. »

فبدا الغضب على وجه عبد الحميد عند سماع ذلك الاسم ، وتمتم قائلا : « انها تحتال فى استرضائى .. يالها من خائنة .. وتظن أن هذه الحيلة تنطلى على » ثم تجاهل وعاد الى مداعبة

« ولم تكن المربية عالمة بوجود السلطان هناك ، فتركت الغلام مسترسلا فى مداعبة الببغاء ، وما لبثت أن سمعت نحنحة السلطان فأجفلت وهمت بالفرار »

ابنه ، فأخرج من جيب عباءته سبحة من الكهرمان دفعها اليه .. وجعل يلاعبه بها ويداعبه والغلام يضحك وأبوه يتضاحك ويتلاهى . فتحرك الغلام حركة أوقعت التقرير من حجر السلطان ، فتطاول ليلتقطه فاضطر لذلك أن ينهض من مقعده ، فتحول وجهه نحو الببغاء فى القفص فرأى أن يعود الى مداعبة ابنه بها ، فقال : « ألا تعطينى هذه الببغاء ، وأعطيك هذه السبحة الجميلة .. »

قال الغلام : « ان الببغاء لك أيضا .. ألسنا جميعا ملكا لك تفعل بنا ما تشاء .. »

فعلم أن ذلك الجواب من دروس تلك القادين أيضا ، فلم يعبأ به ، ولكنه أشار الى بستانى أن يأتى بقفص الببغاء الى ما بين يديه ، فجاء به ووضعه على مقعد خارج الكشك ، فخرج الغلام وطفق يكلم الببغاء وهى تقلد كلامه .. وشغل عبد الحميد باختلاس النظر الى مايحدق به من المنافذ ، فرأى نادر أغا وهو رئيس الخصيان وصاحب النفوذ الأكبر فى تلك القصور .. رآه خارجا من مكان لم يكن يتوقع أن يراه فيه . فلما وقع نظره عليه صاح به : « نادر أغا .. نادر أغا » بنغمة الآمر المستبد ، فأسرع نادر حتى وقف بين يديه ، وسلم بالاحترام اللازم والدعاء ، فقال له : « من أين أنت آت .. ؟ » ..

قال نادر : « من حول قصر مولاى » ..

قال عبد الحميد : « وما الذى كنت تفعله ؟ .. » ..

قال نادر : « كنت ساهرا على راحته لأنى شعرت بما أصابه من الأرق ، ويا حبذا لو استطعت نفعه بشىء »

فتحقق عبد الحميد من صـدق قوله ، وكان حسن الظن به ويرى سواد جلده بياضا .. وكثيرا ما جعله عينا على حرسه الخاص الموكل بحراسته ، لأنه كان سىء الظن بهم .. فانبسطت نفس عبد الحميد وأثنى عليه ثم قال : « ادع سر خفية « رئيس الجواسيس» وقل له أن يقابلنى فى المابين ويتناول الفطور معى »

فألقى تحية الاحترام وانصرف .. وأخذ عبد الحميـد يهتم بالنهوض ، واذا هو يسمع صوتا مثل صوته تماما ينادى : « نادر أغا .. نادر أغا » وفيه نغمة الاستبداد مثله فأجفل ، وما لبث أن رأى نادر أغا عائدا ويكاد يتعثر بسـاقيه لطولهما فقـال عبد الحميد : « من دعاك ؟ .. » ..

قال نادر : « ألم يدعنى مولاى .. لقد سمعت أمره بأذنى »

وكان نور الدين أفندى واقفا بازاء قفص الببغاء وقد أغرب فى الضحك فقال له أبوه : « وما يضحكك .. من نادى نادر أغا .. ؟ » ..

فأشار الغلام الى الببغاء وقال : « هـذه » قال ذلك وهـو يتوقع أن يبدو سرور الاعجاب على وجه أبيـه لاتقـان الببغاء التقليد ، ولكنه رأى عكس ذلك .. فظهر الغضب فى عينى عبد الحميد وصاح : « أخرجوا هذا الطير من قصرى أو اقتلوه فانى لا أطيق أن أسمع صوتا يأمر وينهى غير صوتى » قال ذلك بلهجة

الحنق والاستبداد حتى سمعه كل من فى الحديقة من الحاشية والنساء والسياس ، وتولاهم الرعب من شؤم ذلك النهار الذى ظهر غضب السلطان فى أوله . وبادر البستانى فأخذ القفص وطار به ، وتبعه الأمير أحمد نور الدين يتوسل اليه أن يستبقى ذلك الطير ، ولم يعد يجسر أن يخاطب أباه بشأنه

— ٢٥ —

السر خفيه

أما عبد الحميد فمشى الى قصره ، ونظر الى القهوجى نظرة فهم منها انه يريد التدخين ، فقدم له سيجارا وبادر الى اشعاله .. فسار وهو يدخن وجعل طريقه فى دهليز يؤدى الى باب القصر الرئيسى حيث يقف الحرس الألبانى بالأسلحة .. فمر بين صفوفهم وهم يحيونه التحية العسكرية وهو يرمقهم خلسة ، ويلاحظ حركاتهم ويده فى جيبه تحت العباءة على المسدس لئلا يكون هناك من يترصد قتله ، فيسبقه هو الى القتل بالرصاص — وكان من أمهر الناس فى اطلاقه — حتى وصل الى الباب . وكان نادر أغا واقفا فى انتظاره هناك ففتح له الباب ، فدخل يطلب غرفة الملابس .. ومر بطريقه اليها فى ممر قد كسيت جدرانه بالخزائن المملوءة بالتقارير السرية ، وفيها ألوف منها جمعت بتوالى السنين . فلما وصل الى غرفة الملابس ساعده نادر أغا فى تبديل

ثيابه ، فلبس الاسطمبولينا السوداء كالعادة ، وسأل نادر أغا اذا كان استدعى السر خفية

فقال نادر : « نعم أفندم .. هو آت حسب الأمر ومعه بريد هذا الصباح »

فلما سمع لفظ البريد تذكر التقرير الذى كان معه فتفقده ، فاذا هو على مائدة هناك . وبعد أن فرغ من ارتداء الملابس توجه الى غرفة المائدة ، وهى قاعة واسعة فى أرضها بساط واحد فيه رسوم جميلة تشبه رسوما مثلها فى السقف بألوانها وأشكالها . وفوق البساط مائدة كبيرة تسع حولها بضعة وعشرين رجلا . وفى صدر الغرفة موقد التدفئة من البورسلين الأبيض المذهب عليه حرف H مرسوما بالذهب . وتجاه الموقد (ويسمونه فى اصطلاحهم صوبا) فى الحائط المقابل له ساعة كبيرة موضوعة على « كنسول » متقن الصنعة .. ولا تخلو غرفة من غرف ذلك القصر من ساعة وترمومتر ، وبارومتر ، لأن عبد الحميد كان شديد الولع بهذه المقاييس

والى كل من الجانبين خزانة من الخشب الثمين بشكل البوفيه ، ولكن احداهما اذا فتحت ظهرت أنها بيانو من أفخم طراز .. وهى هدية من امبراطور الألمان لصديقه عبد الحميد

دخل غرفة المائدة والتقرير فى يده فوضعه على طرف المائدة وكان الطعام قد أعد على الطرف الآخر منها وهو بسيط يقتصر على اللبن ، والبيض ، وبعض المربات ، والفاكهة . ونظر الى

الساعة فرأى وقت مجيء السر خفية « رئيس الجواسيس » لم يحن بعد.وتقدم نحو خزانة البيانو التى تقدم ذكرها ، وبادر نادر أغا الى فتحها لعلمه أن سيده يحب العزف على تلك الآلة أحيانا ، ولا سيما اذا كان قلق الخاطر

فجلس عبد الحميد الى البيانو والسيجار فى يده فوضعه على منفضة هناك ، وأخذ يعزف لحنا تعود الارتياح اليه ونادر أغا واقف ينتظر أمره .. ثم شعر عبد الحميد بخطوات فى الردهة الفاصلة بين تلك الغرفة وباب القصر . فأمسك عن العزف والتفت فأسرع نادر أغا الى الباب ليسأل عن القادم ثم عاد وقال : « ان السر خفية جاء ومعه حقيبة البريد وضعها على الطاولة فى الصالة » ..

ثم دخل السر خفية وهو كهل قصير القامة ، عليه اسطمبولينا ، فألقى التحية الى الأرض ووقف بالباب فابتسم عبد الحميد ، وأشار اليه أن يدخل فدخل باحترام وهو يتلملم ويتأدب على جارى عادتهم ..

فجلس عبد الحميد الى المائدة وأشار اليه أن يجلس تجاهه ، وأمر نادر أغا بالانصراف ، وأن يقف فى مكانه خادم للمائدة أصم أبكم تعود أن يخدمه اذا كان فى جلسة سرية لايريد أن يسمع الخدم شيئا منها .. فأتى ذلك الخادم الأصم لتقديم مايلزم للمائدة، والسلطان يخاطبه بما يحتاج اليه بالاشارة

أما السر خفية فجلس وهو يعلم ان دعوته لتلك المائدة شرف

عظيم ، قل من يناله من الأخصاء .. وشعر بذكائه ان عبد الحميد لم يكرمه الى هذا الحد الا لأمر هام . فلم يتناول من الطعام الا قليلا وذلك من قبيل التأدب فى مثل تلك الحال ، وبالغ السلطان فى اكرامه ، فقدم له سيجارا من علبة بجانبه فيها مشروبه الخاص. فتناول السيجار ولم يدخنه ..

فتح السلطان الحديث ، وقد بدل سحنته كأن لم يكن به قلق .. ومن مزايا عبد الحميد ، قدرته العجيبة على اخفاء ما به والظهور بالحالة التى يريدها ، وقال : « كم ينشرح صدرى بمجالسة الأمناء من أعوانى ؟ »

فقال السر خفية : « اننا عبيد مولانا أمير المؤمنين والأمانة فرض علينا » ..

فتناول فنجان اللبن وأدناه من فمه وهو يقول : « نعم..ولكن الأمناء قليلون وأنت واحد منهم » . وارتشف رشفة من الفنجان، وأعاده الى الصحن ، وقال : « بل أنت موضع ثقتى ، وعليك المعول فى اكتشاف دسائس الخوارج من رعيتى ، وهم كثيرون »

فقال السر خفية : « ان أكثر رعايا أمير المؤمنين صادقون فى عبوديتهم ، وانما الخائنون شرذمة قليلة قادها فساد التربية الى الدسائس » ..

فقطع عبد الحميد كلامه قائلا : «انهم كثيرون على مايظهر ..» وأشار بيده الى التقرير الذى كان يطالعه

فتناول السر خفية التقرير وهو يقول : « أرى مولاى البادشاه

ـ أيده الله ـ قد أعاد دسائس أولئك الأغرار اهتماما .. »

فقال عبد الحميد : « هل قرأته ؟ » وأشار الى التقرير

قال السر خفية : « نعم أفندم .. »

قال عبد الحميد : « ألم تقرأ ما فيه عن الجمعية التى أنشأوها فى دمشق .. ان العرب .. آه من العرب .. قد ذهب احسانى اليهم عبثا .. »

قال السر خفية : « لم يذهب الاحسان عبثا ياسيدى . فقد جاء فى هذا التقرير أن بعض الأغرار من أهل دمشق أخذوا فى انشاء جمعية جديدة ..ولكن أولئك قليلون ، لاينبغى لمولاى أن يعتد بأعمالهم ، فكم أنشأوا من الجمعيات السرية ، وكم كتبوا ونشروا ، وقد غلب توفيق جلالة السلطان على كيدهم لأن الله معه .. »

فقال عبد الحميد : « ألا ترى أنهم اتخذوا فى جمعياتهم خطة جديدة ؟ » ..

قال السر خفية : « أظن جلالة البادشاه يعنى دخول الضباط فيها .. »

فكادت تظهر البغتة على وجه عبد الحميد عند ذكر الضباط ، ولكنه تجلد وقال : « ألا تظن دخول الضباط فى هذه الجمعية يعظم أمرها ؟ »

قال السر خفية : « ان العمدة فى الجند على العساكر ، وهم السواد الأعظم ، ونحن على ثقة انهم يتفانون فى الدفاع عن أمير

المؤمنين ظل الله على الأرض »

فأثر ذلك الاطراء فى نفس عبد الحميد وقال : « أنا أعلم ان الخونة لا يقدرون على شيء طالما كنا على بينة من أغراضهم .. ولكن لا أكتمك ما يجول فى خاطرى لأنى عظيم الثقة بأمانتك وصداقتك .. » قال ذلك وتناول تفاحة وأخذ فى تقشيرها،وأشار اليه أن يأخذ تفاحة لنفسه ، وقال بصوت خافت : « لا أكتمك اهتمامى بأمر العرب وخاصة أهل الشام .. لا أعنى انهم يقدرون على شيء .. ولكنهم أصحاب أقلام ، وفيهم همة ، ولهم يد فى أوربا ، بما يعرفونه من اللغـــة الافرنجية .. وهل نسيت ما كانوا يكتبونه فى الصحف الأوربية من المقالات العصيانية » . وسكت ينتظر ما يقوله السر خفية

فقال السر خفية : « لم أنس ما كان من ضوضائهم فى أوربا ، ولكنهم غلبوا على أمرهم وسكتوا »

فابتدره السلطان قائلا : « سكتوا .. صحيح ..ولكن حركتهم الأخيرة تختلف عن تلك .. انهم الآن على ما يظهر فى هذا التقرير داخلون مدخلا جديدا .. ليس فيه ضوضاء ، انهم عازمون على انشاء جمعية يضمون اليهـا ضباط الجند ، وهم مسلمون ، فيدعونهم باسم الأمة العربية .. ويزعمون انهم مادة الاســلام وأصله ، وربمـــا حدثتهم أنفسهم باسترجاع مجدهم .. وقد يستطيعون خداع بعض ضباط جندنا بهذه الحيلة ، واذا فعلوا ذلك .. »

وسكت .. ووضع قطعة من التفاحة فى فمه ..

فابتسم السر خفية ابتسام الاستخفاف وقال : « اذا أذن لى مولاى البادشاه قلت ما يخطر لى وهو ما تدعونى اليه عبوديتى»

فاستبشر السلطان بشيء جديد يسمعه .. وان لم يفته شيء يخطر ببال محدثه لفرط دهائه وسرعة خاطره وحذره ، فأظهر الاصغاء وقال : « قل ما يخطر لك »

فقال السر خفية : « هب يامولاى ان العرب فى الشام عزموا على انشاء جمعية سرية يدخلون فيها ضباط الجيش .. لنفرض ذلك ممكنا لهم وانهم نجحوا — لا سمح الله — وتكاثر عددهم ففى الامكان ارجاعهم أو اسكاتهم كما أسكتنا غيرهم قبلهم بالمال ، أو بالاسترضاء ، أو بقوة الجند ، أو على يد بعض المخلصين للعرش العثمانى من عبيد مولانا السلطان ، لأنهم فى داخل المملكة لا يرجون نصرة أعدائنا دول أوربا » . وبلع ريقه وظهر الاهتمام على وجهه كأنه يكتم شيئا هاما

— ٢٦ —

البريد

وكان عبد الحميد يسمع كلامه ، وهو يتشاغل بفتات من لب الخبز ، يعركه بين الابهام والسبابة .. فلما لاحظ عليه الاهتمام بعد أن ذكر دول أوربا ، أدرك ما يشير اليه فقاطعه قائلا : « فهمت

مرادك .. صدقت .. ان العرب لاينبغى أن نخاف منهم..هل حدث شيء جديد فى سلانيك ؟.. ان أشقياء هذه المدينة لا يركن اليهم لقربهم من أعدائنا » وظهر الغضب على وجهه ولم يتمالك عن الوقوف والمشى نحو الباب ، فوقف السر خفية ومشى فى أثره ، وقد أدرك انه يطلب صالة الاستقبال التى جرت العادة أن يقابل فيها كبار موظفيه كالسر خفية ، والباشكاتب ، والسر عسكر ، وغيرهم ، ليطلع على ما جاء به البريد على عادته من اللجاجة فى استطلاع الأخبار . فقال السلطان : « اقصص علىّ ما تعلمه من أمر تلك المدينة الجهنمية .. هل أتاك شيء بشأنها ؟ »

فقال السر خفية : « أرجو أن نجد شيئا فى هذا البريد .. »

فدخلا الصالة ، وهى كالغرفة الصغيرة فى وسطها طاولة مستديرة عليها غطاء من المخمل المزركش ، حولها مقعد كبير وكراسى وليس على جدرانها الا اطار معلق فى صدرها ، وقد كتب فى وسطه بخط جميل هذه الفقرة : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » وتحتها « أمان يا رسول الله »

فلما دخل السلطان الصالة جلس على المقعد وحقيبة البريد على الطاولة بين يديه ؛ وأشار الى السر خفية أن يجلس ، فجلس على كرسى ، وبادر الى فض الحقيبة وأخرج منها أوراقا وأغلفة ، وظرفا ، والسلطان يساعده فى قراءة العناوين . فأفرد السر خفية ظرفا كبيرا عليه ختم «سلانيك» فتناوله السلطان وهو يقول :

« هذا من ناظم بك .. انى أتوسم فى هذا الشاب خدمة صادقة.. ألا تعرفه ؟ .. »

قال السر خفية : « كيف لا ؟ .. انه فى الحقيقة من العبيد المخلصين للسدة الشاهانية ، عرفت ذلك من بعض رجالى الذين بعثت بهم الى تلك المدينة »

فقال السلطان وهو يفض ذلك الظرف : « ماذا قال لك رسولك ؟ » ..

قال السر خفية : « أكد لى صدق خدمة ناظم بك مما يكابده فى البحث عن أعضاء تلك الجمعية .. »

فلما قال : « كانت تلك الجمعية الملعونة التى تسمى نفسها « جمعية الاتحاد والترقى » فى باريس ضعيفة ، ولو لم ينشطها الداماد محمود وأولاده لمحى أثرها »

فقال السر خفية : « قد محى أثرها فعلا يامولاى من مدة طويلة . ولكن بلغنى أنهم أعادوا الكرة واستأنفوا السعى .. ولعل فى كتاب ناظم مايكشف الحقيقة »

وكان السلطان وهو يسمع كلام جليسه يقلب تقرير ناظم بك وقد وقف بصره على فقرة أخذ يقرأها ويعيد قراءتها ، والسر خفية ساكت ينتظر ما يقوله السلطان . فاذا به قد طرح التقرير اليه وهو يقول : « تحقق ظنك .. انك مجتهد فى البحث .. وقد صدقك مخبرك .. خذ اقرأ .. »

فتناول السر خفية التقرير وقرأ فيه ما معناه : « ان الجمعية

الملعونة التى رفعت الى أعتاب مولانا البادشاه خبرها على سبيل الظن قد تحقق لى الآن انها تشكلت فعلا ، وانتظم فى سلكها كثيرون من ضباط الجيش وغيرهم ، وأنا ساع فى كشف أمرها والاطلاع على مكان اجتماعها..ولكننى علمت من بعض المخبرين ان مثل هذه الجمعية تشكل فى الشام بين الضباط أبناء العرب ، وان بعضهم جاء سلانيك للاشتراك فى هذه الجريمة ، ويقال انهم اكتفوا بجمعية سلانيك ووضعوا كل قوتهم فيها وغضوا النظر عن دمشق . فاذا وفقنا الى كشفها قطعنا دابر المفسدين..ولكننى أؤكد لمولاى البادشاه ملجأ الخلافة الأقدس ان عبده ساهر على مصلحة الدولة وخدمة الذات الشاهانية ، ولا ألبث أن أكتشف مكايد الخائنين وأطهر الأرض من وجودهم »

— ٢٧ —

الدستور

وكان السر خفية يقرأ ، والسلطان يتشاغل بالسيجار ينقله بين أنامله ، ويدخن بسرعة وبغير نظام .. فأدرك جليسه قلقه ، فقال : « صدق ناظم بك ان سلانيك أعظم خطرا من سائر مدن المملكة ، وقد عرفت ذلك من قبل كما عرضت لمولاى البادشاه . ولذلك فقد أرسلت رجلا من جواسيسى منذ بضعة أسابيع عهدت اليه البحث والتنقيب عن جمعية جديدة تشكلت فى سلانيك من ضباط

الجيش .. عرفت ذلك من بعض مخبرى فى دمشق .. فقد كتب التى بعضهم ان بعض المغرورين سافر من دمشق الى سلانيك للتداول فى هذا الشأن ، فاذا كانوا قد جمعوا كيـــدهم كله فى سلانيك فيرتاح بالنا من جهة الشام .. ونوجه اهتمامنا لمطاردتهم هنا .. »

فقال السلطان : « هل أنت على ثقـــة من جاسوسك الذى أرسلته الى سلانيك ؟ .. »

قال السر خفية : « نعم يا مولاى .. انه شاب ذكى اسمه صائب بك من أشد الخدمة الأمناء غيرة على الجناب الملوكى الهمايونى . وجاءنى منه أمس أنه أوشك أن ينجح فى كشف خيانة الخائنين .. »

فهز عبد الحميد رأسه وقـــد تولاه الحنـــق وقال : « ويل للخائنين ناكرى الجميل .. حتى الجنود تآمروا ضدى ، وأنا لم أدخر وسعا فى التوسعة عليهم ؟ .. انى سأنتقم منهم شرانتقام..»

فتهيب السر خفيـــة من غضب السلطان وقال : « ان الجنود الشاهانية كما قلت لمولاى لا يزالون على ولائه الهمايونى . حتى الضباط فانهم موالون الا نفرا قليلين أغراهم أولئك الخوارج على نبذ الطاعة . وهم يزعمون انهم يجاهدون فى سبيل الدستور»

فأجفل السلطان من ذكر الدستور وصاح : « الدستور ..لماذا يطلبونه ؟ »

قال السر خفية : « انهم مغرورون يامولاى .. أنا أعلم ان

أمير المؤمنين من أرغب الناس فى منحه لرعاياه متى رأى فيهم الاستعداد له . ولكن متى كان أهل الشرق يحكمون بالدستور، وقد تكرم جلالة البادشاه فمنحهم اياه فلم يفلحوا ، ولا عرفوا كيف يستخدمونه »

فسُرّ عبد الحميد بهـذا التبرير ، وان لم يثق فى اخلاص قائله..ولكنه جاراه وقال : « قد أعطيناهم الدستور فأفسدوه .. انهم لا يصلحون له »

فقال السر خفية : « ان الدستور ــ يامولاى ــ يخالف الشرع الشريف .. أليس جلالة السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينبغى أن يقتـدى به .. هل كان الخلفـاء الراشدون يحكمون بالدستور ؟ .. انه من بدع النصارى أهل أوربا .. ولو كان ملكهم خلافة دينية لم يسلموا بالدستور ولا عملوا به ، ولكن بعض المغرورين اللئام من رعايا جلالة السلطان فسدت طباعهم بمعاشرة الافرنج ، فأرادوا أن يقلدوهم فى نظام الحكم كما قلدوهم فى الملابس والطعـام والخمر والمقامرة .. فأغفلوا قواعد الدين الحنيف ، وعصوا أوامر النبى صلى الله عليه وسلم، ويريدون أن يعصوا أوامر خليفته فخرجوا عليه و .. »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « والخوارج الملاعين .. ما الذى حملهم على الخيانة .. وما هو العمل الذى أوجب خروجهم ؟ .. هم يطلبون المناصب ويطمعون بالترضيات المالية وقد تعبت فى

مرضاتهم . من أين آتيهم بالمناصب التى يطلبونها .. هل من الاخلاص انهم اذا جاءوا خرجوا على مولاهم ؟ .. »

فأخذ السر خفية يخفف عنه قائلا : « ان مساعيهم ستعود على رءوسهم ، ولا أظنهم الا نادمين عما قليل .. وما هذه أول مرة رجعوا فيها صاغرين.لم يكن فيهم أشد وقاحة من مرادالدغستانى وأنصاره ، وقد ندموا ورجعوا فأكرم جلالة السلطان مثواهم ، وأغدق عليهم النعم . ولعل ملجأ الخلافة ــ أيد الله ملكه ــ قد بالغ فى الاحسان اليهم والاصغاء الى صراخهم . ولو انه أهملهم واستعمل القسوة فى عقابهم لكانوا عبرة لسواهم ، ولكنه عاملهم بالرفق والاحسان ، فطمعوا وتمردوا .. وقد قرب الوقت الذى يدركون فيه شططهم فى انكار حق العبودية »

فابتدره السلطان قائلا : « بل آن الوقت للقصاص منهم والفتك بهم .. » وصفق فدخل أحد الحجاب فقال له : « ادع الباشكاتب .. »

فخرج ولبث السلطان ساكنا ، وهو يرتعد من الغضب ، وقد تهيَّب السر خفية من رؤيته فى تلك الحال .. وبعد قليل ، دخل الحاجب يستأذن للباشكاتب ، فأذن له ..

فدخل وحيا ووقف ، فأومأ اليه أن يجلس فجلس ، فقال له : « أكتب الى ناظم بك قومندان سلانيك أن يراعى الدقة فى البحث عن الخونة الذين يزعمون انهم يقفون فى سبيل ارادتى

الشاهانية بتأليف الجمعيات السرية . قل له أن يستعمل الشدة بأية وسيلة كانت بمقتضى العبودية ، وليبادر الى ايفاء الوظيفه الموكولة اليه بما يليق بالشرف العسكرى رغبة فى صيانة الدولة من الأدران الضارة .. » فقال الباشكاتب : « سمعا وطاعة أفندم وقد أمر مولانا فكتب عبده الى ناظم بك بهذه المعنى أمس »

فقطع كلامه قائلا : « اكتب أيضا وقل له أن يجرد السيف ويقطع الرقاب ويقتل ويفتك » قال ذلك وهو ينتفض . وتزحزح من مقعده ، فنهض الباشكاتب والسر خفية واستأذنا فى الانصراف ، فأذن للباشكاتب وأبقى السر خفية

وبعد خروج الباشكاتب ظل السلطان مطرقا دقيقة ريثما هدأ روعه ثم خاطب السر خفية قائلا : « كيف ترى تحسينا الباشكاتب ؟ .. »

قال السر خفية : « أراه مخلصا يامولاى .. »

فتنهد تنهدا طويلا فهم منه السر خفية ألف معنى ، وهو يعلم سوء ظن عبد الحميد فى جميع الناس ، فقال : « وهب انه غير مخلص ، فانى لا أغفل عن كشف أسراره .. وقد خصصت له جاسوسا من أنبه رجالى لاستطلاع حقيقته »

فقال عبد الحميد : « أما وقد فهمت مرادى فكفى .. انى لا أثق فى أحد سواك .. عفارم .. »

وأحس السر خفية انه قد آن وقت انصرافه فاستأذن وخرج

- ٢٨ -

مناجاة !

فلما خلا السلطان بنفسه ، مشى مشية الغضب حتى دخل غرفة الكتابة ، وفيها كرسى من الزجاج وأمامهـا طاولة من الزجاج أمر بصنعهما للجلوس عليهمـا اذا تكهرب الجو وخشى وقوع الصواعق ، لأن الزجاج لا يوصل الكهرباء..فجلس على الكرسى لحظة بغير تعمد ، ثم نهض وتحوّل نحو منضدة عليها أوراق فى محفظة ، فتذكر التقرير الذى أتاه من الشام ، فهرع الى غرفة المائدة وأخذه وأضافه الى ألوف التقارير التى ذكرناها فى خزائن الدهليز .. وكأنه تعب من شدة القلق ، فتوسد مقعدا من المقاعد التى ينام عليها واستغرق فى الأفكار ، ثم جعل يناجى نفسه قائلا:

« تبا لكم من خونة .. لا تخدمون عبد الحميد الا بالمال .. حتى السر خفية فانه لا يخلص لى ، وانما هو يخدعنى رغبة فى المـال .. وأنا أخادعه وأغريه بالآخرين ليطلعنى على أسرارهم وأغريهم به ليطلعونى على سره . لا أخاف غدر هؤلاء وهم بالقرب منى لأنى أملأ قلوبهم بالوعود ، وجيوبهم بالأموال ، وأجعل بعضهم جواسيس على البعض الآخر ، وأقيم السرارى عيونا عليهم أجمعين . ان عبد الحميد أدهى منكم جميعا ــ فمن شككت فيه قتلته سرا أو جهرا ــ وانما أخاف البعيدين عنى الذين لا سبيل

الى التجسس على أعمالهم .. ولكننى قاهرهم .. وهذا الملك لايخرج من يدى ولن يخرج الا الى بعض أبنائى .. أنا السلطان عبد الحميد .. أنا وحدى الآمر الناهى ..أنا وحدى مالك الرقاب»

وسكت برهة تشاغل فيها بحركة رقاص الساعة يمنة ويسرة ، وهو ينظر اليه ويراجع فى ذاكرته ما دار بينه وبين السر خفية . حتى اذا وصل الى ما دار بينهما بشأن العرب عاد الى مناجاة نفسه قائلا : « ان السر خفية قلل من أهمية العرب فى نظرى ، وظن أننى صدقته .. ولكننى خدعته بسكوتى لئلا أريه مقدار خوفى من أبناء العرب . هل أنسى ما رمانى به غانم ،والكواكبى، وارسلان وغيرهم ، وما أنشأوه من الصحف فى مصر وباريس وجنيف .. آه منهم ، اننى أخشاهم لأنهم أكثر عددا فى مملكتى من سائر العناصر ، وفيهم كتاب فى أكثر اللغات الافرنجية وهم يكتبون فى جرائد أوربا ويحتمون بدول أوربا ولا يسهل علينا اسكاتهم .. هذا شأن المسيحيين منهم ، انهم لا يقلون أهمية فى نظرى عن الأرمن الملاعين ، على ان هؤلاء قد سحقتهم وقتلتهم وسبيلى اليهم سهل . وأما العرب فالمسيحيون منهم تحميهم الدول . أما المسلمون فانهم أصل الاسلام ومادته ولا يزالون حتى الساعة ينكرون علينا حق الخلافة لأننا لسنا عرب .. فكيف لا نخشى بأسهم ؟ .. ولكن هؤلاء المتملقين يقولون ويموهون فأموه عليهم وأظهر أنى صدقتهم .. ولولا ذلك ما كان أغنانى عن تقريب عزت وأبى الهدى ، وغيرهما من المشايخ الذين

يتوهمون انهم يخدعوننى وما يخدعون الا أنفسهم »

وتنحنح ومد يده الى علبة السجائر وأشعل سيجارا ، وعاد الى المناجاة قائلا : « هم يحسبون انهم يحتالون فى التقرب منى ليكتسبوا المال والجاه ، وأنا لا غنى لى عنهم لتوازن الأحزاب والعناصر .. ولكننى مع ذلك أخشاهم ولا أثق بهم .. »

ثم خطر له أن يطلب النوم فى سريره ، فنهض ومشى نحو غرفة النوم ، فمر بالحجرة التى تؤدى الى دار الحريم من باب كله مرآة ، وهمّ بفتحه فوقع نظره على صورته فيه ، فوقف يتأمل منظره ويصلح من شأنه .. وكان شديد الرغبة فى مظاهر الشباب، يستخدم فى ذلك الخضاب والتزجيج والتخطيط . وكان لرغبته فى الحياة ينكر على نفسه الاقتراب من الشيخوخة ، ويلتمس لكل تجعيدة فى وجهه عذرا ولا يعترف أنه صار شيخا ..

وبينما هو ينظر فى المرآة تحوّل نظره الى صورة زيتية معلقة بجانب ذلك الباب ، تمثل قاربا عند الشاطىء ، وقد وقف فيه نحو عشرة رجال يرتدون ملابس سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون . وفى يدى كل منهم آلة موسيقية من الناى أو العود أو المزمار يضربون ويعزفون ، وهم فى حالة عربدة ، أو حمورين .. وبين أيديهم على الشاطىء نحو عشر نساء عاريات يرقصن أو يتخالعن مما يخل بالأدب

وهى لوحة أهداها الى عبد الحميد أحد المتملقين ، يمثل فيها مدحت ورجاله الأحرار تمثيلا يحقر دعواهم ، يريد انهم انما

يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويها على العقول ، وهم فى الحقيقة يريدون الخروج عن الآداب الدينية والاقتداء بالنصارى فى خلاعتهم وفجورهم ...

فلما وقع نظره على تلك الصورة صرّ على أسنانه ، وهز رأسه ، وتضاحك مستهزئا .. وقال كأنه يخاطب مدحت: مدحت.. تطلب الدستور .. ما هو الدستور .. أردت أن تقيد ارادتى ليسمع فى الدولة صوت غير صوتى .. لا .. لا ينبغى أن يسمع غير هذا الصوت . هكذا كان عمى وأبى وهكذا ينبغى أن أكون أنا .. غرّك ما تمكنت منه أنت وأعوانك حتى خلعتهم عمّى رغبة فى الدستور .. الدستور .. ما الدستور .. أنا الدستور وارادتى هى الشريعة وقد نلت جزاء غرورك . مت واشبع موتا .. آه لو أستطيع أن أميتك ثانية . وهكذا سأفعل بمن يقولون قولك ويسعون سعيك .. سأسحقهم سحقا وأقتلهم قتلا »

قال ذلك ودخل دار الحريم يطلب النوم للراحة ، وهو ينتفض من الغيظ ، وقد توسط النهار ولم يهمه الطعام لفرط ما حل به من هياج العواطف المتضاربة بين الغضب والخوف والرجاء واليأس والانتقام

— ٢٩ —

تام البادشاه

وما أن دخل تلك الدار حتى سكن ما كان فيها من حركة

الجوارى والخصيان . وما لبث أن قيل : « جاء البادشاه » حتى أستولى الصمت على الناطقين والجمود على المتحركين لاسيما وأنه قلمّا يدخل تلك الدار فى مثل تلك الساعة لأنها ساعة قراءة التقارير فى المابين الصغير بالغرفة التى تقدم ذكرها

وأول من خف لاستقباله نادر أغا ، فوقف له باحترام وألقى السلام بالتمنى اللازم .. واستشف الاضطراب والغضب فى عينى السلطان ، ولم يكن يفوته شىء من أحواله لما علمت من تقربه ودخوله فى كل أمر بسبب ماكان له من منزلة فى نفس عبد الحميد ولعله أكثر ثقة فيه من سائر المحيطين به فى المابين وغيره

ووقف نادر أغا ينتظر اشارة البادشاه الى ما يطلبه أو يختاره من غرف الجوارى ، فاذا هو قد سار توا الى غرفة النوم فأسرع نادر أغا لخدمته فيما قد يحتاج اليه هناك

فأومأ اليه أن يتركه وحده فانصرف ، وقد أدرك مقدار ما فى نفس عبد الحميد من القلق

توسد عبد الحميد سريره فى غرفة أقفل بابها من الداخل بيده، وأخرج المسدس من جيبه ووضعه تحت الوسادة كأنه فى الصحراء على موعد من هجوم أهل البادية عليه .. ورغم مايظهره من الثقة بأعوانه ورجاله فانه يخشاهم جميعا ، وقد تمكن فى خاطره ان الانسان خلق شريرا ، وان أول أغراضه فى هذه الحياة أن يغتال اخوانه ويسلبهم مالهم بأية وسيلة كانت

وقد نشأ عبد الحميد من صغره حذرا سىء الظن ، ولما تولى

السلطنة توالت عليه المخاوف ، وخاصة لما شاهده بعينيه من خلع عمه ، ثم موته ومقتل عونى بجرأة حسن الشركسى ، ثم خلع أخيه مراد . فرأى حياة السلطان ليست أكثر صيانة من حياة العامة ، بل انها أكثر تعرضا للخطر منها. فزاد تعلقا بالبقاء واشتد خوفه على نفسه من المحيطين به حتى بلغ درجةالهوس والجنون.. فأصبح لا يسمع حديثا أو يرى مشهدا أو يقول قولا ، أو يعمل عملا الا وهو ينظر من وراء ذلك الى علاقته ببقائه . واضطر للمحافظة على نفوذه واستبداده فى أول سلطنته أن يسيء الى بعض الأحرار بالابعاد أو القتل بدسائس أشرك فيها بعض خاصته ، فأصبح يخشى نقمة أهل القتلى ويخشى دسائس أولئك الخاصة ..

أو لعله يقيس شعور الناس على شعوره ، فيتصور انه لو توسم نفعا بقتل أحد أصدقائه أو محبيه لايرى بأسا من قتله ، فأصبح يخشى أن يستولى أعداؤه الكثيرون على قلب أحد خاصته فيغريه بالمال أو غيره ليقتله . ولذلك فهو لايثق بأحد أو يستسلم له ، كما يستسلم الصديق لصديقه أو الابن لأبيه .. كما يفعل أكثر الناس ، لأنه يرى فى كل شيء عدوا له ..

ولم يلق رأسه على الوسادة حتى تصور ما مر به فى ذلك اليوم من الأحداث .. وأخذ يفكر فيما عساه أن يطرأ فى الغد بشأن تلك الجمعية ويقدر الوجوه التى يمكن أن تقع ، ويدبر حيلة يتلافاها بها . ومع كثرة هواجسه غلب عليه النوم لفرط

التعب ، فنام وأهل القصر جميعا كأنهم فى سبات .. حتى لا يشوشوا عليه نومه ، فيغضب .. والعياذ بالله من غضبه

نام والغرفة مغلقة ، ونادر أغا جالس ببابها ينتظر ساعة اليقظة ليقوم بالخدمة اللازمة ، ولكن يعلم أهل القصر بوجود البادشاه هناك فلا يخطرون ولا يتكلمون .. وفى الساعة الرابعة(بعدالظهر) سمع نادر أغا نحنحة وحركة ، فعلم ان السلطان استيقظ ، فوقف وما لبث أن فتح الباب وأطل عبد الحميد فأشار الى نادر أغا أن يدخل فدخل فقال له : « سمعت مشيا فى هذا الدهليز .. »

فاستغرب نادر أغا قوله ، وأكد له انه لم يمر أحد .. ولم يكن عبد الحميد سمع شيئا ، لكنه قال ذلك من سوء ظنه على سبيل الاستطلاع..ثم أشار اليه أن يأمر رئيس الاسطبل باعداد الفرس الأبيض لأنه عازم على الركوب للتجول فى الحديقة ، فأسرع نادر أغا وبلغ الأمر لتخلو الطرق من المارة . وبعد قليل نزل السلطان حتى ركب الفرس وسار بين يديه اثنان من ياورانه ، وهما مفوضان أن يقتلا كل من يجدانه فى الطريق

طاف الحديقة الصغرى والكبرى على هذه الصورة ، وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، فلاح له أن يلهو بزيارةالمعامل.. ومنها بين تلك القصور معمل للترميم يسمونه تعمير خانه ، وآخر لصنع البروسلين ، وترسانة لصنع الأسلحة من كل نوع حتى المدافع والبنادق . وزار أيضا ما هناك من المتاحف الصناعية والملاعب المختلفة ، ثم تحوّل الى الاسطبلات لمشاهدة مناظر

الأفراس على اختلاف أشكالها ، حتى انتهى الى أبراج الحمام فى الحديقة الصغرى التى تقدم ذكرها

وكان ينزل عند كل معمل أو متحف أو اسـطبل ، ويلهو بحركات الصناع وغيرهم .. وهم يبذلون جهـدهم فى عرض ما تفننوا فيه من ضروب الصناعة ، وهو يظهـر انه يهتم بكل ما يقولونه ، ولكنه فى الحقيقة مشتغل بهواجسه

— ٣٠ —

كاغدخانه أمامى

فلما وصل الى الحديقة الصغرى ، دخل ذلك الكشك..فتذكر ما كان من حاله فيه فى صباح ذلك اليوم . ووقع نظره وهو داخل هناك على شىء نبّهه الى المضحك (المهرّج) ، وهم يسمونه فى اصطلاحهم « كاغدخانه امامى » فأشار الى نادر أغا أن يأتيه به

وبعد قليل جاء المضحك واسمه على أفندى ، وهو كهل منظره يضحك الثكلى ، وكان قصـير القـامة ، كبير الرأس ، عظيم الأنف ، وقد لفّ حول رأسه عمامة كبيرة ، وليس جبة طويلة تزيد منظره غرابة . جاء وهو يستعيذ بالله من تلك الدعوة لأن السلطان كان يبالغ فى تعذيبه التماسا للضحك . فحالما أقبل على السلطان وقف مطرقا بعد أن قبل الأرض ، فأشار السلطان الى نادر أغا اشارة فهمها ، فأمر أحـد الوقوف من الخدم أن يطلوا

وجه المضحك بالســواد ، ففعلوا وهو يبدى اشـارات الرضا والاعجاب .. وهل يستطيع غير ذلك ؟.. »

فلما تم الطلاء ، وقف على أفنــدى وألقى التحية .. فضحك السلطان من منظره ، وأشار الى نادر أغا اشارة أخرى فقبض على ذلك المسكين وحمله بين يديه وألقاه فى البحيرة ، فكان لوقوعه فيها طشيش قهقه له السلطان ، ولكن الناظر فى ملامح وجهه يعلم انه يتكلف ذلك عنوة . فجعل على أفندى يخوض الماء وقد وقعت عمامته من على رأسه وعامت جبته على سطح الماء ، وهو يصيح ويستغيث ، والسلطان يضحك . ثم أمر باخراجه فأخرجوه والماء يقطر من أردانه وقد أعدوا له ثيابا أخرى فى مكان آخر ، فمضى فبدل ثيابه وعاد وهو يتظاهر بالسرور والمجون ويده على أنفه يضربه ضربا متواليا

فأغرب الســلطان فى الضحك وابتدره قائلا : « ما الذى أصابك ؟.. ولماذا تضرب أنفك ؟.. »

فقال المضحك : « اضربه لأنه أصل هذا البلاء على .. أنا أعلم أن شكل هذا الأنف هو السبب فيما أقاسيه من العذاب..»

فأدرك السلطان انه يعنى الاشــارة الى الأرمن ، وهم كبار الأنوف وقد اشتهروا بعداوة السلطان ، ولكنه تجاهل وقال : « هل نقطع لك هذا الأنف ؟.. »

فابتسم المضحك وقال : « اذا كان البادشاه يريد أن يزيدنى جمالا فليفعل »

فضحك السلطان ، وقال : « نادر أغا اقطع أنفه .. »

فأظهر نادر أغا انه يهم بذلك ، فصاح المضحك : « أمان أفندم .. أمان !.. »

فأشار بالعفو عنه وهو يضحك ، وقال : « قد عفونا الآن عن أنفك .. وأما بعد الآن فلا نعفو »

فقال المضحك : « الأمر لولى النعم .. اذا أراد أن يقطعنى اربا اربا فهو صاحب الأمر .. ولكن لا يخلو كبر الأنف من فضيلة ، فان بين أصحابه من يتفانى فى رضى جلالة البادشاه ، وفيهم من يعشقه ويتمنى الموت تحت قدميه »

فتبدلت سحنة السلطان من المجون الى الجد ، وأومأ الى الحاضرين أن ينصرفوا ، الا الكاغدخانه امامى ، فذهبوا جميعا وبقى المضحك .. وهو يحسب لتلك الخلوة ألف حساب

فلما انفرد السلطان به ، أومأ اليه أن يجلس بين يديه ، فجلس على العتبة جثوا ، وأطرق ولبث ينتظر ماذا يكون . فالتفت السلطان يمنة ويسرة ، ولما تأكد من خلو الحديقة من الناس قال : « كاغدخانه امامى ؟ »

قال المضحك : « حاضر أفندم .. »

قال السلطان : « انزع عنك المجون وخاطبنى .. »

فأظهر المضحك الجد والاحترام وقال : « انى عبد مولاى البادشاه وطوع ارادته »

قال السلطان : « أنت تعلم منزلتك عندى »

قال المضحك : « ياسيدى .. ان نعم أمير المؤمنين قد غمرتنى وأنا أخلص عبيده له .. »

قال السلطان : « أحسنت .. هذا عهدى بك .. ولا شك انك تعرف مدى اعتمادى عليك .. »

فقبل المضحك الأرض وقال : « نعم أفندم .. وهذا شرف لى .. »

قال السلطان : « هل عندك شيء جديد ترفعه الى .؟.. يظن نادر وغيره من كبار الخصيان وسائر أهــل القصر انى اقتنيتك لهذه الملاهى .. ومن أجلها أدخلتك قصرى وجعلتك نديمى .. » وسكت ينتظر ما يقوله المضحك

فسرى عن على أفندى فقال : « أنا أفتخر بهذه الثقة وأؤكد لمولاى البادشاه انى ساهر على راحته ، واقف بالمرصاد لكل من يتحرف عن واجب الطاعة .. لأن الناس أشرار لايعرفون حقوق النعمة .. »

قال السلطان : « كيف تجد نادر أغا ؟ »

فطأطأ المضحك رأسه وقال : « انه نعم العبد الأمين »

قال السلطان : « وغيره ؟ »

قال المضحك : « لم ألاحظ شيئا جديدا هذه الأيام .. »

قال السلطان : « افصح .. لا أظنك قد فهمت مرادى .. »

قال المضحك : « يامولاى ان نادر أغا ساهر على خدمة هذه القصور ومن فيها .. »

قال السلطان : « والقادين ج ؟ »

فأظهر على افندى الاهتمام والاحترام وقال : « من أين لى أن أراها ؟ »

قال السلطان : « لا تخف .. قل الحقيقة انك تراها ، وأنا أذنت لنادر أغا أن يمتع القوادين بمجونك ، وكان ينبغى أن تعرف غرضى من ذلك .. »

فأجفل المضحك من هذا التهديد وقال : « نعم ياسيدى .. أنا فهمت الغرض ، لكن هيبة البادشاه أمير المؤمنين بعثتنى على الكتمان .. »

فضحك عبد الحميد ضحكة مصطنعة وقال : « لابأس .. ماذا تعرف عن القادين ج ؟ .. قل لا تخف .. »

قال المضحك : « انها ياسيدى فى حالة يرثى لها .. لا تكف عن البكاء » ..

فاستغرب السلطان قوله وقال : « انى لم أرها تبكى قط »

فقال المضحك : « لاتبكى فى حضرة أمير المؤمنين لأن رؤيته تذهب كل حزن .. مسكينة .. »

فقطب السلطان حاجبيه وقال : « وتقول مسكينة ؟ »

قال المضحك : « اذا سمح لى مولاى أن أقول ما أعرفه وأمنني .. قلت »

قال السلطان : « قل .. لا بأس عليك .. »

قال المضحك : « ان هذه القادين سيئة الحظ »

فتطاول عبد الحميد بعنقه وحملق بعينيه وقال : « تكون فى قصرى وتعد من نسائى وتزعم أنها سيئة الحظ .. ؟ »

قال المضحك : « ألتمس حلم جلالة السلطان .. ان سوء حظها مبنى على وجودها فى هذا القصر .. »

قال السلطان : « وكيف ذلك ؟ »

قال المضحك : « لأنها تتفانى فى حب جلالة البادشاه وهو يعاملها بالجفاء »

فأطرق السلطان لحظة تشاغل فيها باصلاح لحيته ، وعيناه البراقتان يكاد الشرر يتطاير منهما ، ثم نهض فجأةفأجفل المضحك وخشى أن يكون قد أغضب السلطان بما قاله .. ووقف متأدبا وركبتاه تصطكان ، ومشى السلطان نحو قصره ، وذلك المسكين فى حالة يرثى لها .. لكن السلطان بعد أن تجاوزه بضع خطوات ، التفت اليه وابتسم تخفيفا لما حل به من الرعب فخف اضطرابه

- ٣١ -

والدة سلطانة

دخل عبد الحميد الى المابين الصغير من بابه السرى ، وهو يتعثر بذيل جبته .. وأزاح طربوشه عن جبهته ، كأنه يلتمس تفريج كربته من قمة رأسه . فلما صار فى غرفة المكتب تنفس الصعداء واستلقى على الكرسى ، وهو مستغرق فى الأفكار ،

وتناول سيجاراً أشعله ، وجعل يدخن بعنف .. ويتنقل بنظره على ما فى الغرفة من الخزائن والكراسى بغير انتباه . ثم أخذ يناجى نفسه قائلا : « أنا أعرف أنها تحبنى وتتفانى فى رضاى .. ولكن كيف أحبها وهى ستكون سبب بلائى .. »

ثم نهض عن الكرسى ومشى نحو منضدة فتح درجها ، وأخرج ورقة من محفظة هناك وأخذ يقرأها ويعيد قراءتها ، ثم عاد الى الكرسى والورقة فى يده وهو يقول : « كيف أحبها وقد ظهر فى هذا المندل انها اذا جاءنى منها غلام سيكون شــؤما علىّ .. لاينبغى أن أقترب منها .. ان الحب شىء ، والملك شىء آخر .. وأخشى مع ذلك أن تكون قد خدعتنى » وأعاد الورقــة الى المحفظة ومشى الى دار الحريم فلقى نادر أغا فقــال له : « أين والدة سلطانه ؟ »

قال نادر أغا : « هى فى غرفتها يامولاى »

فمشى السلطان وهو يقول : « أحب أن أراها .. »

فأسرع نادر أغا حتى أبلغها رغبة السلطان فىمقابلتها ، فتأهبت لاستقباله ، لكنها ابتدرت نادر أغا بالسؤال قائلة : « ماهو لون ثوبه اليوم لأرتدى مثله ؟ » لأن العادة الجارية فى آداب بلاط السلطان عبد الحميد أن يرتدى نساؤه عند مقابلته ثوبا لونه من لون ثوبه ..

فقــال نادر أغا : « انه يرتدى ثوبه الأسود الرسمى ، ولا حاجة الى لون معين ، ولم تكن هى والدة السلطان حقيقة ، لكنها

تقوم مقامها فى ادارة دور الحريم ، وكانت من قبل خازندار أوسته ، أى خازنة دور القوادين . فلما ماتت والدة السلطان تولت تلك الادارة ، واليها يرجع تدبير نساء السلطان وسراريه . وكانت كبيرة السن ، ولكن الجمال ما يزال يتجلى على وجهها وفيها ذكاء ونباهة . فلما علمت بمجىء السلطان خفت لاستقباله ورحبت به وعليها ثوب يجللها ، وفى يديها الأساور وعلى صدرها الحلى الثمينة .. ولاحظت على وجه السلطان القلق ، ولكنها تعرف منزلتها عنده فابتسمت له وقالت : « هل من أمر أقضيه لجلالة البادشاه ؟ »

فجلس على المقعد وأشار اليها أن تجلس وقال : « جئتك بأمر يهمنى .. »

فقالت المرأة : « روحى فداء مولاى .. »

قال السلطان : « كيف حال القادين ج ؟ » ..

فتغير وجه المرأة عند سماع ذلك الاسم ، وقالت والبغتة ظاهرة فى عينيها : « انها بخير .. »

قال السلطان : « لا أسألك عن صحتها .. ولكن هل قامت حاضنتها بما عليها ؟ »

فأدركت غرضه وتلعثم لسانها عن الجواب ، لكنها غالبت نفسها وقالت : « انها لا تغفل عن رعايتها »

قال السلطان : « بل أسألك عن شىء آخر .. هل خبرت أمرها من عهد قريب ؟ »

فلم يعـد فى امكانها الصبر على التجاهل فقالت : « أخبرتنى الحاضنة انها ربما تكون حاملا .. »

فأجفل السلطان ونهض ، ولم يتمالك أن صاح : «حامل؟..»

فنهضت المرأة احتراما له وقالت : « هكذا أظن .. » ..

قال السلطان : « ليست الحالة بالظن .. كيف تغفل الحاضنة عن واجباتها ، انها اذا كانت كما تقولين فالذنب يقع على تلك الحاضـنة الملعونة .. أليس من واجباتها أن تمنع الحمـل وقد خولتها أن تمنعه بأية طريقة كانت ؟ »

فتحيرت والدة سلطانة فى أمرها ، وأرادت أن تخفف من غضب السلطان ، فقالت : « لمـاذا يغضب مولاى من حملها ؟.. أليست هى من نسائه وقد شاء الحظ أن تصير قادينا ؟ »

فأمسك السلطان غيظه وتجلد وعاد الى الجلوس ، وأشار الى والدة سلطانة أن تجلس وقال : « قد جعلتها قادينا مكافأة على خدمة قامت بها .. » وتمالك وتجلد وقال بصـوت منخفض : «نعم.. ان القاعدة كما تعلمين ان الجارية بعد أن تكون «كوزده» عند دخولها قصرنا ترتقى الى رتبة « اقبال » فاذا حملت منـا صارت قادينا ، ولكن ج ، هـذه .. جعلتها فى هذه الرتبة لأنها تجسست لى أخبار أحد الخونة فى حوادث الأرمن ، وكنت فى ريب من أمره .. فأنفذتها اليه فى جملة الجوارى اللواتى أهديتهن الى الباشوات يومئذ ، ليكن لى عيونا عليهم ، وقد كشفوا لى خيانات كثيرة .. ولكن ج . هـذه كلفتها مهمة فوق العادة ،

فعرضت نفسها للخطر على وعد منى انها اذا أفلحت جعلتها قادينا ، وان لم تلد منى ، وقد أفلحت فأنجزت وعدى .. »

فلما رأته يخاطبها بهدوء تجاسرت على مباحثته فى الموضوع ، فقالت : « فاذا كنت قد أنعمت عليها بهذه الرتبة ، فما المانع من حملها ؟ »

قال السلطان : « وما الفائدة اذن من كثرة الحواضن اللواتى يتولين اتخاذ الوسائل لمنع الحمل ؟.. وقد أوصيتك على الخصوص بهذه .. »

فتذكرت والدة سلطانة أنه كان قد خص ج بالوصاية ، وهى أوصت الحاضنة بما يلزم ، لكنها أخفقت .. فقالت : « ولكن لا تفلح الوسائل دائما .. ان فى عصمة أمير المؤمنين الآن أربع قوادين هن نساؤه الشرعيات و ١٢ قادينا مثل ج ، وأكثرهن يحملن ، فلا بأس اذا حملت هذه أيضا .. »

فقال السلطان : « لا .. هذه لاينبغى أن تلد ، فاذا كنت تأكدت من حملها فيجب أن تموت .. »

وكانت والدة سلطانة تحب القادين المذكورة لجمالها وذكائها، ولأنها تحب السلطان الى حد الكلف .. وذلك نادر فى قصور الملوك ، فأسفت لتشديد عبد الحميد فى أمرها ، فأخذت تخفف الأمر عليه فقالت : « فى قصر مولاى السلطان ثلثمائة جارية .. هب ان واحدة منهن حملت ، فماذا كنا نفعل ؟ »

- ٣٢ -

التمثيل

فنهض ولم يعد يتمالك نفسه عن الغضب وقال : « لاتجادليني ان هذه المرأة اما أن يذهب حملها أو تموت ، وقد قلت لك ذلك وكفى .. » قال هذا وتحول نحو المابين الصغير ، وقد أزفت الساعة السادسة وآن وقت العشاء ، ولم يكن قد تناول الغداء فوجد المائدة مهيأة

وعشاؤه بسيط .. ولكن فى اعداد طعامه ، على بساطته ، مشقة كبرى لشدة خوفه على حياته وسوء ظنه بمن حوله . ومن الاحتياطات التى اتخذها لوقاية نفسه انه أبعد الطاهى الذى يصنع له الطعام عن كل علاقة بأهل الدولة .. وأمره أن يقيم فى حجرة منعزلة بابها من الحديد على يسار باب القصر المسمى باب السلطنة ، «سلطنة قبوسى» فيضع الطعام تحت مراقبة الكلارجى باشى ، وكان للسلطان عبد الحميد ثقة شديدة فيه . فمتى نضج الطعام حمله الى غرفة المائدة اثنان من الخدم يلبسون ملابس سوداء على مائدة أشبه بصندوق مقفل ، طوله ٨٠ سنتيمترا ، عليه كساء من السجاد برسم السلطان ، يمشى وراءهما خادم يحمل طبقا مغطى بكساء أسود ، وقد ثبتت أطرافه وختم عليه الكلارجى باشى . ويأتى بعد ذلك خادم يحمل وعاء الخبز ، ثم

خامس يحمل زجاجة الماء مختومة أيضا . يسير هذا « الوفد » من المطبخ الى غرفة المائدة باحترام ، فاذا لقيهم أحد فى أثناء الطريق انحنى احتراما لصاحب الطعام ، حتى اذا بلغوا المائدة ، أدخل الكلارجى باشى الطعام ونزع عنه الأختام بين يدى السلطان ، وقدم له الأطباق وعليها الألوان فيتناول ما شاء

فلما وصل السلطان عبد الحميد الى غرفة المائدة وجد الطعام قد وصل بأطباقه المختومة ، كما تقدم .. فنزعها وتناول طعامه وحده على جارى العادة ، وهو غارق فى بحار الهواجس ، وكان القصر قد أضىء كله كالعادة ، فانتقل الى غرفة المطالعة وأخذ فى مطالعة التقارير وهى كثيرة ، لكنه أصبح بعد أمر سلانيك وجمعيتها لايهمه غير الوقوف على خبرها . فترك التقارير ولم يشعر بالنوم لأنه نام فى أثناء النهار ، فأراد أن يلهو بحضور التمثيل فى مسرحه الخاص

وكان له فى يلدز مسرح للتمثيل ، وعرض الصور المتحركة ، وسماع الفونوغراف بما يشغل به الوقت .. لا يحضره الا خاصته . فبعث الى الفرقة انه عازم على الحضور الى المسرح تلك الليلة ، فاستعدوا للتمثيل وأشار بمن ينبغى أن يحضره من خاصته ، وفى جملتهم كبار رجال المابين . ولما ظهر السلطان فى مقصورته «لوج» وقف له الحاضرون وقوف الاحترام وصاحوا: « بادشاهمز جوق يشا ؟ وعزفت الموسيقى السلام الخاص ، ثم بدأ التمثيل ، واتفق أن الرواية التى مثلت تلك الليلة كانت قصة

امرأة خانت زوجها ، وحرضت ابنها على قتله ، فهاجت هواجس السلطان عبد الحميد ، وتذكر حاله مع القادين ج . وتشاءم من تمثيلها ، واتخذه دليلا على صدق خوفه ، وبعث الى مدير الفرقة يعاتبه لأنه لم يسأله عن الرواية التى يرغب مشاهدتها ، وأمره أن يمثل رواية أخرى بطلها ملك يفوز على أعدائه ، كثيرا ما كان يحضرها ويرتاح لمشاهدتها . ولو لم يكن مدير هذه الفرقة أجنبيا لأمر بقتله ، ولكنه كان يخشى قتل الأجانب

وكان الحاضرون مشتغلين بأحاديثهم ، والسلطان عبد الحميد غارق فى هواجسه ، ولاحت منه التفاتة فرأى نادر أغا واقفا فى مكان ما من المسرح .. اعتاد أن يقف فيه اذا أراد مخاطبة السلطان فى أمر .. فأومأ اليه فجاءه بخفة حتى دخل مقصورته ، فأمره أن يجلس وسأله عن غرضه ، فقال : « انى ألتمس راحة بال مولاى وقلت فى نفسى لعله يحتاج الى فى شىء أقوم به .. »

قال السلطان : « قد أصبت .. انى فى حاجة اليك .. هل لقيت والدة سلطانة ؟ .. »

قال نادر أغا : « نعم يا مولاى .. وقصّت علىّ ما كان من غضب الذات الشاهانية .. »

قال السلطان : « هل رأيت مافعلته تلك الحاضنة ؟.. انها لم تفعله عن اهمال كما توهمت والدة سلطانة ، لكنها تعمدته بالرشوة .. أغراها على ذلك أعدائى قبحهم الله .. » قال ذلك وصر على أسنانه وهز رأسه

فقال نادر أغا : « لم أفهم سبب غضب سيدى من حمل هذه القادين . فهب انها احدى الجوارى الكثيرات فى يلدز .. و .. »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « لا ألومك على استغرابك غضبى . ولذلك فأنا أقص عليك السبب تدليلا على ثقتى بك واعتمادى عليك .. »

فأومأ نادر أغا شاكرا للسلطان تلك النعمة ، فأشار السلطان أن يرخى ستارة المقصورة حتى يختفيا عن أعين الجالسين ففعل ، ثم قال السلطان : « هلم بنا الى المابين .. » ونهض فأسرع نادر أغا بين يديه من باب سرى يؤدى الى المابين ، ولم يشعر بهما أحد من الجالسين ..

مشيا توا الى غرفة المطالعة .. وهى لا تزال مضاءة بالأنوار ، فجلس السلطان وأشار الى نادر أغا أن يجلس فجلس

فتناول السلطان سيجارا أشعله ونفخ دخانه من فمه مع زفرة طويلة ، وكرر ذلك مرتين ، فامتلأت الغرفة بالدخان ، وهو مطرق ونادر أغا بين يديه جامد كالصنم .. ثم رفع السلطان بصره الى نادر أغا وقال : « هل تعرف القادين ج من يوم مجيئها الى قصرنا ؟ » ..

قال نادر أغا : « لم أكن أعرف عنها شيئا كثيرا ، ولكنى كنت أسمع قزلر اغاسى « قيم الجوارى » يثنى على ذكائها وجمالها »

قال السلطان : « هل تعرف أنها أرمنية الأصل ؟ .. »

قال نادر أغا : « يظهر ذلك من شكل أنفها وملامح وجهها ،

وأظن أن هذا هو السبب فى غضب مولاى البادشاه منها ؟ »
قال السلطان : « لا .. لا .. ليس السبب فى ذلك كونها أرمنية ولا لمجرد كرهى هـذه الطائفة بعد ما كان من تمردهم ودسائسهم ، ولكن .. » وعاد الى التدخين ونفض رماد السيجار فى منفضة بين يديه ، وهو مطرق كأنه يتردد فى هل يطلع نادر أغا على ذلك السر الذى لم يطلع عليه أحد بعد ؟.. ونادر أغا جالس متأدبا لايبدى حراكا لئلا يشوش على السلطان تفكيره

- ٣٣ -
كشف السر

ونهض السلطان عبد الحميد عن الكرسى الطويل الذى كان جالسا عليه الى المكتبة ، وفتح الدرج وأخرج منه تلك الورقة من محفظتها ، وقبض عليها بكفه وعاد الى مقعده والسيجار فى فمه وقال : « اسمع يا نادر أغا .. يقولون ان والدتى أرمنية الأصل ؟.. »
قال نادر أغا : « نعم يا سيدى .. هكذا يقولون »
فقال السلطان : « فكان ينبغى أن أحب الأرمن من أجلها ..»
قال نادر أغا : « نعم أفندم .. »
فأخرج السلطان السيجار من فمه وتنهد وقال : « ولكننى أكرههم لأنهم ألد أعدائى .. »

قال نادر أغا : « انهم يستحقون الغضب بسبب عقوقهم وتمردهم » ..

فقاطعه السلطان قائلا : « انى أكرههم وأخشاهم منذ صغرى هل تعلم لماذا ؟.. »

فتطاول نادر أغا بعنقه ، ولم يجب اكتفاء بالاصغاء .. فقال السلطان : « كرهتهم منذ صباى لأن المنجم الذى تنبأ لى منذ ذلك العهد أن العرش سيفضى الى .. هل تعرفه ؟ »

فبغت نادر أغا لأنه لم يكن يتوقع سؤالا ، فقال : « خير أفندم .. »

فقال السلطان : « كنت منذ صباى أحضر مجلس التنجيم والمندل بين يدى والدة سلطانة ــ وهى يومئذ والدة عمى السلطان عبد العزيز ــ وكان عندها جماعة من مهرة المنجمين نبوءاتهم صادقة . ثم عرفت منجما اسمه الشيخ عبد الرحمن من أهل صيدا جاءنى به نجيب باشا ، أحد رجال الدولة ، عند رجوعه من منفاه فى قبرص ، وأثنى على مهارته فى استطلاع الغيب .. فطلبت اليه أن يكشف لى عن مستقبلى ، فقال : انى سأتولى العرش قريبا وأبقى عليه مدة طويلة ، فاعترضت بوجود عمى عبد العزيز على قيد الحياة ، ثم أخى مراد .. فأكد لى ان طالعى يدل يقينا على ما قاله .. لكنه أسر الى انه يرى ظلا أسود يحوم حول سعدى ، وانه اذا كان على خوف فيكون من عشيرة أمى وهو يعتقد أنها أرمنية . فلم تمض مدة طويلة حتى صدق قولى

المنجم وتوليت العرش وكافأت الرجل مكافأة حسنة ، ثم خدمني خدمات جليلة يرجع اليها حفظ السلطنة .. فلما رأيته صدق ببعض المندل خشيت أن يصدق فى الباقى .. ولذلك رأيتنى أطارد الأرمن وأحذرهم .. »

وسكت السلطان ريثما سحب سحبة من السيجار ، وقد ظهر من ملامح عينيه انه لم يتم حديثه بعد ، فظل نادر أغا مصغيا له فعاد السلطان الى الكلام قائلا : « قد علمت سبب نقمتى على الأرمن اجمالا ، ولم تعلم بعد سبب حذرى من هذه المرأة على الخصوص .. فاعلم انى شديد الاعجاب بهذه الجارية منذ عرفتها لذكائها وسداد رأيها ، وكثيرا ما كنت أقضى الساعات فى مجالسها حتى شغلتنى عن سواها لما لها من الاطلاع على الصحف والكتب وهذا ما بعثنى على أن أثق بها حتى كلفتها فى مهمة ذات شأن فى أثناء دسائس الأرمن التى انتهت بذبحهم فى الاستانة منذ عشرة أعوام » ..

واعتدل السلطان فى مقعده وتنحنح ، وقد أبرقت عيناه سرورا بما كان من نجاحه فى تلك المذبحة وقال : « كنت أسمع يومئذ ان بعض رجالى المسلمين ممن قدمتهم ورقيتهم ووليتهم المناصب موالون لأولئك الكفار على ، فلكى أتحقق من ذلك بعثت بعض السرارى المعروفات بالذكاء الى بعضهم على سبيل الهدية . وهم طبعا يفرحون بالهدية السلطانية ولا يجسرون على ردها ، فأطلعنى أولئك الجوارى بعد ذلك على أسرار هامة .. وكانت القادين ج

يومئذ لا تزال من جملة السرارى فكلفتها بكشف أسرار «ع - باشا» لأنى كنت أشك فى تظاهره بالاخلاص .. وحرصا على استرجاعها الى لأنها أرمنية ، وخوفا من أن تنحاز لأبناء جنسها، وعدتها انها اذا قامت بتلك المهمة أجعلها قادينا ، واشترطت عليها شروطا خاصة تجيز رجوعها الى قصرى .. وأنا واثق من صدقها - والحق يقال انها أخلصت الخدمة وعادت بأهم الأخبار عن الأرمن أنفسهم أيضا .. فسميتها قادينا وأمرت لها بدائرة خاصة تقيم فيها ، وعندها الخازنة ، والباشكاتبة ، والمهر دار ، والاسفتجى ، فضلا عن الخدم والجوارى والخصيان مثل سائر القوادين . ولم أميز واحدة منهن عنها فى شيء ، ولكن .. آه » وتنهد

وكان نادر أغا كثير الشفقة على تلك القادين ، يحب أن ينقذها من الخطر اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، فأصغى بكليته الى حديث السلطان فلم يجد فى كل ما سمعه شيئا يوجب غضب السلطان . فلما رآه يتنهد توقع أن يسمع مايكشف له القناع عن السبب الصحيح ..

- ٣٤ -

القتل لمجرد الاتهام

أما السلطان فبعد أن تنهد رمى بقية سيجاره فى المنفضة وقال: « انك لا تجد فى حديثى عن هذه المرأة حتى الساعة ما يوجب

الغضب عليها .. ولا أنا أيضا . ولكننى رأيت فى المنام بعد ذلك رجلا أرمنيا كنت أراه فى مجلس والدى ساكن الجنان ، واسمه مهران بك ، ولم أكن أحبه لأنه كان يفضل اخوتى على . وربما أوعز الى والدى بذلك ، وكنت ألاحظ أن والدى يسايره وينتهرنى .. فنشأت على كره هذا الأرمنى ، وقد مات من زمن طويل ولم يخطر ببالى ذكره الا فى تلك الليلة ، فرأيته فى المنام بهيأته التى أعرفه بها وبيده سيف يشير به اشارة التهديد ، فأجفلت واستيقظت وانتبهت الى الخطر الذى يحدق بى من الأرمن وقلت : « ينبغى أن أحذر منهم » ولم أجد حلا الا بالمندل فأمرت الشيخ .. أن يعمل مندلا على ما فى ضميرى ولم أذكر له شيئا .. فكتب لى نتيجة المندل فى هذه الورقة ، فحفظتها عندى منذ ذلك الحين ، وتيقظت لنفسى وأوصيت الحاضنة أن تتيقظ جيدا للقادين ج . وقد علمت اليوم انها حامل .. » قال ذلك ودفع الورقة الى نادر أغا ليقرأها

ففتحها واقترب من المصباح وقرأ فيها : « لاينبغى للسلطان أن يطمئن من أهل أمه بعد أن طاردهم وذبحهم ، فان ما كتب فى صحائف الدهور كائن .. والخطر سيأتى من طفل أمه أرمنية وأبوه السلطان »

ولما فرغ نادر أغا من تلاوة الورقة ، اقشعر بدنه لأنه يعتقد فى التنجيم مثل سيده .. وأطرق مفكرا ، فابتدره السلطان قائلا : « ألا ترانى معذورا ؟ .. ألا توافق على رأيى ؟.. هل يجوز

الاغضاء عن تلك المرأة اذا صحّ انها حامل ؟ .. قل .. »

فقال نادر أغا : « ان سيدى البادشاه صاحب القول .. لاشك ان بقاءها على هذه الصورة خطر .. ولكن هل ثبت حملها ؟ .. »

قال السلطان : « يكفى الشك للتعجيل بالقتل .. قد نكون مصيبين ، وقد نكون مخطئين .. فاذا صبرنا ووضعت غلاما أصبح التخلص منه شاقا ، وتحوم حولنا الظنون ــ أما الآن فالانسان عرضة للمرض والموت كل ساعة ــ والأطباء يرسلون الانسان الى العالم الآخر بجرعة لايشعر معها بألم ولا عذاب .. فأحب ارسال هذه المخلوقة من هنا ، وأحسب أنها لم تكن فى جملة الجوارى اللواتى ابتعناهن وان كنت آسفا لذلك .. لأن هذه المسكينة كانت تحبنى »

فقال نادر أغا : « لا فضل لها فى حبها ، ومن لايحب مولانا الخليفة ظل الله على الأرض ؟.. ان المحافظة على سلامته فرض لابد منه ولو قتل الألوف فى سبيله .. وأنا أول من يضحى بنفسه فى هذا السبيل .. أطال الله بقاء أمير المؤمنين »

قد نجل ذكاء السلطان عبد الحميد عن أن ينطلى عليه هذا الاطراء أو يؤمن بصدقه ، ولكن الانسان ضعيف .. وهو قد يكون قويا من جميع النواحى الا من جهة غروره بنفسه ، فانه قد يصبح فى غاية الضعف .. يقبل الاطراء ولو كان بعيد التصديق ولا سيما اذا كان لايسمع غيره ، وكل الذين حوله يتسابقون الى استنباط عبارات الاطراء تملقا له وتقربا منه ، فلا يلام اذا صدق

مثل قول نادر أغا .. فلما سمع قوله ، قال له : « فأنا أترك أمر هذه المرأة لك .. »

وكان نادر أغا مخلصـــا لمولاه وان لم يعـرف كيف يؤكد اخلاصه . فلما فوض السلطان اليه هذا الأمر أشار طائعا

ثم تحفز السلطان للنهوض فى طلب النوم ، فنهض نادر آغا وخرج بعد أن قام بواجب الاحترام

أما السلطان عبد الحميد ، فقد هاجت أشجانه فى ذلك المساء على أثر ماتحدث به عن المنجمين والأرمن والقتل ، فزادت مخاوفه وغلب عليه ميله الى التستر والاختفاء . فأظهر أنه ذاهب للنوم فى دار الحريم .. وبعد أن خلا بنفسه ، طلب النوم فى غرفة المائدة على كرسى طويل ، وفوقه ملاءة من الصوف كما فى سائر الغرف لينام السلطان متى شاء ولا يعرف أحد مقره

— ٣٥ —

الأخبار الجديدة

نام السلطان عبد الحميد فى تلك الليلة نوما متقطعا على جارى العادة ، وأفاق فى الصباح وعليه قميص (عنترى) وقفطان طويل، وهرع « بالبنطوفلى » السوداء الى الحمام كجارى العادة ، وقام ببعض الحركات الرياضية .. ولبس ثيابه العادية وانصرف الي غرفة المطالعة ، وكان القهوجى باشى قد وقف، هناك وأعد

الأدوات اللازمة لاعداد القهوة بين يديه
فجلس السلطان عبد الحميد ، وهو ينظر الى القهوجى باشى كيف يعد القهوة .. وتناول سيجارا فأشعله وشرب القهوة بلذة ، وفكره مشتغل فيما عساه أن يأتيه من الأخبار الجديدة فى ذلك اليوم ..

انصرف القهوجى باشى وجاء الخبر أن المائدة معدة للفطور ، فنهض اليها وتناول وجبة خفيفة من البيض واللبن .. وهو يتوقع دخول الحاجب معلنا مجيىء البريد ، أو السر خفية

وما لبث أن سمع جرس الباب الخارجى : فعلم ان الحاجب آت بخبر جديد ، فنهض وهو يمسح فمه ولحيته بالمسحة ليمحو آثار آخر جرعة من فنجان اللبن ، ورمى المسحة .. ومشى نحو غرفة الاستقبال التى يطالع فيها التقارير ، فلقيه الحاجب وألقى التحية المعتادة وقال : « ان الباشكاتب بالباب »

فعلم السلطان عبد الحميد ان الباشكاتب لا يبكر على هذه الصورة من تلقاء نفسه الا لخبر هام ، فخفق قلبه تطلعا الى ماعساه أن يكون ، وأشار الى الحاجب أن يأذن للباشكاتب فى الدخول ..

وبعد برهة دخل الباشكاتب ، وكان السلطان قد جلس الى المنضدة التى يقرأ عليها التقارير ، فحيا وهو يبتسم دلالة على أهمية الأخبار التىجاء بها .. فاستبشرالسلطان ، واذا بالباشكاتب يقدم له ظرفا عرف من شكله انه تلغراف فتناوله بلهفة وفضه

وقرأه ، فظهرت الدهشـــة على وجهه ولم يتمالك عن الضحك ، وفى عينيه ملامح الشـــماتة والاســـتهزاء ، ثم انتبه لوقوف الباشكاتب فأومأ اليه أن يجلس فجلس

فأعاد السلطان عبد الحميد نظره الى التلغراف كأنه يتفهم معناه ثم قال : « عفارم .. عفارم ناظم ؟ » والتفت الى الباشـــكاتب وقال : « متى جاءك هذا التلغراف ؟ »

قال الباشكاتب : « جاء فى هذه الساعة سلطانم .. »

فدفعه السلطان اليه وقال له : « اقرأ .. »

فقرأ ما ترجمته : « قد تمكنا ببركة الذات الشاهانية المقدسة وهمة الخفية صائب بك من القبض على رامز أحد أعضاء الجمعية الجهنمية ومعه أوراق مهمة تكشف عن خيانات كثيرة .. وننتظر الأمر بما يلزم للاجراء والفرمان لصاحب الفرمان .. »

« ناظم »

فقال السلطان : « من هو صائب هذا ؟ »

قال الباشكاتب : « هو من الخفية الذين أرسلهم السر خفية الى سلانيك ، وقد سمعته يثنى على اخلاصه واجتهاده »

فاعتدل السلطان فى مجلسه وقال : « كيف ترى هذا الرجل .. السر خفية .. أريد أن أعرف رأيك فيه لأنى لا أثق بسواك كما تعلم .. »

قال الباشكاتب : « هو من العبيد المخلصين ياسيدى ، ونجاح رسوله فى هذه المرة من أكبر الأدلة على ذلك .. وكيف لا يكون

مخلصا والذات الشاهانية وضعت ثقتها فيه ؟ »

فأظهر السلطان انه اكتفى بهذه الاشارة ، واعتمد على فطنة السامع لفهم ما يقتضيه هذا السؤال من مراقبة حركات السر خفية وقال : « ما هو رأيك ؟.. هل نستقدم هـذا الخائن المقبوض عليه الى هنا ؟ » ..

قال الباشكاتب : « الأمر لأمير المؤمنين .. ولعله اذا جيء به الى هنا نستطلع منه أشياء جديدة .. لله ما أجهل هؤلاء الغلمان »

فصفق السلطان فجاء الحاجب فأمره باستدعاء السر خفية ، وقال للباشكاتب : « قل لناظم أن يبعث بالخائن وأوراقه حالا »

— ٣٦ —

القلق

فنهض الباشكاتب وأشار اشارة الطاعة وخرج ، وعاد السلطان عبد الحميد الى سيجاره فأشعله وهو يعيد نظره الى التلغراف حتى أنبىء بمجيء السر خفية فأمر بدخوله . وكان قد علم السر خفية بمجيء التلغراف فى ذلك الصباح وبفحواه سرا .. كيف لا ، وهو رئيس الجواسيس ؟.. فلما دخل على السلطان حيا تحية الاحترام وأظهر أنه لم يكن يعلم بذلك ، فقرأ أمارات السرور فى عينى السلطان عبد الحميد فشاركه بمثلها ، فمد السلطان يده ودفع التلغراف اليه وهو يأمره بالجلوس ، فجلس .. وتناول

التلغراف وهو يقول : « اذا كان هذا التلغراف من سلانيك ففيه خبر القبض على أحد الخونة »

فأظهر السلطان الاعجـاب بتيقظـه وقال : « نعم .. انه من سلانيك وقد قام بهذه المهمة أحد رجالك مع ناظم بك .. »

فتناول السر خفية التلغراف وقرأه وقال : « نعم ياسيدى .. ان صائب بك من العبيد المخلصين » وجلس ..

فقال السلطان : « ان الاخلاص منك .. وقد توسمت فيـك صدق المودة منذ عرفتك ، ولولا ذلك لم أضع ثقتى فيك وأجعلك عينى المبصرة .. انك معتمدى الوحيد فى مراقبة الخونة المارقين، وهم كثيرون حتى فى هذا القصر . ولذلك فأنا أخاطبك رأسا .. »

وتنحنح وسحب سحبة من السيجار وقال : « أمرنا الباشكاتب أن يستقدم ذلك الخائن وأوراقه .. هل فعلنا حسنا ؟ .. »

فانشرح صدر السر خفية من ذلك الاطراء وخاصة من ذكر المودة وقال : « نعم .. ومتى جاء علمنا منه سر تلك الجمعيـة وعملنا على تفريقها »

فقال السلطان : « عفارم .. نعم .. قد آن الاقتصـاص من سلانيك وأهلها وكل آت قريب .. » قال ذلك بلهجة التهديد .. ونهض فنهض السر خفية واستأذن فى الانصراف

فلما خلا السلطان بنفسه مشى الى غرفة النجارة ، وأخذ يتلهى بصنع برواز من الأبنوس كان قد بدأ بصنعه منذ أيام .. وأفكاره تائهة فيما سيكون من أمر رامز متى جاء ، وكيف يحتال فى كشف

سر الجمعية .. فطرأ على ذهنه رأى ، فمشى الى موقف التليفون وخاطب الباشكاتب فأجابه . فسأله اذا كان قد أرسل التلغراف الى ناظم بك ..

فقال الباشكاتب : « نعم أرسلته »

قال السلطان : « ماذا قلت .. ؟ » ..

قال الباشكاتب : « قلت له أن يرسل المقبوض عليه وأوراقه فى الحال .. »

قال السلطان : « متى جاء هذا الخائن أرسله الى السر خفية فهمت ؟.. »

قال الباشكاتب : « سمعا وطاعة ياسيدى .. »

وأقفل السلطان الحديث وعاد الى غرفة النجارة . وبعد برهة خطر له رأى جديد ، فعاد الى التليفون وخاطب الباشكاتب ثانية قائلا : « اذا جاء الخائن أرسله الى عزت وأرسل أوراقه الى »

فأجاب الباشكاتب : « سمعا وطاعة ياسيدى .. »

وعاد السلطان الى عمله وقد غلب عليه التردد فى هذا الأمر لشدة القلق ، ولاح له أن يكون هو أول من يرى رامزا ، فعاد إلى التليفون ثالثة وقال للباشكاتب : « أرى الأفضل أن ترسل الرجل وأوراقه الى »

فقال الباشكاتب : « سمعا وطاعة ياسيدى سأفعل » ولم يستغرب الباشكاتب هذا التردد فقد تعوده

أما السلطان ، فبعد أن رجع الى عمله عاد الى التفكير فى الأمر

فرأى أن استقدام الرجل اليه رأسا لايخلو من التسرع ، فعاد الى التليفون وأمر الباشكاتب اذا جاء المقبوض عليه أن يبقيه عنده ويظهر الاستخفاف به ، وانما يرسل أوراقه الى السلطان،فأجاب مطيعا ..

قضى السلطان عبد الحميد بقية ذلك اليوم كأنه على الجمر من شدة قلقه فى انتظار رامز وأوراقه

وفى صباح اليوم التالى لم يعلم السلطان عبد الحميد كيف يستحم ، ويبدل ثيابه ، ولا كيف يتناول الفطور من قلق الانتظار وهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، وقد نسى القادين ج ونادر أغا وما كان من أمرهما

وبينما هو واقف أمام خزانة الأسلحة يتأمل ما فيها من المسدسات والخناجر .. سمع صرير الباب ، فمشى نحو قاعة الاستقبال وهو يتجلد ويخفى لهفته ، فرأى الحاجب داخلا ومعه محفظة كبيرة مختومة ، علم السلطان على الفور انها محفظة رامز، فأشار اليه أن يضعها على المنضدة ويستدعى السر خفية . ولم يكد يجلس حتى كان السر خفية أمامه فأومأ اليه أن يجلس ، وأخذ فى فض المحفظة واخراج ما فيها من الأوراق والظروف ، وبينهما خطابات ومراسلات باللغة التركية والفرنسية وبعضها بالأرقام السرية (الشفرة)

قضيا ساعة وهما صامتان ، وقد استغرقا فى القراءة .. ثم قطع السلطان ذلك السكوت بنحنحة ، ومد يده وفيها ورقة وقال :

« اقرأ هذه جيدا » ..

فقرأها وأعاد قراءتها ثم قال : « يظهر ان الملاعين ســاعون سعيا شيطانيا .. انهم عاملون على بث تلك الروح الخبيثة فى أنحاء مكدونية يجمعون بين عناصرها ومذاهبها .. »

فضحك السلطان ضحكة مغتصـبة ، وقال : « انهم يطلبون عبثا .. يريدون أن يجمعوا النصارى والمسلمين ليتحدوا علىّ .. خاب فألهم ان ذلك مســتحيل عليهم .. يريدون أن يجمعوا بين البلغارى ، والسربى ، والمكدونى ، والتركى ، والعربى .. كيف يجمعونهم وقد فرقنا بينهم تفريقا ومزقنا جامعتهم تمزيقا ؟ ! »

— ٣٧ —

جمع العناصر

وكان السر خفية فى أثناء ذلك يقلب الأوراق ، فوقع نظره على عريضة كبيرة باللغة الفرنسية وهو يفهمها ، فأخذ يقرأها والسلطان ينظر اليه ، فرأى وجهه يتغير فبادره قائلا : « ماذا تقرأ ؟ »

قال السر خفية : « هذه ياسيدى صورة لائحة مقدمة من تلك الجمعية الشيطانية الى وكلاء الدول .. »

فبغت السلطان وقال : « الى وكلاء الدول ؟.. بلغت قحتهم الى هذا الحد ؟.. ما شأن الدول فى هذا الأمر .. لايجوز للدول أن تتعرّض لأوامرى فى مملكتى .. وهَبْ انها تستطيع ذلك فانها

لا تفعل .. وقد أسكتها ، ولا أظنها تعبأ بأقوال أولئك المغرورين المتشردين .. ماذا يقولون لهم فى هذه اللائحة ؟ »

قال السر خفية : « انهم يقولون كثيرا ، ولكن ما الفائدة والدول لا تعبأ بأقوالهم بعد أن رأت فشلهم مرارا ، وهذه جرائد فرنسا قد دافعت عن الذات الشاهانية وبينت للملأ ان الذين يسمون أنفسهم أحرارا قوم خوارج يشترون بدراهم قليلة .. »

ثم جعل السر خفية يترجم له بعض الفقرات الهامة ، من ذلك قولهم يخاطبون الدول : « ان المرض المستولى على بلاد العرب أو طرابلس الغرب هو عين المرض المستولى على مكدونيا . فكل الأحزاب المؤلفة من الترك ، والعرب ، والالبانيين ، والجركس ، والأكراد ، والأرمن ، والفلاخ ، واليهود ، والصرب ، والروم ، والبلغار ، ممن يشملهم الاسم العثمانى يكابدون تلك المشاق ، ويئنون تحت تلك المظالم بعينها .. وفرق المذهب والملة لا يهون اضطراب أحد ولا يخفف أعباءه . فليس بمكدونيا ولا بأخرى من الولايات العثمانية نوعان من الناس أحدهما ممتاز ، والآخر مظلوم .. كلنا بلا استثناء مشتركون فى الظلم ، كلنا رازح تحت استبداد واحد » (١)

وكان السر خفية يقرأ والسلطان مطرق يتلهّى بالتدخين وعروقه تنتفض من الغيظ . فلما أتى السر خفية على آخر الفقرة أظهر السلطان الاستخفاف وقال : « انهم سلكوا الآن مسلكا جديدا

---

(١) خواطر نيازى

ولكنهم لن يفلحوا .. كلهم رازحون تحت استبداد واحد .. ولكنهم سيبقون تحت تلك الأثقال الى ما شاء الله .. أهكذا يفعل أبناء الدولة الصادقين ؟ .. تبا لهم .. ولكن الدواء عندى .. ماذا ترى ؟ »

فقال السر خفية : « انى أرى مايراه أمير المؤمنين وقد تفضل به الساعة .. ان الجمع بين هذه العناصر مستحيل..كيف يجمعون بين الكردى ، والجركسى ، والالبانى ، واليهودى ، والفلاخى ، و .. و .. هذا مستحيل وقد امتلأت قلوب كل عنصر حقدا على العناصر الأخرى .. و .. »

فقطع السلطان كلامه قائلا : « تبا لهم كيف يجمعون هذه العناصر ؟.. بل كيف يجمعون بين المسلم والمسيحى واليهودى ؟.. والمسلمون طوع ارادتى .. أنا خليفة النبى صلى الله عليه وسلم ، لايفعلون غير ما أريده . ليس فى مملكتى فقط بل فى سائر أنحاء العالم .. كأنهم يحسبون المسلمين قد مرقوا من دينهم كما فعلوا هم .. » وضحك وعاد الى التدخين وتناول سيجارا دفعه الى السر خفية .. فتناوله وقبله ووضعه فى جيبه ، وأدرك من ذلك ان السلطان يستحث غيرته ليثير قريحته لابتكار حيلة لوقف تلك المساعى ..

فأطرق السر خفية لحظة ثم قال : « رأى مولاى البادشاه فوق كل رأى .. ولكنى أستأذنه فى كلمة .. »

قال السلطان : « قل .. انى أحب آراءك وأثق فى محبتك ، فأنت

صديقى الوحيد لا أعول على سواك .. ونحن شركاء فى الأمر لأن ما يمس الدولة يمسك وماينفعها ينفعك .. هل تترك أولئك المغرورين يغلبوننا بصياحهم وعندنا السلطة الدينية والسياسية وعندنا الأموال .. » قال ذلك بلهجة التهديد

فسر السر خفية بذكر المال وقال : « انى أرى أن يكون الجزاء من نفس العمل ، هم يحاربون الدولة بجمع العناصر ونحن نحاربهم بتفريقها .. ولا وسيلة لذلك خير من الدين .. »

فقال السلطان وهو يحك ذقنه بسبابته : « عفارم .. هكذا .. هكذا .. »

فقال السر خفية : « هم يشتكون لأوربا انهم جميعا مظلومون ويسعون فى تفهيم الرعايا ان الوسيلة الوحيدة انما هى أن يجتمع المسلم والمسيحى ، ونحن نبين للمسلمين ان هذه المساعى انما يراد بها ضياع دينهم وادخالهم فى زمرة الكفار .. »

فقطع السلطان كلامه بقوله : « عفارم .. ان شعبى من المؤمنين شديدو الغيرة على الاسلام . وأزيد على ذلك أن السير على هذه الضلالات والاصغاء الى هذه الرجاسات يؤدى الى خروج نساء المسلمين حاسرات الوجوه كنساء الافرنج الكفار .. أنا أعلم تمسك عامة المسلمين بالحجاب »

فأخذ السر خفية يحسن هذا الرأى ، اطراء لذكاء السلطان ودهائه فقال : « وفى الواقع ان ذلك الاتحاد اذا تم سيؤول الى هذه النتيجة كما نرى الحال مع أولئك المغرورين أنفسهم ، فانهم

يقلدون المسيحيين فى كل حركاتهم .. يشربون الخمر،ويجالسون النساء ، ويفعلون كل محرَّم .. لله در ذلك العبد المخلص الذى صوّر مدحت ورجاله تلك الصورة فانه قد أصاب كبد الحقيقة..»

فلما سمع السلطان اسم مدحت اقشعر بدنه ، ولكنه تجاهل وقال : « هذه أفضل السبل .. اكتب الى رجالك بهذا المعنى .. ولا حاجة بى أن أوصيك بأن يبقى هذا الحديث مكتوما عن كل انسان حتى الباشكاتب ، وعزت ، وغيرهم ، فانى أعول عليك فقط . انفق ما استطعت فى هذا السبيل . وغدا متى عرفنا أعضاء هذه الجمعية نجعل جزاءهم القتل .. » قال ذلك وتناول ورقة بجانبه وكتب عليها بيده أمرا الى وزير المالية أن يدفع اليه عشرة آلاف ليرة عثمانية حالا ، ودفع الورقة اليه وقال : « وخوفا من تأخير الدفع سأعطيك الآن دفعة مستعجلة » ومد يده الى جيبه وأخرج ورقة مالية بألف ليرة انجليزية سلمه اياها ، فتناولها وقبّلها وجعلها فى جيبه ، وأشار اليه السلطان أن يجمع تلك الأوراق فى المحفظة حتى يعيد نظره فيها مرة أخرى ثم قال : « وصائب بك ينبغى أن نكافئه .. لا تنس ذلك »

فقال السر خفية : « هو مغمور بنعم أمير المؤمنين ، ولكنه بعث الى تلغرافا يطلب رتبة لصديق مخلص ساعده فى كشف ذلك السر » ..

فأجاب السلطان سريعا : « معلوم .. قل للباشكاتب أن يعرض

اسمه فنكافئه على اخلاصه .. اننا لا نبخس المخلصين الأمناء حقّهم » ..

وبينما هما فى ذلك دخل الحاجب وقال : « ان الصدر الأعظم بالباب .. »

- ٣٨ -

الصدر الأعظم والمال

فأجفل السلطان لعلمه أن الصدر لا يأتيه رأسا الا لما يهم الدولة أو الأمة ، وعلاقتها مع الدول الأخرى . وهو مشغول عن الدولة بشؤونه كما رأيت .. لكنه لم يستطع رده ، وأشار الى السر خفية أن ينصرف فانصرف

دخل الصدر الأعظم وحيّا كالعادة ، فأشار اليه أن يجلس فجلس متأدبا ينتظر أن يفتتح السلطان الحديث .. اذ ليس من آداب الملوك أن يخاطبهم أحد قبل أن يبدأوا هم بالكلام ، فتجلد السلطان كأنه لم يكن فى شىء مما كان فيه وقال : « كيف الأحوال ؟.. »

قال الصدر الأعظم : « ان الأحوال حسنة ، لكنها تحتاج الى نظرة من مولاى البادشاه .. »

ففهم السلطان أن الصدر لايقول ذلك الا لأمر هام ، فقال :

« ما وراءك ؟ .. »

فأخرج الصدر ورقة من جيبه ودفعها الى السلطان وقال : « هذه خلاصة ما جاءنا اليوم .. ان الدول الأجنبية تستخف بنا .. »

فتناول السلطان الورقة فقرأها وأعادها الى المنضدة وقال : « أراك قد علقت على هذا الخبر أهمية كبرى .. »

قال الصدر الأعظم : « كيف لا ياسيدى ، وهذا قيصر روسيا وملك انجلترا قد اجتمعا فى « روال » وقررا ما يؤول الى ذهاب تركيا وممتلكاتها من أيدينا .. »

فهز رأسه واغتصب ابتسامة وقال : « كثيرا ما قرروا مثل هذه القرارات وقد عرقلت مساعيهم »

فامتعض الصدر من تعبير السلطان فى هذا الموقف بصيغة المفرد كأنه هو الفاعل لكل شيء .. ولم يهمه هذا بقدر ما همه استخفافه بالأمر فقال : « لا شك ان حكمة أمير المؤمنين تتغلب على كيد الكائدين ، ولكن ذلك يفتقر الى المال والخزينة تشكو الفراغ » ..

فلما سمع قوله أظهر الدهشة ، وقال : « يا للعجب .. وأنا انما عهدت اليك بالصدارة لتتلافى ما وقع فيه أسلافك .. ان مملكتى الواسعة كثيرة الايراد .. أين تذهب الأموال ؟ .. »

ولو أراد السلطان أن يفهم مصير الأموال لعلم انها تذهب بسبب دخول رجاله فى كل فروع الحكومة ، فيسلط عليها جماعة

من خاصته يستولون على الايراد أو يضيعونه بسوء ادارتهم ، ولا تستطيع الصدارة أن تعارضها خشية أن يقع الغضب عليها .. ولم يجسر الصدر أن يقول ذلك صريحا ، فقال : « ان مملكة جلالة السلطان واسعة زادها الله سعة ، ولكن الايراد يذهب من سوء الادارة .. و .. »

فقطع السلطان كلامه بصوت عال قائلا : « وأنت المسئول عن ذلك .. جانم .. ! »

فعلم ان الكلام لم تبق منه فائدة فعاد الى مسألة « روال » ، فقال : « ولكن مسألة « روال » .. ألا يرى سيدى الاهتمام بشأنها ؟ » ..

فقال السلطان : « جانم .. ماهذه روال ؟.. دعنا منها الآن .. ولا بد من تدبير النقود ، فانى فى حاجة اليها لمساعدتكم فى ادارة هذه الحكومة . ولولا سهرى وتعبى لذهبت دولتنا هباء منثورا تقعون فى الخطأ ، فأضطر أنا الى اصلاحه .. وهذا يستلزم الأموال » . وحملق بعينيه وتشاغل ينفض رماد السيجار فى المنفضة ، وسكت ..

فتهيب الصدر وهو يعلم ان غضب السلطان لا يرد ، ولكنه لم ير بدا من الرجوع الى الموضوع ، فقال : « ان مسألة روال لولا أحوال أخرى لم يكن لها أهمية .. »

قال السلطان : « أراك عدت الى الشكوى من قلة المال .. »

قال الصدر : « انى لا أطلب المال ياسيدى لغير الجند .. اننا

نعتمد على الجنود ، وهؤلاء ينبغى أن يستولوا على مرتباتهم و .. »

فلم يتمالك السلطان عن النهوض من الغضب وقال : « الجنود .. قد أنفقت مالى وراحتى فى سبيل ارضائهم وهم يتذمرون أيضا ؟.. اعطوهم رواتبهم . من أين آتى بالمال ؟.. ان ايرادات الحكومة فى أيديهم . أنا لم أستول على راتبى منذ أشهر فاذا احتجت الى المال — ولا أحتاج اليه الا فى سبيل مصلحة الدولة — لا أجد منه شيئا .. وأنا ساكت ، وفى هذه الساعة حولت على الخزينة بمبلغ زهيد فى هذا السبيل .. ادفعوه لحامل أمرى حالا » ورأى السلطان انه بالغ فى التعنيف بغير حق فخفض صوته وأظهر التلطف وقال : « ومع ذلك لابد من اتخاذ التدابير اللازمة لزيادة الايراد ، وأنا أكلفك أن تضع لائحة فى هذا الشأن .. لا ينبغى لنا أن ندع سبيلا للأجانب كى ينتقدوا أعمالنا »

وكان الصدر مخلصا فى خدمة الدولة ، لكنه لم يؤت من الجرأة ما يكفى للتصريح بأفكاره .. ولو أوتيها لم تأت بفائدة. ولما رأى غضب السلطان نهض .. حتى اذا فرغ السلطان من كلامه أشار مطيعا وانصرف وهو يقول فى سره : « لا يرجى اصلاح هذه الدولة وهذا الرجل سلطانها »

ومشى عبد الحميد بعد انصراف الصدر ، وقد خلا بنفسه وهو يتمتم قائلا : « تطلبون المال منى ؟ واذا أعطيتكم ما عندى كيف أدافع عن حياتى ؟ كلكم تحتفظون بالمال لأنفسكم .. ألا يحق لى

أن أفعل مثلكم ؟ »

وظل ماشيا وهو يتنقل من غرفة الى أخرى ، ويتلفت كأنه يحذر أن يتبعه أحد حتى دخل غرفة صغيرة مهملة لا يدخلها أحد ، وضغط على زر وراء بابها فانفتح فى الحائط المقابل باب دخل منه فى دهليز الى حجرة فيها خزانة من الحديد ، فأخرج من جيبه مفتاحا فتحها به .. واذا هناك قدر كبير من المال على اختلاف أشكاله من الذهب والجواهر والورق

ولما وقع بصره عليها أشرق وجهه ، وانبسطت أسرّته ، وجعل يقلب ما هنالك من الأوراق المالية وهى كثيرة ويقول : « هل تريدون أن أعطيكم هذه الأموال وهى عدتى التى أحاربكم بها ؟ ولولاها لم تأتوا الىّ صاغرين . أعطيكم اياها ؟ وبماذا أغريكم بعضكم على بعض وأخلق الشقاق بينكم حتى لا تجتمعوا علىّ؟ لولا هذا المال لكنتم أنتم أصحاب السلطة .. أنتم تخدعوننى طمعا فى المال ، وأنا أخدعكم ولا أعطيكم اياه .. هو سلاحى وبه حياتى .. »

قال ذلك وعاد فأغلق الخزانة ، وأغلق باب الحجرة وهو يقول : « ليس هذا كل مالى .. وهل جننت لأضع كل ثروتى فى مكان واحد وأنا محاط باللصوص والجواسيس ؟ .. »

ومشى حتى دخل غرفة التجارة ، ففتح درجا فى مكان لا يخطر على بال أحد وجود المال فيه ، وأخرج منه ظرفا فيه مئات من الأوراق المالية ، ربما زادت قيمتها على نصف مليون جنيه وجعل

يقلّبها ويقول : « هذا من مالى ومثله كثير فى هذه الخبايا »

– ٣٩ –

الفتك

ثم عاد الى قاعة الاستقبال ورجع الى مطالعة أوراق رامز ، فرأى بينها كتبا من شيرين فيها مداعبة ومشاكاة . وبينما هو يقرأها تمثلت فى ذهنه فجأة صورة القادين ج ، فأجفل..وتحولت هواجسه الى دار الحريم ، فأراد أن يشغل نفسه بقطعة من جريدة فرنسية فيها مقال لرامز ، أخذ يطالعه ويتفهّم فحواه لأنه ضعيف فى اللغة الفرنسية ، فلم تذهب صورة القادين ج من أمامه فرمى تلك الجريدة على المنضدة واسترخى فى مجلسه على المقعد،وتنهد تنهدا طويلا ثم قال لنفسه : «ماذا تم فى أمر تلك المرأة ؟هل تحقق حملها ؟ .. ويلاه بماذا ينبغى أن أهتم ؟ بالخوارج المارقين ، أم بالنساء فى دار الحريم ، أم بمطالعة التقارير من الجواسيس ، أو بالتقارير على الجواسيس ؟ .. انه لعمل شاق .. »

ثم مد يده الى صندوق السيجار وتناول سيجارا وأشعله وهو ينظر من خلال الدخان الى الساعة الموضوعة على الرف أمامه ، فاذا هى الساعة الخامسة بالتوقيت العربى فنفخ نفخة تطاير دخانها فى جو تلك القاعة ، ثم نهض وهو يتشدد ويقول :«ولكن هذا العمل لايصعب على همة السلطان عبد الحميد .. لم ير عرش

آل عثمان سلطانا عاملا مثلى .. انى قابض على مملكتى ودولتى وقصرى بيد من حديد » فصفق فجاء الحاجب ، فصاح به : « نادر أغا » يعنى أن ينادى نادر أغا ..

قال ذلك ومشى فى الدهليز بين خزائن التقارير السرية نحو دار الحريم ، وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة . واذا بنادر أغا قادم عليه من الباب السرى المؤدى من دار الحريم الى المابين ، فحيّا ووقف ولو كان أبيض اللون لظهرت دلائل البغتة فى امتقاع لونه ، ولكنها ظهرت فى عينيه رغم ما كان يحاوله من التستر . وأدرك السلطان عبد الحميد ذلك ، فقال وهو يتحول الى حجرة النجارة ليلهو بالحفر : «ماذا جرى ؟ هل أرسلتموها ؟» يقصد : هل قتلتم تلك المرأة ؟ ..

فأجاب نادر أغا : « خير أفندم .. »

فحملق السلطان فيه وقال : « ولماذا ؟ .. »

قال نادر أغا : « لم تتحقق بعد اذا كانت حاملا أم لا .. »

فبادره السلطان عبد الحميد بقوله : « واذا لم تتأكدوا ؟ .. ان الشك وحده كاف لتنفيذ أوامرى .. ولولا ما تعلم من منزلتك عندى لكنت .. » وسكت والتهديد ظاهر فى قوله

فقال نادر أغا : « هل فى الدنيا أسبق من هذا العبد الى تنفيذ أوامر الذات الشاهانية المقدسة؟ ولكننى كنت أحسب أمير المؤمنين اذا تأكد من عدم الحمل يفضل بقاءها » .

فأسرع فى الجواب قائلا : « لا .. »

فقال نادر أغا : « لا ينبغى أن أكتم شيئا عن سيدى وولى نعمتى .. »

قال السلطان : « تكلم .. »

قال نادر أغا : « ان الحاضنة المكلفة بمثل هذه المهام لا أثق انها تفعل ذلك بأمانة وربما كنت مخطئا فى ظنى .. »

فقطع السلطان عبـد الحميد كلامه قائلا : « فهمت مرادك صدقت .. لأن تلك الحاضنة تعرف لتلك القادين جميلا أسـدته اليها ، بوساطتها لها عندى .. ولكن لا بد من التنفيذ » ..

فأطرق ذلك الخصى برهة ، وهو ينظر الى حركة يد السلطان عبد الحميد فى الحفر على الأبنوس ، كأنه من أمهر النجارين ، ثم قال : « أعرف طبيبا يتزلف الى المابين منـذ برهة ويتوسل فى طلب منصب ، وهو لايعرف تلك المرأة فلا يشفق ولايرحم.وهو أيضا جائع يطلب رزقا ، واذا علم ان جلالة السلطان يكافئه على تنفيذ أمره بأن يجعله من أطباء القصر الملكى فعل ما تريد »

فضحك السلطان عبد الحميد وقال : «تعجبنى آراؤك يا أبيض الخصال ـ ان ترقية الصغار أقرب الى الاستفادة من أمانتهم لأنهم حريصون على استبقاء النعمة التى نالوها بصدق خدمتهم لنا ـ ولكن هل يستطيع ذلك ؟ »

فقال نادر أغا : « مالنا وله .. أنا أخاطبه وأجعل ذلك شرطا لتقدمه ، وليتدبر الأمر كما يشاء .. واذا لم يحسن الأسـلوب عددنا ذلك ذنبا حاسبناه عليه »

فابتسم السلطان عبد الحميد وأشــار الى نادر بالانصراف ، ومكث وهو يفكر فى رامز ويود أن يراه لعله يستطلع أسرار الجمعية منه ، ولكنه رأى من الحكمة أن يصبر نفسه

— ٤٠ —

رامز عند الباشكاتب

أما رامز فانهم حملوه مع أوراقه من سلانيك ،فوصل الاستانة فى ذلك الصباح فدفعوه الى الباشكاتب ، فأرسل أوراقه الى السلطان عبد الحميد كما علمت ، واستبقاه عنده فى حجرةخاصة ليس فيها أحد .. فجلس رامز على مقعد هناك ، ولم يهمه ما يهدده من الخطر على حياته أكثر من اهتمامه بشيرين ، وكيف يكون حالها بعده وهو يعلم ان أباها لا شفقة فى قلبه عليها ، وان صائبا ربما طمع فيها ووافقه أبوها على زواجه بها . فلما تصور ذلك هب جسمه واقشعر بدنه وأحس بثقل ذلك الأسر

وبعد قليل جاءه الباشكاتب بنفسه فحيَّاه وتلطف فى خطابه وسأله عن سبب القبض عليه .. سؤال من لا يهمه الأمر ، وانما يسأل على سبيل حب الاستطلاع

فقال رامز : « لا أعلم السبب »

قال الباشكاتب : « لعلك متهم باشتراكك فى احدى الجمعيات السرية .. »

قال رامز : « نعم .. وليست هى تهمة »

قال وهو يظهر الدهشة : « اذا كنت تعترف باشتراكك فى تلك الجمعية فانك تعرض نفسك لخطر شـديد ، لأن جلالة السلطان يشدد فى منع تلك الاجتماعات الضارة . وما كان أغناك عن الاعتراف بذلك .. أقول هذا شفقة عليك ، اذ يظهر لى انك من أبناء النعم وأهل الذكاء ، ولكنك قليل الاختبار..فربماأغراك بعض المتهوسين الذين يسمون أنفسهم الأتراك الأحرار ،فأدخلك فى الجمعية التى سموها « جمعية الاتحاد والترقى » . وأظنك لو عرفت تاريخ هذه الجمعية لعدلت عنها .. ان بعض المحرومين من الوظائف اتخذوها وسيلة للارتزاق بالتهـديد chantage وكان أمير المؤمنين يقطع ألسنة الصائحين أحيانا بالوظائف . وأكثرهم كانوا يبيعون أصواتهم بدراهم قليلة ، فتكاثر أدعياء الحرية .. ولا أظنك من الأدعياء فيها بل أنت حر الضمير تقول ما تعتقد .. ولكنهم خدعوك حتى وقعت تحت الخطر وهم مستريحون . ولو وقع أحدهم مكانك لتخلص وأوقعك مكانه .. هه هه .. وقد فعلوا ذلك مرارا .. مالنا ولهم أظنك لم تتناول الفطور بعد .. » ومد يده الى جيبه ، فأخرج علبة السجاير ودفع اليه سيجارة وخرج وتركه يفكر فيما سمعه لعله يبوح بسر الجمعية ليتخلص من الخطر ..

وبعد قليل ، جاءه أحد الحجاب يدعوه للطعام .. فنهض وأكل بعض الشىء وهو لا يفتح فـاه للكلام لاسـتغراقه فى

هواجسه ، ولم تبرح شيرين من ذهنه .. وبعد أن تناول الطعام أتوه بالجرائد للمطالعة فأخذ يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأه ، حتى اذا حان موعد الغداء تناوله وقد مل الانتظار وأصبح شديد الرغبة فى معرفة ماذا يكون من أمره فى ذلك القصر الذى لا يدخله غريب الا تهيب من كثرة ما يجول فى أبهائه من رجال العسكرية، وكلهم من أهل الرتب العالية وخاصة الياوران ، ولهم دائرة خاصة يقال لها دائرة الياوران ، وفيهم فحول القواد وكبار الأبطال ، وهم ثلاث طبقات : ياور ، وياور اكرم ، وياور فخرى، والياور الأكرم فوق سائر المراتب قدرا .. فكان يقع بصره على بعضهم مارا أو داخلا على الباشكاتب وعليه علامات الشرف والأبهة ، ويكاد رأسه يناطح السحاب

وناهيك بدائرة الباشكاتب نفسها ، فانها تتألف من الباشكاتب وعشرين كاتبا من ذوى الرتبة الثانية الى رتبة بالا وهم من الشبان الناشئين على الأخلاق الجديدة ، وكلهم عيون على الباشكاتب وهو عين عليهم . وقد باعد الشقاق بينهم فتراهم جميعا وقلوبهم شتى . وكان الباشكاتب الواسطة العظمى بين السلطان والحكومة ، أى يبلغ ارادته وأوامره الى الصدر الأعظم ، أو شيخ الاسلام .. وأشهر الذين شغلوا وظيفة الباشكاتب وأقربهم عهدا منا تحسين باشا ..

وعلى الباشكاتب ترد الأوراق الرسمية من الباب العالى ، ومن المشيخة الاسلامية ، ومن سائر النظارات وسائر الولايات ،

وتصدر عنه الى الباب العالى وجميع الجهات . وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية ، فيتلقى عنها الارادات بتبليغ المابينجية أو من يأمره السلطان بالتبليغ من الذين فى الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالارادات السنية بامضائه فى أوراق صغيرة الى الصدر الأعظم ، أو الى من تخصهم من الوكلاء والوزراء ..

وحين يتسلم الصدر الأعظم أو غيره تلك الارادات ، يكتب على الورقة التى أرسلت له ساعة التسليم .. ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيه المبلّغ للارادة وصورتها ووقت صدورها، ويوقع ما يكتبه بامضائه .. وهذه عادة جديدة لم تكن من قبل ، استحدثت على أثر قيام بعض المبلّغين بتبليغ ارادات لا أصل لها

وكان الباشكاتب ركنا عظيما من أركان الجواسيس فى السراى ، وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا أوراق الخفيات التى ترد عليه منهم . ولها النصيب الأوفر من عنايته واهتمامه ، فلا تلبث فى يده الا ريثما يتناولها .. فيبعث بها الى الحجرة الشاهانية ، فتذهب أسرع من منحدر السيل ، فيتلقى عنها الارادة فى الحال سواء كانت ارادة استفهام أو استيضاح أو التفات أو احسان على مَن قدّمها .. بخلاف الأوراق الرسمية أو أوراق ذوى الحاجات ، فان لها طريقا فى العرض لا يتغير وربما تأخرت شهورا أو تراكمت عليها الأوراق الأخرى ، فلا يجدى البحث عنها ..

على ان السلطان كثيرا ما كان يدعو السر خفية اليه رأسا متى شاء للنظر فى شأن يهمه ، كما رأيناه فعل فى مسألة رامز ، وقد يأتيه الصدر الأعظم رأسا لأمر هام خوفا من اشتغال الباشكاتب عن مطالبه الهامة بتلبية مطالب الجواسيس

— ٤١ —

قصر مالطة

ظل رامز هناك الى المساء فجاءه الباشكاتب ، وسأله اذا كان فى حاجة الى شىء وقال له : « انما أتيتك بنفسى لكى تستأنس بى لأنى أشفقت عليك ، فهل رأيت أن تسمع نصيحتى قبل أن أسلمك الى المحققين .. »

قال رامز وهو رابط الجأش : « لم أفهم مرادك .. ! »

قال الباشكاتب : « نصحت لك أن ترجع الى رشدك وتعدل عن الغرور ، وأنا أضمن لك السعادة .. المطلوب أن تخبرنا عن أسماء الأشخاص الذين أغروك على الدخول فى هذه الجمعية . أن الاطلاع على خبرهم لا بدّ منه لأن الذين سيأتون الينا منهم كثيرون على جارى العادة دائما ، ولكننى أحببت أن يكون ذلك على يدك لتنال الجزاء الحسن »

فهز رامز رأسه هز الانكار ، وقال : « ان مثلى لا يخاطب بمثل ذلك يا حضرة الباشكاتب .. » وسكت ..

فأظهر الباشكاتب الامتعاض من جفاء عبارته ، وتحوّل عنه وهو يقول : « لقد أخطأ ظنى فيك .. ويبدو أننى وضعت أملى فى غير موضعه .. لا بأس » ..

وبعد قليل دخل على رامز ضابط أومأ اليه أن يتبعه ، فنهض وخرج معه ، فوجد بضعة رجال من الجند ببنادقهم ينتظرونه خارجا فأشار اليه الضابط أن يتبعه ، فمشى فى أثره فى طريق واسع يؤدى الىحديقة يلدز الخارجية ، ولم يكن قد دخل يلدز من قبل .. فرأىالسور الضخم الفاصل بين الحديقتين كأنه سور مدينة حصينة ، وسار به الجند بجانب ذلك السور حتى عرجوا فى بعض الطرق بين الأشجار الغضة الى قصر وقف ببابه الحراس بأسلحتهم .. فأشار الضابط اليه أن يدخل فدخل ، ودخل أحد الحراس معه فى دهليز القصر ، ثم أصعده فى سلم مغطى بالسجاد الى الطبقة العليا ، ومشى أمامه حتى أوصله الى غرفة وقال له : « تفضل ياسيدى .. امكث هنا »

فقال رامز : « ما هو هذا المكان ؟ .. أين أنا ؟ »

قال الحارس : « لا تخف .. انك ضيفنا ، وهذا القصر قصر مالطة .. »

فلما سمع رامز ذلك الاسم أجفل وتهيب ، اذ تذكر ان مدحت باشا أبا الأحرار حبس فيه حينا فى أثناء محاكمته التى حكم عليه بعدها بالنفى الى الطائف حيث لقى حتفه

فجمد فى مكانه من شـدة التأثر ، والحارس لا يزال واقفا

بالبندقية . ثم انتبه رامز لنفسه فتجلد وجلس على مقعد هناك ، وكانت الشمس قد أذنت بالمغيب وأقبلت طلائع الظلام ، فأسرع بعض الفراشين الى انارة القصر ولا سيما تلك الغرفة ، وهى مفروشة بالبسط الثمينة ، وفيها مقاعد وكراسي ومنضدة .. وآنس رامز فى الخادم لطفا فقال له : « أليس فى هذا القصر أحد سواى ؟ »

فابتسم الحارس وأجاب : « لا أعلم يا سيدى .. »

فاقشعر بدنه من ذلك الجواب لأنه توقع أن ينطوى على اسرار خفية ، وهو يسمع بيلدز وفظائعها .. لكنه تجلد وقال : « هل يطلب منى أن أبقى فى هذه الغرفة ؟ .. »

فأشار اليه أن يتبعه حتى دخل من باب فيها الى غرفة أخرى فيها سرير مفروش وقال : «هذا هو الفراش الذى ستنام عليه دولتكم» خاطبه بهذا النعت ، لأن هذا القصر لا يسجن فيه الا كبار رجال الدولة

جلس رامز على المقعد ، وقد اسودت الدنيا فىعينيه،واستغرق فى مخاوفه ، وأخذ يردد فى ذهنه ما مَّر به فى ذينك اليومين من الأهوال ، وتحقق انه مقتول .. فجاشت فى صدره عاطفة الاشفاق على شيرين ، وماذا يكون من أمرها اذا بلغها نبأ قتله .. وتذكر محاسنة الباشكاتب له وما وعده به من الحسنى اذا باح بخبر الجمعية . وتذكر أناســا فعلوا ذلك ونالوا المكافأة بالأموال والرتب ، فحدثته نفسه لحظة أن يستبقى حياته اكراما لشيرين ،

ثم غلبت عليه الانفة وعزة النفس فصمم على الثبات ، وهو يعلم أن شيرين لا ترضى بالخيانة منه

قضى برهة جالسا مطرقا ثم سمع وقع أقدام ، واذا بالخادم يدعوه الى العشاء ، ولم تكن نفسه تشتهى الطعام .. لكنه لم يشأ أن يظهر الضعف .. فمشى الى مائدة كبيرة جلس اليها وحده لتناول الطعام ، وهو يفكر فى حاله ، ثم نهض الى نافذة تؤدى الى شرفة تطل على حدائق يلدز ، وقد خيَّم عليها الظلام..ولكنه رأى بعض الأنوار عن بعد فى بعض قصـــور يلدز وما بعدها ، وجلس على كرسى وقد أحس بالوحدة وغلبت عليه الوحشة ، وهو لا يعلم مصيره .. هل يقتل فى تلك الليلة ؟ .. أم يسأل عن أسرار الجمعية ؟ .. وماذا يقول اذا سئل ؟ ..

— ٤٢ —

طارق ملثم

ثم شعر رامز ببرد خفيف ففضل الدخول الى غرفة الجلوس، فدخل .. وما استقر به المقام حتى سمع حركة ، ووقع أقدام .. فأصغى بسمعه وما لبث أن رأى رجلا دخل عليه ، وقد التف ببرنس يغطى أثوابه ، وتلثَّم حتى لا يبـــدو من وجهه شيء غير عينيه .. فأقبل عليه وتناول كرسيا وجلس أمامه ، فاقشعر بدن رامز وصبر ليرى ما يبدو منه

فبادره الملثم بالسلام وسماه باسمه فأجفل ، ولكنه رد التحية

فقال الرجل : « قد أتيتك بنصيحة أرجو أن تقبلها .. »

فهز رامز رأسه هزة الاستفهام كأنه يسأله : « ما هى ؟ »

قال الرجل : « أنت شاب فى مقتبل العمر ، فلا تلق بنفسك الى التهلكة .. »

فاستغرب رامز هذه النصيحة من رجل لم يسمع صوته من قبل فقال : « وأية تهلكة ؟ .. »

قال الرجل : « أنا أعرفك وأعرف أحوالك ، فاذا لم تشفق على نفسك فاشفق على شيرين .. »

فلما سمع رامز اسم خطيبته ارتعدت فرائصه وتولته الدهشة، وجعل يتفرس فى عينى الرجل وفى هيأته .. فلم يعرف شيئا عنه وارتج عليه فقال الرجل : « لا تستغرب اطلاعى على حقيقة حالك .. ليس فى هذه القصور أحد يعرف ذلك سواى ، وقد علمت ما كان من عنادك اليوم عند الباشكاتب ، وعلمت أن ذلك يذهب بحياتك وحياة خطيبتك .. فلا تستسلم للجهل ، فان ذلك ثابت عليك . ولا سبيل للنجاة من القتل بغير الاقرار .. يطلب منك فقط أن تذكر أسماء الشبان الذين أغروك على الدخول فى تلك الجمعية ، فتنال العفو مع المكافأة المالية ، وتكسب حياتك وحياة شيرين »

قال رامز : « وما دخل تلك الفتاة فى هذا الأمر ؟ »

قال الرجل : « انها شريكتك فى الجريمة ، وهى التى كانت تشجعك على كتابة تلك المقالات ضد الذات الشاهانية .. »

فتجلد رامز وأظهر الاستخفاف وقال : « لا دخل لها فى شيء من ذلك .. من أنت ؟ »

قال الرجل : « لا يهمك من أنا .. ولكن صدق ما أقوله ، يدلك على اخلاصي فى نصحك .. واذا كنت لا تصدق ، فانى أطلعك على خط يدها تشاركك فى النقمة على جلالة السلطان ..»

وكان رامز يعلم أن بين أوراقه كثيرا من رسائل شيرين ، لكنها لم تكن تذكر اسمها صريحة ، فاستغرب اطلاع ذلك الرجل على اسمها وانها خطيئته .. فرأى أن الانكار أولى ، فقال : «لاشريك لى فى هذه التهمة .. دع الكلام عن النساء . وأما أنا فمتى سئلت عن الجمعية فأجيب بما أراه .. »

قال الرجل : « لا فائدة من الانكار .. وأنا لا أطلب الجواب منك الآن ، ولكنى نصحت لك حتى اذا سئلت لا يأخذك الغرور وتقتل نفسك وأعز الناس عندك .. هذه نصيحتى لك .. وان غدا لناظره قريب » قال ذلك ووقف وتحول من تلك الغرفة وترك رامزا يتقلب على مقالى الجمر من الدهشة والاستغراب ..

ظل رامز وحده ، وقد أحاطت به الهواجس والمخاوف ، وهو يتصور انه فى حلم .. ويسأل نفسه من هو الطارق ، وكيف عرف شيرين ، وما الذى حمله على النصيحة ؟.. قضى فى ذلك مدة وهو مطرق ولم يهتد الى حل ، وقد غلب عليه التعب لفرط ما قاساه من القلق والاضطراب ذينك اليومين ، فذهب الى فراشه لينام

قضى رامز اليوم التالى منفردا ، وهو ينتظر فى كل لحظة أن

يأتيه من يستجوبه ويستطلع خبر الجمعية منه ، وهو يهيىء الأجوبة ويستعد للثبات على رأيه والمحافظة على العهـود التى أقسم على التمسك بها .. على ان سياسة المابين اقتضت التظاهر بعدم الاهتمام ، ولكنهم وسوسوا له على يد الباشكاتب وذلك المتستّر بما يبعثه على الخوف ويحمله على الاقرار . ولعل القارىء أدرك أن ذلك الملثم انما هو السر خفية نفسه ، وقد اطلع على علاقة رامز بشبرين من مكاتبات خاصة جاءته من صائب بك ، وعلم انه اذا استطاع كشف سر الجمعية نال مكافأة عظيمة ..

— ٤٣ —

عزّت باشا

أما السلطان عبد الحميد فانه صبّر نفسه الى الغد ، وسأل عما جرى .. فلما علم ان الرجل لا يزال متكتما ، رأى أن يحتال فى استجوابه على يد عزت باشا ، لأنه يعتقد فيه الذكاء المفرط ، والدها البالغ .. وقد غلبه عزت على أمره ، فأسند اليه النظر فى أهم شئون السياسة ، وأصبح ملاذه الوحيد ومشيره الأول .. وهو الذى أنقذه من عواقب مذبحة الأرمن . وكان ذلك من أكبر أسباب تقربه والثقة به . فرأى السلطان عبد الحميد أن يكلفه باستجواب رامز ، وان كان ذلك خارجا عن دائرة عمله ، ولم يشأ أن يطلب ذلك منه رأسا ، فتذّرع اليه فى أثناء حديثه معه

بشأن ملاقاة روال التى تقدم ذكرها . فبعث اليه .. فلما جاءه قال له : « أنت رسولى فى المهام السياسية ، وقد جاءنى الصدر بخبر ملاقاة روال .. فهل علمت ذلك ؟ »

فقال عزت : « لا أكذب على جلالة مولاى البادشاه .. ان هذا الخبر من الأهمية بمكان عظيم ، لكننى لا أتوقع تنفيذه لاختلاف الدول فى المقاصد والأغراض ، وان كان ذلك لا يمنع سعينا فى سبيل افساده »

قال السلطان : « هل دبرت شيئا بشأنه ؟ .. انى شديد الثقة بك .. »

قال عزت : « ان هذه الثقة التى لا أستحقها تجعلنى عبدا رقا .. أبذل حياتى فى مصلحة جلالة السلطان .. وأنا مفكر فى أمر سأعرضه على مسامع جلالتكم بعد قليل .. »

وكان السلطان جالسا على كرسيه فى قاعة الاستقبال والمحفظة لا تزال أمامه ، فلما سمع قول عزت تشاغل بازاحة المحفظة الى ما بين يديه وقال : « أنت تعلم يا عزت أنك موضع ثقتى .. بل أنت صديقى الوحيد ، ولا أنسى خدماتك الجزيلة التى قمت بها دون سواك من رجالى ، وقليل فيهم الصادق المخلص..ومع كثرة الملتفين حولى قلّ من أعتمد عليه .. بل أنا لا أعتمد على سواك . هل تعرف ماذا أكلّفك به ؟ »

قال عزت : « انى عبد مولاى وطوع ارادته وأفديه بروحى »

قال السلطان : « بارك الله فيك .. أنت تعلم ما نقاسيه من

صياح أولئك الغلمان الذين يسمون أنفسهم الأحرار ، وكثيرا ما أنبأتنى بضعفهم وعجزهم عن غير الصياح ، وقد كفانى منير باشا سفيرنا فى باريس مئونة كثيرين منهم حتى اضمحل شأنهم وانحلت جمعيتهم . لكننى علمت بالأمس انهم استأنفوا النهوض على سبيل آخر غير الصياح ، فألفوا جمعية فى سلانيك دخل فيها كثيرون من جنودى .. أغراهم أولئك الخوارج على الاشتراك معهم . جاءنى خبرهم على أيدى الخفية ، لكنهم لم يعرفوا أصحاب هذا المسعى لأنهم شديدو التكتم . غير ان ناظم بك قومندان مركز سلانيك تمكن بواسطة أحد الخفية من القبض على واحد منهم ، وحمله الينا مع أوراقه وهى هنا فى هذه المحفظة. وقد قرأتها وفهمت منها ان أولئك الملاعين عاملون بدهاء وهمة ، ويهمنى الآن معرفة الأعضاء العاملين فى هذه الجمعية .. وهذا لا يمكن الاطلاع عليه الا من هذا الرجل وهو الآن مسجون فى قصر مالطة .. ويظهر انه صعب المراس فلم أرد أن أكلف باستجوابه سواك .. لما أعهده من ذكائك — وان كنت لم أكلفك بمثل هذا الأمر من قبل — وهذا دليل على عظم ثقتى بك .. »

وكان عزت يسمع كلام السلطان عبد الحميد وهو مصغ ، والذكاء ينبعث من عينيه وينفذ الى قرارة نفس السلطان .. فلما فرغ من كلامه قال : « لم يكن أمر هذه الجمعية غريبا عن عبدكم ولا أنا ساكت عنها ، وان كنت لم أذكر شيئا من أمرها لمولاى البادشاه تفاديا للتنويه عن سهرى على مصلحة الدولة ، ومقاومة

المارقين المغرورين . ان هذه الجمعية لم يكن منشأها فى سلانيك فقط ، لكنها ظهرت فى الشام وكادت تشتعل نارها لو لم أبادرها بما يلزم ، فقطعت دابرها من هناك .. »

فنظر السلطان عبد الحميد الى عزت نظرة الرضى والارتياح وابتسم ، وعيناه تتلألآن بالدمع ، كأنه دمع العطف والاعجاب ، بحيث يتوهم من يراه كذلك انه مثال الاخلاص وصدق اللهجة.. وكثيرا ما خدع جلساءه هذا المنظر منه ، حتى عزت مع طول اختباره وبلائه وفرط دهائه كثيرا ما كانت هذه النظرات تؤثر فيه ، وهو يقابلها بالاخلاص وصدق الخدمة فى مصلحة السلطان.. وهمّ عزت أن يتم حديثه ، فقطع عليه السلطان عبد الحميد كلامه قائلا : « بورك فيك من صديق مخلص .. قد علمت ذلك من السر خفية .. وهذا عهدى باخلاصك .. فالآن صرت أتوقع أن تكشف لنا أمر جمعية سلانيك من هذا السجين .. فافعل .. »

فأشار عزت مطيعا وقال : « انى فاعل بتوفيق الحضرة الشاهانية المقدسة التى أفديها بنفسى وأهلى .. »

فنهض السلطان وهو يقول : « ان صدرى ينشرح كلما رأيتك .. وأشعر اذا كلفتك بأمر أنه مقضيّ .. »

فنهض عزت واستأذن فى الانصراف ، ومضى الى قصره وخاطره مشتغل بأمر رامز وكيف يحمله على الاقرار .. وأعمل فكره فى هذا السبيل وهو شديد الرغبة فى انقاذ السلطان من تلك الجمعية الجديدة ، فينقذ نفسه أيضا لأنه واقع فيما وقع فيه

هو .. على انه كان يسعى فى هذا السبيل ، وهو مقتنع انه يخدم الدولة به ، لاعتقاده أنالأحرار لايمكن أن يجتمعوا الا على أمر كبير ، فيرى وجودهم عثرة فى طريق الحكم .. وأضف الى ذلك مايخشاه من نجاحهم على حياته ، وهـذا وحده كاف ليوهمه الخطأ فى أعمالهم وانهم على ضلال . فهو مضطر بطبيعة الحال أن يبذل جهده فى خدمة مصلحة السلطان بمقاومة الأحرار

قضى يومه وهو يفكر .. وبات تلك الليلة ثم بكَّر فى الصباح ، فبعث الى رامز أن يأتى اليه معـززا مكرما . وكان قصره فى الطرف الآخر من يلدز ، فأمر أن يحمل اليه رامز فى مركبته ..

— ٤٤ —

الاستجواب

وكان رامز قد مل الانتظار ليقف على مصـيره .. وأصبح فى ذلك اليوم فلبس ثيـابه ، وتنـاول الفطور وهو غارق فى هواجسه ، واذا بوقع حوافر الخيل قرب القصر فأجفل ، ونهض الى شرفة تطل على الطريق ، فرأى مركبة يجرها اثنان من جياد الخيل ، ثم سمع مشيا فى الدهليز .. واذا بالخادم قد أتاه مسرعا وهو يبتسم ويقول : « أفندم .. تفضل الى المركبة »

فقال رامز : « الى أين ؟ .. »

قال الخادم : « ان مولانا عزت باشا يدعوك اليه وهـذه

مركبته بالباب » ..

فاستغرب تلك الدعوة ، ولكنه تجلد ونزل الى الباب ، فرأى جاويشا واقفا فى انتظاره .. وأومأ اليه أن يركب فركب ، وركب الجاويش بجانب السائق ، وسارت المركبة الى قصر عزت

وبعد بضع دقائق رأى نفسه بباب ذلك القصر ، فاستقبله أحد الحجاب بالاكرام ، ودعاه الى الصالون ، فدخل وهو يفكر فيما عساه أن يترتب على تلك الدعوة ، فدعاه الحاجب الى الجلوس، وبعد برهة أقبل عزت وبيده جريدة يطالع فيها ويمشى الهوينا بدون اهتمام .. فوقف له رامز ولم يكن يعرفه من قبل ، فرآه كهلا ربعة من الرجال يلوح الذكاء فى ملامحه ، وكان يسمع بدهائه وتعقله .. فتهيب من منظره

دخل عزت الصالون ، وهو لايرفع بصره من الجريدة كأنه مستغرق فى المطالعة ، ثم رفع رأسه بغتة وحيًا رامزا وأشار اليه أن يجلس ، وجلس أمامه وبينهما منضدة وقال : « أنت ضيفنا يا رامز افندى .. »

قال رامز : « نعم ياسيدى .. ولى الشرف بذلك »

فمد يده الى جيبه وأخرج علبة مرصعة ، أخرج منها سيجارة قدمها له وهو يقول : « ربما تستغرب مجيئك عندى .. بعد أن كنت تتوقع أن تؤخذ الى السر خفية أو غيره من الجواسيس .. ألا تعد ذلك اكراما خاصا ؟ »

فقال رامز : « قد علمت ياسيدى ، وعرفت هذا الفضل لكم »

قال عزت : « لا ينبغى لى أن أكتمك السبب الذى دعوتك من أجله الى هنا . اعلم انى قد استأذنت فى مخاطبتك شخصيا من جلالة البادشاه حين ألممت بالخطر الذى يهددك .. وقد علمت انهم لم يحسنوا التفاهم معك فى الأمر المطلوب منك ، فأحببت أن آخذ هذا الأمر على عاتقى .. وتعهدت أن أخلص لك النصح.. فهل تقدّر ذلك ؟ » ..

قال رامز : « نعم أفندم .. »

فقال عزت وهو يعتدل فى مجلسه : « أنا أحب أن أباحثك وأبيّن لك وجه الصواب وأنت تختار الطريق الأصلح .. لا أهددك بالقتل ولا حاجة بى أن أبيّن لك الخطر المحدق بك فأنت أعقل من ذلك .. انما أسألك عن السبب الذى حملك على الانضمام الى تلك الجمعية .. ألم تكن تعلم انها من الجمعيات الضارة ؟ »

قال رامز : « لم أفهم ماذا تعنيه بالضرر هنا .. »

قال عزت : « قد أحسنت الاستفهام .. عفارم .. ان مرادى بالضرر هنا ان وجودها مضر لمصلحة الدولة »

قال رامز : « كيف يكون ذلك وغرضها الأصلى انقاذ الدولة من الأضرار .. هل تأذن لى أن أخاطبك بحرية ؟ »

قال عزت : « انى فى غاية السرور من حرية تفكيرك .. تفضل قل ما تريده .. »

قال رامز : « هل أقول بحرية ؟ »

قال عزت : « قل .. ولا تخف .. انك تخاطب رجــلا عركه الدهر ولم يمر بذهنك أو أذهان أقرانك خاطر لم يخطر له ..وقد تبصرت فى هذا الأمر مليا ، ولو وجدت فيه نفعا لم أرجع عنه..»

فاستبشر رامز بهذا التصريح وقال : « هل سبق أنك فكرت فى الخلل المتمكن فى جسم الدولة ؟ »

فأشار عزت برأسه وعينيه : « أن معلوم .. »

فقال رامز : « فاذا كنت تعترف بوجود الخلل .. هل تجهل أن سببه سوء الادارة ؟.. »

قال عزت : « لا أنكر ذلك .. ان الحكومة تحتــــاج الى اصلاح .. لا شك فى ذلك »

قال رامز : « هذا هو الأمر الذى نحن ساعون فيه .. »

فابتسم عزت وقال : « هذا هو وجه الخطأ .. نحن متفقون فى تشخيص الداء ، ولكننا مختلفون فى وصف الدواء »

قال رامز : « أشكرك ياسيدى لاطلاق حرية الكلام لى .. انى أستغرب أن يكون هناك وجه للاختلاف فى العلاج . اذا كانت أحوال الدولة مختلة كما تقول ، فاختلالها من الحكومة الحاضرة، وابدالها هو الدواء الوحيد »

قال عزت : « أظنك تعنى أن تقلب الحكومة من الاســتبداد الى الدستور »

فبادره رامز قائلا : « معلوم .. وهل من طريق آخر ؟ »

قال عزت : « هذا كلام جميل ، ولكنه أشبه بالخيال الشعرى

منه بالرأى السياسى .. هــل تظن أن الأمة العثمــانية مستعدة للدستور ؟ .. »

قال رامز : « نعم .. »

فتنحنح وهو يمسح فمه بمنديله وقال : « لو كانت مستعدة له لم تضيعه بعد أن نالته . أؤكد لك ان الذات الشاهانية منحت الدستور لرعاياها ، وهى تود من صميم القلب أن تكون الأمة على استعداد له . ولكن ظهر بعدئذ انه كان السبب فى الخراب ، ولولا حكمة مولانا السلطان لا أدرى ماذا كانت تؤول اليه الدولة بعد الاعوجاج الذى ظهر من النواب ، والانقسامات التى أدت الى زيادة طمع الدول..ان الشعب الشرقى على العموم والعثمانى خاصة ، لا يصلح للحكم الدستورى »

فاستأنس رامز بذلك الكلام وقال : « أنا لا أنكر عليك أن الحكم الاستبدادى اذا تولاه رجل عاقل عادل كان أسرع نتيجة فى الاصلاح ولكن .. »

وسكت مكتفيا بفطنة السامع ..

— ٤٥ —

الخوارج

فبادره عزت قائلا : « اسمح لى أن أقول بحرية تامة .. ان السلطان عبد الحميد مظلوم فى أحكام الناس .. انه أشد غيرة على سلامة الدولة من أى واحد منا ، لأن فى سلامتها سلامته

وتأييد سيادته ، ولم يعدل عن الحكم الدستورى الا غيرة على هذه الدولة التى أحدقت بها مطامع الدول من كل ناحية .. وهو بدهائه وذكائه وسهره قد حافظ عليها واستبقاها . ولو لم يتدارك الأمر بنفسه لانحلت وتقاسمتها الدول .. أنا أعلم الناس بالحقيقة .. صدقنى .. »

فأطرق رامز عند سماع ذلك ، وكاد يقتنع انه مخطىء لو لم يستدرك الأمر فقال : « يا للعجب كيف تقول هذا وليس فى الدنيا رجل واحد يوافقك عليه .. لقد أجمع النـــاس قاطبة من عثمانيين وغيرهم ان الخلل المستحوز على هذه المملكة انما سببه سوء الادارة الحاضرة ، وخاصة لأنها فى قبضة المابين وأهله .. سامحنى على هذا التصريح »

فضحك عزت ملء فمه وقال : « هذا موضوع الخلاف، ومنه منشأ المتاعب.. وسبب ذلك أننا نسىء الظن بسلطاننا ، والأجانب يسعون فى توسيع الخرق وتفريق قلوبنا .. نقول ان الدنيا كلها تعرف أن سبب الاختلال من المابين .. وأنا أقول ان سبب هذا الاختلال انما هو من الشبان الذين يسمون أنفسهم الأحرار ، ونحن نسميهم الخوارج .. وهم يطنطنون ويصيحون رجاء أن يعمد جلالة السلطان الى اسكاتهم بالمناصب أو المال على جارى العادة .. لا أنكر عليك أن بينهم أناسا يعملون باخلاص ، ولعلك واحد من أولئك المخلصين ، ولكن الباعث الأصلى انما هو طلب الرزق .. لقد مضى عليهم ثلاثون سنة ظهروا فى أثنائها بمظاهر

مختلفة انتهت دائما بما يثبت قولى . يظهر انك حديث العهد فى هذا الأمر ، وقد اندفعت فى تيار الأفكار الافرنجية التى يبثها الأعداء بين رعايا الدولة باسم الدستور أو الحرية ، وقد فاتهم أن لكل أمة ظروفا غير ظروف الأمم الأخرى.. ولو تركونا وشأننا لكنا فى خير .. انهم ليسوا أكثر غيرة على دولتنا من جلالة البادشاه.. انه ما فتىء بعد أن أخذ على عاتقه اصلاح الدولة ، وهو ينشىء المدارس العالية لتخريج الشبان المتعلمين ليتولوا مناصب الحكومة . ولكن أولئك المتخرجين أكثر كثيرا من المناصب الموجودة ، فمن لم ينل منصبا يغضب ويتخذ الطعن فى الحكومة ذريعة للاسترضاء بالمال ، لأن جلالة السلطان كان يقطع ألسنة الطاعنين أحيانا بالاغضاء ، ويقبل النادمين منهم ويحسن معاملتهم ، فتكاثر الشاكون وتفننوا فى الأسباب والذرائع ، وقلدوا الافرنج فى جمعياتهم السرية .. فالجمعية التى تشكلت الآن فى سلانيك ليست الأولى من نوعها ، وأؤكد لك انه لن تمضى برهة وجيزة حتى يأتينا العقلاء من أعضائها .. ويرجعوا الى رضى الذات الشاهانية .. فأرى أن تكون أنت أعقلهم وأنا أضمن لك حياتك وكل ما تريده ، وغاية ما يطلب منك أن تخبر جلالة السلطان عن أسماء الأشخاص القائمين بهذا العمل .. أعنى المتآمرين أصحاب هذه المفاسد وهم قليلون .. هذه نصيحتى لك »

وكان رامز يسمع هذا الكلام وهو مطرق يفكر ، فظنه عزت باشا قد اقتنع ولا يلبث أن يوافقه فقال له : « من هم هؤلاء

المؤسسون ؟ .. أظنهم بعض المتفرنجين الذين كانوا فى باريس أو جنيف ؟! » ..

فانتبه رامز لنفسه وقال : « ليس فى هذه الجمعية فرق بين مؤسس وغير مؤسس ، وأؤكد لك ان الخيانات التى بدت من بعض الأحرار فى الماضى لم تعد تتكرر ، لأن الأمة تعلمت كيف تطلب حقوقها .. فاذا كنت من محبى الاصلاح حقيقة ، فهذا هو وقت العمل .. »

فهزّ عزت رأسه استخفافا وقال وهو يضحك : « يظهر ان الغرور متمكن من نفسك ، وقد استهواك ما يطنطنون به من الألفاظ الضخمة : كالحرية ، والدستور ، ونحوهما .. وأتأسف لأن نصيحتى ذهبت هباء ، فاختر لنفسك ما يحلو وقد فعلت ما علىّ .. وسوف تعترف بالواقع مكرها ، عندما تذوق العذاب »

قال ذلك وتحرك من مجلسه ، وهو يخرج علبة السجاير .. ثم وقف وهو يظهر العتاب أو الغضب

أما رامز فظل جالسا وهو مطرق ينظر الى نقش جميل على غطاء المنضدة التى أمامه ، وقد استغرق فى أفكاره .. وفرغ عزت من كلامه ورامز لا يزال صامتا مفكرا ، فتوسّم عزت قرب انصياعه فتشاغل باشعال السيجارة ، ثم رأى الخادم داخلا بالقهوة ، فجلس وأشار الى رامز أن يتناول الفنجان ففعل ، وتناول عزت فنجانه وهو يراقب حركات ذلك الشاب ، فرأى الارتباك ظاهرا على محيّاه ، وقد استولى عليه الصمت.. فاستأنف

الكلام قائلا : « وقد أغضيت عما سمعته من حديثك لأنى حسبتك قلته قبل الدراسة والتفكير .. وأنصح لك يابنى أن تفكر قبل الجواب ثانية .. تأمل فيما يهددك من الخطر على حياتك ، اذا أصررت على التكتم » وسكت وهو يلاحظ حركات رامز ، فرأى حيرته ظاهرة فى حركة يده وهو يدنى الفنجان من فمه ، وينظر الى ما بين يديه نظرة المفكر ..

فقدم له سيجارة وقال : « لا ألومك على مابدا من سوء ظنك بجلالة السلطان وسائر أهل المابين لأنك لا تسمع أخبارهم الا من أعدائهم .. ولو مكثت هنا حينا ، وتعرفت اليهم لتحققت انكم مخطئون .. ولعلك تعود الى رشدك وتخلص الخدمة وتتأكد من صدق قولى »

وكان رامز قد فرغ من شرب القهوة ، فوضع الفنجان على المنضدة ونظر الى عزت وعيناه تبرقان وقال : « اذا لم يكن بد من أن أقول شيئا آخر ، فانى لا أقوله الا للسلطان نفسه »

فبش له وقال : « انت مخيَّر فى ذلك .. وأنا أقدمك لجلالته وأوصيه بك » قال ذلك وقد سر بنجاح مهمته

ثم وقف رامز واستأذن فى الانصراف ، فأذن له وأشار الى الحراس أن يوصلوه الى قصر مالطة .. وودعه وهو يبش له

فمشى رامز بقدم ثابتة وقد زال ارتباكه .. شأن من يتردد فى أمر ، ثم يستقر على رأى ، فوقع بصره وهو مار بباب يلدز الخارجى على مركبة مقفلة دخلت الباب ، فأحس عند وقوع

بصره عليها بخفقان قلب شديد لأنه لمح فيها امرأة تشبه شيرين . فاقشعرَّ بدنه ، وبعد لحظة غابت المركبة عن بصره .. فوقف وقد نسى حاله فنبهه أحد الحرس بطرف البندقية ، فانتبه ومشى وظن نفسه واهما فيما رآه واعتقد ان قلقه على شيرين أراه طيفها ، فهاجت أشجانه وما لبث ان دخل قصر مالطة حتى عادالىهواجسه

— ٤٦ —

أبو الحبيبة

قضى بقية ذلك اليوم وهو يفكر فيما يقوله للسلطان ، وطال انتظاره وهو لايعلم الوقت الذى سيحدده السلطان لمقابلته ، وتهيَّب من تلك المقابلة .. لكنه تجلد وتشجع ، وظل يجول فى ذلك القصر منفردا لا يرى أحدا ، ولا تبرح صورة شيرين من ذهنه وقد هاجت أشجانه .. ولما انقضى النهار ومالت الشمس الى المغيب تكاثفت هواجسه وتراكمت ..فجلس فى الشرفة المطلة على البوسفور ، واستغرق فى أفكاره ، وتصور شيرين بين يديه تعاتبه أو تشكو اليه ، فتذكر ما شاهده فى ذلك الصباح وقال فى نفسه : « هل يمكن أن تجىء ؟ .. انما رأيت خيالها أو هذه روحها جاءت لتعزينى .. »

وبينما هو غارق فى هذه التأملات جاء خادم لانارة المصابيح كالعـــادة ، فلم يلتفت اليه .. ثم رآه آتيـــا نحوه الى الشرفة

فاستغرب مجيئه وتجاهل ، فاذا هو يخاطبه قائلا : « تفضل أفندم اذا شئت الى الصالون »

فأجفل ووقف وسار نحو القاعة ، وقبل وصوله اليها سمع نحنحة اضطربت لها جوارحه ، وكاد الدم يجمد فى عروقه لأنها تشبه نحنحة طهماز ، واستبعد أن يكون هناك ، لكنه تمنى أن يكون هو نفسه لعله يستطلع منه خبر شيرين ، ولما وصل الى الصالون رأى طهماز يتمشى بقرب بابه وعليه ثوب مزركش بالقصب .. يلبسه أصحاب الرتبة الثانية ، وقد تقاعس وتطاول وأصلح من شأنه وفتل شاربه حتى كاد يشك رامز فى أمره ، لكنه ما لبث أن تحقق منه فبغت واستأنس برؤيته ، لأنه والد الحبيبة رغم ما كان من ثقل روحه عليه ، فتقدم نحوه وحياه

فرد التحية وهو يبتسم ابتسام الاعجاب ، ومشى معه الى صدر القاعة ودعاه الى الجلوس ، وجلس وهو يقول : « هكذا فعلت بنفسك يا رامز ؟ .. ألم يكن الأولى بك أن تسمع نصيحتى ؟ .. »

فاستثقل رامز ذلك العتاب وان لم يستغربه من طهماز فأجابه : « مالنا وما مضى يا عماه .. أين هى شيرين الآن » ..

فقال طهماز : « شيرين ؟ .. شيرين المجنونة ؟ .. من يعلم أين هى ؟ » ..

فقال رامز : « كيف لا تعرفون أين هى ؟ .. »

قال طهماز : « الذى نعرفه انها فرت من سلانيك مع الخادم

خوفا من الوقوع فيما وقعت فيه أنت .. فذهبت الى مناستير أو الى رسنه لأن لها هناك بعض الرفاق من أمثالها وأمثالك .. أهل الطيش الذين يقلدون النصارى بأفكارهم وسوف ينالهم ما نالك »
قال ذلك وهو يفتل شاربه ، وأخذ فى اصلاح القصب على كمه وطوقه ، وكأنه يلفت نظر رامز الى الرتبة التى نالها ..

فأعمل رامز فكره فيما سمعه ، وأغضى عما تخلل الحديث من سوء التعبير وفساد الذوق ، لأن الأمر المهم عنده أن يعرف أين هى شيرين ، فغلب على ذهنه صحة ذلك القول لعلمه بالصداقة المتمكنة بينها وبين صديقة لها فى مناستير ، وهى خطيبة صديقه نيازى بك ، لكنه لم يفهم ذلك السبب الذى أوجب فرارها ، فتجلد وأعاد السؤال على طهماز قائلا : « لا تغضب ياعماه اذا سألتك سؤالا ثانيا .. ما هو السبب فى فرار شيرين ؟ .. »

فضحك ثم قطع السعال ضحكه وقال : « سبب فرارها أنت.. ألا تعلم انك أوقعتنا جميعا تحت غضب الذات الشاهانية . ولولا صديقنا صائب بك لكنا تحت طائلة القصاص مثلك . ولكنه أبلغ صدق عبوديتنا الى مولانا السلطان فكافأنا بالتلطيف والرتب . وأما تلك الجاهلة الحمقاء فأبت الا العناد ، وقد عثروا على أوراق لهـا بين أوراقك تشترك فيهـا معك ومع أصحابك فى المفاسد ، وقد علمت بذلك .. فبدلا من الاعتذار ، أصرت على عنادها وخافت من القبض عليها ففرت »

فقال رامز : « وأين والدتها ؟ » ..

قال طهماز : « ذهبت للتفتيش عنها فى مناستير .. وهى لا تقل طيشا عنها ، مع انى كثيرا ما أنذرتها بهذه العاقبة منـــذ رأيت مناهضتك لجلالة الخليفة أمير المؤمنين .. وأنا لولا سابق علاقتى بالمرحوم والدك لم أهتم بأمرك .. ولكن قلبى طيب وقد وصلت الى يلدز فى هذا الصباح ، ولقيت كل اكرام وحفاوة من سعادة الباشكاتب والسر خفية ، وسائر الباشوات والياوران ، وأنعم علىّ بالرتبة .. وعلمت منهم انك فى هذا القصر ، فاستأذنت فى مقابلتك لعلى أستطيع اقناعك لترجع عن عنادك . وقد أكد لى صائب بك انك اذا بحت بأسماء مؤسسى هذه الجمعية يعفى عنك وتنال الجوائز والهدايا ، ويعفى أيضا عن شيرين ــ فاسمع منى واقلع عن غيِّك ــ وقد نصحتك هذه النصيحة مرارا ولم تنتصح ووقعت فى شر أعمالك ، فاسمع نصيحتى هذه المرة فقط »

وكان لكلام طهماز تأثير شديد على قلب رامز لأسباب كثيرة ، أهمها انه ذكر فيه والده وسماه المرحوم ، وهو لايعرف مقره ولا يعلم هل هو حى أو ميت ، ويكفيه من أسباب القلق ما سمعه عن شيرين وقد أغضى عما تخلل ذلك من الكلام البارد والدعوى الفارغة ، ورأى انه لم يعد يتوقع فائدة من حديث عمه فأحب التخلص منه فقال : « أنا سامع نصيحتك هذه المرة ولذلك فقد عزمت أن أقول الحقيقة ، ولكننى اشترطت أن لا أقولهـــا الا للسلطان نفسه .. وأنا فى انتظار الموعد للمثول بين يديه » ..

فضحك وهز رأسه وهو يقول : « عفارم .. عفارم رامز ..

ستقابل جلالة السلطان فلا تخف عنه شيئا ، وأرجو أن تذكرني بين يديه وتبين لجلالته انى كثيرا ما كنت أنصحك هذه النصيحة عفارم .. عفارم .. ولا شك انك ستنال العفو .. هكذا أكد لى صائب بك وستنال الرتب والأموال » قال ذلك ووقف فودعه وخرج وهو يتهادى فى مشيته ، ورامز ينظر اليـه ويعجب من ضخامة جسمه ، وصغر نفسه ، وقلة عقله ..

- ٤٧ -

تلغراف من شبرين

أما السلطان عبد الحميد ، فبعد خروج عزت من عنده .. عاد الى التفكير فيما يحدق به من الأخطار ، ولم يكن عنده شك فى نجاح عزت فى هذه المهمة . وقضى بقية اليوم فى مطالعة التقارير، وبعد العشاء جلس لمطالعة ماكيافالى كالعادة . واذا هو بالحاجب قد دخل يستأذن للباشكاتب ، فعلم ان مجيئه فى تلك الساعة لا يكون الا لأمر هام ، فأمر بادخاله .. فدخل وقدم له ظرفا علم من شكله انه تلغراف ، ففضّه السلطان عبد الحميد وقرأه ، فاذا هو من الاستانة ، وهذا نصه :

« الى جلالة البادشاه

عنـدى أمور تهم الذات الشـاهانية ، أطلب الاذن بالمثول لعرضها على جلالته .. »

« شبرين »

فأعاد السلطان عبد الحميد قراءة التلغراف مرارا ، ثم نظر الى الباشكاتب قائلا : « ان هذا الاسم اسم امرأة .. هل تعرفها ؟ »

قال الباشكاتب : « خير أفندم .. »

فقال السلطان : التى بالسر خفية ، وامضِ أنت وأجب على هذا التلغراف أن تأتى حالا .. »

فأشار مطيعا وخرج .. وبعد قليل أتى السر خفية ، فدفع السلطان التلغراف اليه .. فحالما قرأه ابتسم وقال : « ان مجىء هذه الفتاة فوز عظيم يا مولاى »

قال السلطان : « ومن هى .. ؟ » ..

قال السر خفية : « هى خطيبة الشاب رامز الذى قبض عليه فى سلانيك ، وهو يحبها ويتفانى فى مرضاتها .. »

فانبسطت أسرَّة السلطان عبد الحميد وهز رأسه ، ولسان حاله يقول : « قد ظفرنا بالمطلوب ، ولعل الفتاة خافت على خطيبها اذا ظل على عناده لئلا يفشل ، فأتتنا لتبوح بالسر وتنجيه » ونظر الى السر خفية ، وقد استخفه الظفر وقال : «ماذا ترى ؟ .. »

قال السر خفية : « الرأى لمولاى .. وأظنها ستطلعنا على ما ينكزه رامز طمعا فى نجاته ، واذا لم تفعل فان والدها عندنا وهو من أصدق عبيد جلالة السلطان ، وقد نال المكافأة بالرتبة أمس على يد عبدكم صائب »

قال السلطان : « هى بنت طهماز بك ؟ »

قال السر خفية : « نعم يا مولاى .. »

فحدق السلطان فيما بين يديه من الأوراق ، وقال : « ينبغى كتمان أمر هذه الفتاة عن كل انسان حتى عن خطيبها وأبيها » ثم وقف على التليفون وطلب الباشكاتب فأجابه ، فقال : « ينبغى أن يكون مجىء تلك الفتاة سرا ، ادخلها القصر وسلمها الى نادر أغا ، وأوصه بكتمان أمرها عن الجميع .. فهمت ؟ .. »

فأجاب الباشكاتب : « نعم أفندم .. » ثم انصرف السر خفية

وبات السلطان تلك الليلة وأفكاره تتقاذفه ، والأمل ملء صدره ان عزت سيتمكن من كشف أمر هذه الجمعية ..

وجاءه الباشكاتب فى الصباح وأنبأه أن شيرين أتت وسلمها الى نادر أغا ، فبعث اليه وأوصاه بكتمان أمرها . ثم جاء عزت وأخبره بما قاله رامز من انه لا يبوح بسره الا لجلالة السلطان ، فازداد السلطان اقتناعا ببلوغ هدفه ، وقال : « ليأتنى فى صباح الغد » .. وحدّد الساعة ..

— ٤٨ —

موعد المقابلة

وكان رامز قد بات تلك الليلة تتقاذفه الأفكار ، وأكثر تفكيره فى شيرين ، وقد غلب فى اعتقاده انها فرّت الى مناستير وكذب نظره ، وتصوّر انه انما رأى امرأة تشبهها .. وفى الصباح جاءه ضابط البانى يدعوه الى المابين الصغير لمقابلة السلطان ، فلما

تحقق من الأمر تهيب ، ولكنه تجلد ومشى بين يدى الحراس حتى أتى باب المابين ، فأمسك به أحد الياوران الواقف هناك ودخل معه الى غرفة خاصة ، وفتش ثيابه حتى يتحقق من خلوها من الأسلحة ، ثم استأذن له فدخل رأسا بدون واسطة صاحب التشريفات — هكذا أمر السلطان — ومشى متأدبا حتى وقف بباب القاعة التى يقرأ السلطان بها التقارير ، وألقى التحية على جارى العادة ، ووقف فأشار اليه السلطان أن يتقدم وأومأ الى مقعد وأمره بالجلوس ، فجلس وهو لم يتعود الآداب المتبعة فى مثل تلك المقابلات .. ولم يهتم السلطان بذلك لانصراف تفكيره الى استكشاف سر تلك الجمعية ، فانتظر برهة ، ثم قال : « أنبأنا كاتبنا عزت باشا انك ألهمت الصواب ورجعت الى صادق العبودية ، وقد سرنا ذلك ، ولم نر بأسا من مثولك بين يدينا ، فان صدرنا ينشرح بمشاهدة المتفانين الصادقين فى خدمة الدولة ، وستتحقق من ذلك متى برهنت على اخلاصك لعرشنا .. »

فأشار رامز بالموافقة ولم يجب ، ولكن غلب عليه التأثر .. ولو كنت الى جانبه لسمعت دقات قلبه لفرط ما تملكه من التهيب لاقدامه على أمر لم يتقدم عليه سواه .. ولكنه تجلد وتماسك ، وبلع ريقه استعدادا للجواب .. فابتدره السلطان عبد الحميد قائلا : « تكلم يابنى .. أخبرنا عن أولئك المفسدين الذين أغروك على الدخول فى تلك الجمعية ، وهم يظهرون لك انهم يريدون الاصلاح وانما هم يطلبون الفساد ، ويقفون حجر عثرة فى طريق

العمل ، ويغررون بالشبان العقلاء ، فيصرفونهم عن خدمة الدولة الى أعمال صبيانية .. قل من هم ؟.. »

فتجلد رامز وهو يخشى أن يخونه النطق ، ولكى يزداد جرأة تصور شيرين واقفة تسمعه ، فأحس برباطة جأش لم يعهدها فى نفسه من قبل ، فقال : « هل أقول للسلطان وأنا مطمئن ؟.. »

قال السلطان : « قل .. وكن مطمئنا »

قال رامز : « ربما قلت أمورا لايتوقعها جلالة السلطان من مثلى ، وأنا أعرف أنى أعرض حياتى للخطر .. وانما يحملنى على التصريح بها غيرتى على هذه الدولة »

فابتدره السلطان : « قل ماتريد .. وكن مطمئنا »

قال رامز : « أنا لا أسمى أعضاء تلك الجمعيـة مفسدين ، ولا أعتقد أنهم يسعون فى تقويض هذه الدولة .. بل أنا أعتقد أن المفسدين هم الذين ينقلون الأخبار الى جلالة السلطان .. اعنى طائفة الجواسيس الذين يرتزقون بالدسائس والوشايات . هؤلاء ياسيدى هم المفسدون .. »

فبغت السلطان عند سماعه هذا التصريح الذى لم يسمع مثله من أحد جهارا قبل تلك الساعة ، لكنه على عادته تجلد وأظهر الاستحسان ، وقال : « يعجبنى أصحاب الأفكار الحرة .. لو كان رعاياى كلهم فى مثل هذه الأخلاق لنجت الدولة من المشاكل قل ما تريد .. »

فلما آنس رامز هذا الاعجاب من السلطان ذهب خوفه ،

واعتقد انه فائز بما هو عازم على الأخذ به .. فأبرقت أساريره ، وخطر له فى تلك اللحظة ان الأحرار يظلمون السلطان عبد الحميد بما يشيعون عنه من الأنانية والظلم ، لما ظهر له من لين جانبه وسهولة اذعانه للحق .. فقال : « أخشى يامولاى انى تجاوزت حدى فى الجرأة على جلالة البادشاه ، ولكننى أقول مايوحيه الى ضميرى .. يظهر لى يا سيدى ان سبب الخلاف بين جلالتكم ورعاياكم ،انماهو سوء التفاهم بما يدسه المفسدون من الوساوس طمعا فى الدنيا . ولو علم الشبان الأحرار ما عليه سلطانهم من لين الجانب والرغبة فى كشف الحقيقة ، لما جعلوا بينهم وبينه واسطة ، فيحسن التفاهم ، ويذهب ما فى النفوس ، وهم عند ذلك عبيد طائعون لأن هدفهم التفانى فى خدمة الدولة .. و .. »

فقطع السلطان عبد الحميد كلامه ، وهو يظهر الاهتمام بما يسمعه وقال : « وأنا طبعا لا هدف لى سوى مصلحة رعاياى ورفاهيتهم ، ولكنى عاتب على الذين يسيئون الظن بى منهم وينحازون الى الأجانب .. واذا كانت لهم شكوى وجب عليهم أن يرفعوها الى لأنى لا أعد نفسى سلطانا عليهم ، بل أنا كوالد لهم .. »

فدهش رامز لهذا العطف وظن نفسه فى حلم ، ولا بد انه خطر له سوء الظن بما يقوله السلطان ، لأنه كان يسمع عن مكره ودهائه ويعلم أن الأحرار لم يقصروا فى رفع تظلمهم اليه بالتقارير ونحوها ..

لكن هذه المقابلة أثرت فى اعتقاده وغلبت على رأيه ، فأحس بخطأ من يتهم السلطان بالمكر أو الرياء ، وظن أن التقارير التى كان يرفعها الأحرار لم تكن تصل اليه — تلك كانت مزية السلطان عبد الحميد التى كان يغلب بها أعداءه — فان أحدهم مهما يكن من سوء ظنه به لايلبث اذا جالسه وخاطبه أن يخرج من عنده ، مقتنعا راضيا ، حتى كبار رجال السياسة من الأجانب . وقد اعترف له كثيرون منهم بهذه الموهبة

ولم يكن رامز من أهل الدهاء والحنكة ، وانما يغلب فى طباعه حرية الضمير ، واستقلال الفكر .. لايعرف الكذب ، ولا يدرك الرياء والنفاق الا بالسماع . فهو لذلك سريع التصديق لما يسمعه يؤمن به على ظواهره .. فلما سمع كلام السلطان عبد الحميد تأكد أنه صادق فيما يقول ، وحمد الله على وقوعه فى تلك الورطة ليكون وسيلة حسن التفاهم بين السلطان عبدالحميد والأحرار ، فقال : « انى أعد نفسى سعيدا لمثولى بين يدى جلالة السلطان ، وأرجو أن أكون واسطة لحسن التفاهم . وقد انتقد جلالته تقاعد رعاياه الأحرار عن رفع شكواهم اليه رأسا ، ولكننى على ثقة انهم فعلوا ذلك مرارا وتكرارا .. فرفعوا التقارير المطولة عن المملكة العثمانية وماتحتاج اليه من الاصلاح .. ولم يلجأ بعضهم الى الأجانب الا يأسا من وصول أصواتهم الى مولاهم .. »

فهز السلطان عبد الحميد رأسه هز الانكار وهو يظهر الدهشة ، وقال : « أين هذه التقارير ؟.. والى من رفعوها ؟.. »

قال رامز : « رفعوها الى المابين ياسيدى .. »

فأظهر السلطان عبد الحميد غضبه وهو يقول : « انى محاط بلصوص منافقين ، يهمهم توسيع الخرق ليستفيدوا من النزاع .. قد فهمت الآن .. » ثم نهض ونظر الى رامز نظرة الاستئناس ، وقال له بصوت منخفض : « اكتم ما دار بيننا ، وأنا سأكتمه .. وسأعيدك الى سجنك كالعادة ، وأوصى الحراس أن يحتفظوا بك فلا تهتم لذلك .. »

فنهض رامز وأكب على يد السلطان يقبلها من شـــدة الفرح والاعجاب ، واستأذن فى الانصراف.. فأمر الحاجب أن ينقله الى سجنه . فخرج رامز وسار بين يدى الحراس حتى أعيد الى قصر مالطة ، وقلبه يطفح سرورا وقد امتلأ صدره أملا .. على انه كان يحسب نفسه فى حلم

— ٤٩ —

الخلوة

لما خلا السلطان عبد الحميـــد بنفسه ومشى فى الدهليز المؤدى الى غرفة النوم ، وقع نظره على الصـــورة التى مثلوا له بها مدحت ورجاله ، فوقف عندها وهو يحدق فيها بعين الغدر ، كأنه يرى مدحت بين يديه ويهم أن يصفعه ، ثم صر على أســـنانه وزمجر كالشبل الجريح ، وهز رأسه وهو يتحول عن الصـــورة

وقال : « ويل لكم من أشرار أغرار .. تصدقون أن السلطان عبد الحميد يصبر على وقاحتكم باسم الحرية ؟.. أبمثل هذه الجسارة يخاطب السلطان عبد الحميد ، سلطان البرين ، وخاقان البحرين؟ حتى هؤلاء الغلمان يزعمون انهم ينصحون لى ؟.. ان رجلا يخاطبنى بهذه الوقاحة لاينبغى له أن يبقى على قيد الحياة .. » قال ذلك ومشى الى علبة السجائر فأشعل منها سيجارا ، ونفخ بدخانه نفخة ملأت جو الغرفة ، وتنهد وهو يجلس على مقعد طويل هناك ، ثم استلقى عليه وهو يقول : « ولكن ما الحيلة فى كشف سر هذه الجمعية ومعرفة أعضائها العاملين ؟ .. انى اذا ظفرت بهم ذهب خوفى .. ان أولئك المغرورين يطلبون الدستور لقد طلبه قبلكم رجال ذوو لحى وحنكة ودهاء ، وذهبوا قتلا ، ونفيا ، وغرقا .. وسأفعل بكم كذلك !.. لابد أن أقف على أسراركم ان لم يكن بالحيلة ، فبالسيف ، أو بالمال ، أو بأية وسيلة .. لاينبغى أن أعتمد فى ذلك على أولئك الأعوان الملاعين، سأبحث عنه بنفسى .. ان هذا الشاب عنده سر الجمعية ، فكيف أعرفه منه ؟ .. »

ونهض من على المقعد وهو يحك عثنونه ليستحث ذاكرته ، وينبه قريحته . ثم وقف بغتة وأشرق وجهه كأنه فتح عليه أو هبط عليه الالهام بالصواب فقال : « شيرين .. هذه الفتاة التى حملها موضوع رامز على المجىء الينا لابد انها فعلت ذلك ، وفى خاطرها أن تفتدى حبيبها بكل شىء . ومن أسهل الأمور عليها أن

تشتريه بكشف سر تلك الجمعية .. وهى بلاشك تعلم أعضاءها »
ولما خطر له ذلك صفق فجاءه الحاجب ، فطلب اليه أن يحضر نادر أغا ، وما لبث أن كان ذلك الخصى بين يديه ، وقد وقف منتصبا ولولا الستامبولينا الطويلة التى تزمل بها لظهرت ساقاه الطويلتان مثل سائر الخصيان ـــ كأن الخصى يطيل الساقين ـــ وقف نادر أغا وهو يتأهب للعمـــل بأمر مولاه ، فقال السلطان عبد الحميد : « أين ضيفتك الجديدة ؟.. »

قال نادر أغا : « هى فى حرز حريز »

قال السلطان : « هل خاطبتها وعرفت شيئا عنها ؟.. »

قال نادر أغا : « لو أمرنى مولاى ذلك لفعلت ، ولكننى لا أجسر على ذلك بدون أمره .. »

فضحك السلطان وقال : « بورك فيك يافتى .. آتنى بها .. »

فمضى نادر أغا ودخل السلطان عبد الحميد الغرفة المؤدية الى دار الحريم ، وأخذ فى اصلاح شأنه أمام المرآة . وكان شديد الرغبة فى المحافظة على نضارة الشباب .. حتى انه كثيرا ما كان يتزين ويتبرج تبرج النساء لهذه الغاية ، فضلا عن الخضاب . ثم جعل يخطر فى الغرفة وهو مطرق يفكر ، حتى أتى نادر أغا ينبئه بمجىء الفتاة ، فأمر بادخالها .. فدخلت وقد زادها التهيب رونقا وركبتاها تصطكان من شدة الخوف ، لأنها بعثت ذلك التلغراف ودخلت المابين وهى كالتائهة ، ولم تقدر عواقب جسارتها ، وانما فعلت ذلك مدفوعة بالخوف على رامز .. ورأت صائب بك يهددها

بالوشاية بها ؛ فسبقته الى المجيء وفى نفسها مثـــل ما فى نفس حبيبها من جهة السلطان وأعوانه .. اذ لم يكن يدور فى خلدها ان من يقبض على أنفس العباد ويتولى الخلافة يرتكب ذلك الشطط فى سياسته ، الا وهو يجهل حقيقة حال مملكته .. وانه لو عرف الحقيقة لرجع الى الصواب ، على أنها كانت تتصور ذلك الأمر أهون مما هو . ولم تكد تدخل يلدز وترى قصورها وحدائقها وميادينها ، وما انبث فى أطرافها من الحراس والأعوان ، حتى تهيبت وأدركت خطـــأها . وكانت تتوقع أن تستطلع حال رامز ساعة وصولها فتطمئن عليه أو تشجعه .. فاذا هى لا تكلم الا صما بكما ، لايجيبها أحد على سؤال.. فخيّل لها بعد مارأته من تجاهل الناس أمر رامز انه لم يأت الى يلدز ، وتصورت أن ناظم بك دس له من قتله فى الطريق وندمت على مجيئها

— ٥٠ —

شيرين وعبد الحميد

فلما دعيت شيرين لمقابلة السلطان عبد الحميد تجلدت جهد طاقتها ، ودخلت وعليها اليشمك يغطى رأســـها ومعظم وجهها ، وكان السلطان عبد الحميد عند دخولها يخطر فى تلك الغرفة مظهرا عدم الاكتراث .. فألقت التحية ووقفت ، فأشار السلطان عبد الحميد الى نادر آغا أن ينصرف ، وأومأ اليها أن تجلس ، فظلت

واقفة وهى تسترق النظر الى وجهه .. فرأت الشرر يكاد يتطاير من عينيه . ثم رأته يجلس على مقعد وهو يومىء اليها أن تجلس على مقعد آخر بين يديه ، فجلست وقد امتقع لونها .. وأدرك هو ما بها فابتسم وقال : « أنت شيرين ؟ »

قالت شيرين : « نعم ياسيدى .. »

قال السلطان : « يظهر لى انك من أهل الذكاء والاخلاص . فعساك أن تكونى قد حملت الينا خبرا يهمنا كما قلت .. »

فارتبكت شيرين ، ولكنها تمالكت وتجلدت ، وتصورت انها تطلب نجاة رامز حبيب قلبها ، فقالت : « نعم يامولاى .. انى لم أقدم على هذه الجسارة الا عن اخلاص وصدق نية »

فقال السلطان : « قولى واصدقينى .. واعلمى انك فى حضرة أمير المؤمنين » ..

فأشارت شيرين اشارة الاحترام وقالت : « ان ذلك شرف لى» وسكتت وهى تود قبل الكلام أن تعرف اذا كان رامز هناك ، وماذا جرى له . وأدرك السلطان عبد الحميد ما يجول فى خاطرها ، فأراد أن يجعل رامزا وسيلة لاقرارها ، فقال : « قد علمت السبب الذى حملك على المجىء الينا وتكبدت هذه المشقة من أجله ، ويظهر أنك خائفة . فلا تخافى اذا كنت تنوين الاخلاص فى قولك .. والا فانك .. » وسكت

فتوسمت شيرين فى كلامه شيئا مما خطر لها ، فقالت : « أقسم لمولاى انى لا أقول غير ما يدعونى اليه الاخلاص .. و .. »

فقطع السلطان عبد الحميد كلامها قائلا : « وقبـــل أن تقولى شيئا اعلمى أنك تتكلمين عنك وعن رجل آخر يهمك أمره ، وهو تحت خطر القتل الآن .. »

فلما سمعت شيرين لفظ القتل أجفلت وقالت : « من يعنى مولاى ؟.. هل رامز هنا ؟.. »

قال السلطان : « هو هنا فى حوزتنا ، وقد خاطبناه وسألته أسئلة جعلنا حياته رهنا على صدقه فى الجواب عنها ، فأجاب عن البعض ، واعتذر أنه لايستطيع التصريح بكل شيء ، لأنه أقسم الايمان المغلظة على الكتمان ، فلم يبق سبيل الى نجاته .. فهو مقتول حتما ، الا اذا أنقذته بصدقك » قال ذلك وهو يراقب حركاتها خلسة ، فرآها قد ارتبكت فى أمرها وامتقع لونها وقالت: « وما الذى يطلبه مولاى منى ؟ .. » ..

قال السلطان : « انى أطلب شيئا يسهل عليك كثيرا ، ولا ريب عندى ان رامزا لولا تقيده بالقسم لذكره بعد أن تحقق انه مخدوع ، وربما رجع الى صـــوابه فى الغد . أما أنت فلا يربطك قسم فانقذيه وانقذى نفسك ، ولا أكلفك شيئا غير التصريح لى بأسماء مؤسسى الجمعية التى تسمونها «جمعية الاتحاد والترقى» فى سلانيك ، وبذلك تنقذين نفسك ونفس رامز وأنفس كثيرين وقعت عليهم الشبهة ، وقد يكونون أبرياء ، ولا نحب أن نأخـــذ البرىء بجريرة المجرم »

فاستغربت شيرين أن يكون رامز قد تساهل فى أمر الجمعية ،

ولم يبد الثبات الذى تعهده فيه لنصرة الحق .. لكنها مالبثت أن عادت الى صوابها وتذكرت مايقال عن دهاء السلطان عبد الحميد وتفرست فى عينيه فأدركت بشعورها كامرأة ان ذلك الطاغية يخدعها ، وان رامزا لايمكن أن يبوح بشيء ، فقالت : « انى ياسيدى قد طلبت المثول بين يدى جلالة البادشاه لأتلو عليه أشياء تتعلق بالدولة ، ربما لم تبلغه بعد .. ولو علم حقيقتها لأوقع قصاصه على غير أفراد تلك الجمعية .. »

فرأى السلطان عبد الحميد ان تعريضه برامز لم يغير من عزمها، فأراد أن يسايرها ، فقال : « ماذا تعنين ؟.. »

قالت شيرين : « أعني يامولاى ان الذات الشاهانية لا تصلها أخبار الدولة الا على أيدى أناس يتكسبون بالكذب والرياء ، فيزينون لجلالة السلطان غير الواقع التماسا لرضاه ، ويكتمون عنه الحقيقة ، وهم يقفون سدا بينه وبين رعاياه الصادقين المخلصين .. »

فوجد السلطان فى نغمتها مثل مافى نغمة حبيبها رامز ، فرأى أن يخدعها ، فقال : « قولى ما فى خاطرك .. انى أحب الاطلاع على الحقيقة .. »

قالت شيرين : « ان حالة الدولة فى اضطراب شديد.. وليست الجمعية التى تشكلت فى سلانيك مما يستخف بها ، وأعضاؤها أخلص الرعايا لجلالة السلطان . فلو اتخذهم جلالته أعوانا وشملهم برعايته لأنقذ الدولة من مهاوى الانحطاط ومن مخالب

الأجانب .. ان مطاردة « جمعية الاتحاد والترقى » لا تفيد شيئا لأن الامة كلها ناقمة على الحالة الحاضرة لما تمكن من الفساد فى جسم الدولة بما يراه الناس من استئثار رجال المابين بالأموال ، لايهمهم خربت البلاد أو عمرت .. وقد أدرك هؤلاء هذه الحقيقة فأصبح همهم منصرفا الى جمع الأموال لأنفسهم ، وتفانوا فى اقتناء العقار ، وخبأ العارفون منهم ثروتهم فى مصارف أوربا وأمريكا ، وطلبوا أعلى الرتب والمناصب فنالوها . واستفادوا من الحالة الحاضرة بقدر ما أمكنهم .. ولم يفكر أحد منهم الا فى نفسه وأولاده ، ثم فى الأقرب فالأقرب من عائلته .. واستماتوا فى طريق الوصول للثروة ونفوذ الكلمة بالتقرب من جلالتكم ، واستولوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشينها وألقابها .. حتى وجهت رتبة أمراء العسكرية ، ورتبة بالا العلمية الى المشايخ ذوى التيجان والعمائم ، وقد أصبح مقررا اعفاؤهم من الخدمة العسكرية واعفاء من انتسب اليهم .. وسقط اعتبار الدولة فى نظر الأجانب ، وأصبح العثمانيون أنفسهم المقيمون فى البلاد الأجنبية يستنكفون من الانتساب الى الدولة العثمانية ، وأصبحوا لايرون علاجا لهذه الحال الا بالرجوع الى الحكم الدستورى لاكتساب ثقة الدول بعد ان كانت نتيجة الحكم الاستبدادى خروج كثير من الايالات العثمانية الى سلطة الأجانب ، أو الاستقلال كما حدث فى الفلاخ ، والبغدان ، والروملى الشرقية ، والبوسنة ، والهرسك ، والجبل الأسود ،

والسرب ، وقبرص ، وتونس ، وتساليا ، ومصر ، والسودان ، وغيرها . وعدد سكان هذه البلاد يزيدون على ثلاثين مليونا .. خرجت كلها من سيادة الدولة العثمـانية بسوء سياسة أولئك المقربين . ولا ريب عندى أن جلالة السلطان مخدوع بما ينقله اليه المتملقون الذين لايهمهم الا مصالحهم الخاصة وقد أصبحت أكثر أموال الدولة تنفق عليهم وسائر أهل المملكة فى جوع .. حتى الجند .. »

— ٥١ —

القـادين ج

وكانت شيرين تتكلم والاهتمام باد فى عينيها ، وكان صوتها فى بادىء الأمر يرتجف وينقطع ، ثم انطلق لسـانها وفاضت قريحتها ، ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها والسلطانمطرق يسمع ما تقوله ، ويعجب من جسـارتها ويكاد يتميز غيظا من أقوالها . وحدثته نفسه أن يذهب بحياتها فى تلك اللحظة بطلق نارى من مسدسه ، لكنه كظم غيظه التماسا للوصول الى غرضه وهو الاطلاع على سر تلك الجمعية ، فقال وهو يظهر الاعجاب بما سمعه : « يسرنى أن يكون فى مملكتى نساء لهن هذه المعرفة وهذه الغيرة .. ان أمة فيها من أمثالك لجديرة بالدستور . وكم كنت أود أن أعرف زعماء هذه الحركة لأباحثهم وتتفق على طريقة

للنجاة من الخطر .. وأراك مع ذلك تكتمين عنى أسماءهم ، وأنا ألقى عليك اللوم على ذلك لأنك لو أخلصت الخدمة لذكرت بعض الذين تظنين فيهم اللياقة لهذا التغيير .. ولعلك تفعلين بعد الآن اذا تحققت من انى أشد غيرة على هذه الدولة من سواى » قال ذلك وأظهر عدم المبالاة باستطلاع سر الجمعية ، لعل ذلك يهوّن عليها الاقرار بالحقيقة ..

أما هى فظلت ساكتة وقد كادت تصدق ما قاله السلطان عبد الحميد من رغبته فى الاصلاح . على انها فضلت السكوت لأن شعورها حملها على سوء الظن بما سمعته ، وعادت الى أمر رامز وأحبت أن تحتال فى معرفة حقيقة حاله فقالت : « انى لا أعرف شيئا عن أعضاء هذه الجمعية .. ولعلى اذا اجتمعت برامز أمكن أن نتعاون على خدمة جلالة السلطان فى هذا الشأن .. »

فأدرك السلطان عبد الحميد انها تكذب وانها انما تحتال للاجتماع به للتعاهد على الانكار ، لكنه أظهر الاقتناع بقولها ، وقال : « سوف أجمعك به » ووقف ونادى : « نادر أغا » فجاء فأشار اليه أن يأخذها الى محبسها ويعود

فلما عاد نادر أغا ، قال له السلطان عبد الحميد : « اخف هذه المرأة عن عيون الناس كافة ، واحذر أن تعرف مكان خطيبها أو يعلم هو انها هنا .. »

فأشار نادر أغا مطيعا وهمّ بالخروج ، فناداه وقال : « ماذا حدث للقادين ج ؟ »

« ووقف ونادى : « نادر اغا » فجــاء نادر اغا فاشار اليه السلطان ان ياخذها الى محبسها ويعــود .. وطلب منــه ان يخفيها عن عيون الناس كافة . . . »

قال نادر أغا : « قرب موعد قتلها وهو الليلة »

قال السلطان : « أجّل ذلك وقل لها : انى اشتقت لرؤيتها فلتأت الىّ بعد القيلولة لتلبسنى ثيابى وحدها .. وأظنها ستفرح بذلك كثيرا »

فقال نادر أغا : « انها ستجن من شدة الفرح طبعا »

فضحك السلطان عبد الحميد وقال : « افعل كما قلت لك »

فأشار نادر أغا مطيعا وخرج ..

فعاد السلطان عبد الحميد الى مناجاة نفسه قائلا : « لايستطيع اخراج هذا السر منها الا تلك القادين الداهية .. انهـا ماهرة فى أساليب الحيل ، وهى تحبنى ولكن .. دعنى أكلفها بهذه الخدمة وسأرى مايكون .. »

وذهب السلطان عبد الحميد بعد الغـداء الى غرفة النوم ، وبعد القيلولة أتت القادين ج ، وقد أصلحت من شأنها ، وكادت تطير من شدة الفرح بهذه الدعوة التى يحسدها عليها سـائر القوادين وخاصة بعد أن أهملها مدة طويلة ، وهى لا تعرف السر فى ذلك الاهمال

فلما دخلت عليه ، حيته بالطريقة المعتادة ، ووقفت تلتمس اشارته فقال لها وهو يمازحها : « أظنك اذا شغلت أنا عنك بمهام السلطنة لا أخطر ببالك .. » فقالت بلهفة : « انى خادمتك وطوع اشـارتك ، وأنت مالك الرقاب والقلوب .. انى أقبّل موطىء قدميك وأتفـانى فى .. » وتنهدت وتشاغلت بتقديم الدراعة

لتلبسه اياها ..

فأدرك انها تشير الى حبها الشديد له فقال : « تزعمين انك تحبينني ؟ » ومد يده ليدخلها فى كم الدراعة . فقالت وهى تدير الدراعة نحو يديه : « انى أعبدك ياسلطانى .. يامولاى .. انى لا أجد عبارة أعبّر بها عن حبى »

فقال السلطان : « وأنا أيضا أحبك كما تفعلين ، ولكننى شغلت عنك وعن سواك لقيام بعض الغلمان الملاعين فى سلانيك بتأليف جمعية سرية .. وهم يزعمون انهم من الأحرار ، وأنا لا أخشى بأسهم طبعا . ولكننى أحب أن أعرف من هم ، فذكرنى ذلك بصادق خدمتك فى الماضى .. هل رأيت الفتاة المكدونية التى أتتنا بالأمس ؟ .. »

قالت القادين ج : « وأنّى لى ذلك ، وأنا فى قصرى لا أخرج منه ؟! .. »

قال السلطان : « ان هذه الفتاة اسمها شيرين قدمت نفسها لى فى الصباح ، وهى خطيبة أحد أولئك الغلمان . ولا شك انها تعرف أعضاء تلك الجمعية ، ولكنها تتكتم ذلك .. وأنا لم أشأ أن أسألها لئلا تلمس منى اهتماما بأمرهم . ولا أحب أن أكلف أحد الخفية باستجوابها .. وأنا أعهد فيك الذكاء واللباقة .. فهل تستطيعين القيام بهذه المهمة لصاحبك القديم ؟ »

فأثّر ذلك التعبير فى قلبها ، وذكّرها بأيام كان يظهر لها فيها تقربا ، وقالت وقد أبرقت أساريرها : « انى أفعل ذلك على

الرأس والعين » ..

وكان قد فرغ من لبس ثيابه ، فقال : « سآمر نادر أغا أن يأخذها اليك لتمكث معك بحجة الاستئناس بك ، فابذلى جهدك فى كشف ذلك السر منها فى أقرب وقت دون أن تشعر ..فهمت؟»

فحنت رأسها اشارة الطاعة وقالت : « انى أغتنم مثل هـذه الفرصة لأبرهن لسيدى وحبيبى انى مازلت أتفانى فى خدمته »

فابتسم لها وقال : « ولكن احذرى أن تعرف الفتـاة منك شيئا ، خذى منها ولا تعطيها .. »

فقالت القادين ج : « على الرأس والعين » .. وخرجت

ثم نادى السلطان عبد الحميد نادر أغا وأمره بما يلزم

— ٥٢ —

قصر جيت

أما رامز فانه لما خلا بنفسه فى قصر مالطة ، عاد الى التأمل فيما مرّ به ذلك اليوم ، وما سمعه من السلطان عبد الحميد ، وقد مال الى الاعتقاد بأن الناس يظلمون هذا الطاغية بسوء ظنهم فيه ، وانه انما يرتكب ما يرتكبه باغراء أهل المابين ، وقد رأيت انه يغريهم ويفسد ما بينهم بالمناجاة والخداع خشية على حياته وتمسكا بسلطانه . قضى رامز بقية ذلك اليوم وهو يتنقل فى ذلك القصر من الشرفة ، الى النافذة ، الى الصالة ، الى المائدة ،

وأفكاره تائهة فيما عساه أن يتم على يده من الخيرللدولةوللأمة، وتوهم أن أهل القصر صاروا أكثر ايناسا له واحتفاء به . وكثر تفكيره فى شيرين ، وودّ لو انه استطاع ابلاغها تلك البشارة لئلا يقتلها اليأس من بقائه بعيدا . وتذكر والده ، وكان قد كثر تردد صوته فى ذهنه منذ دخوله يلدز لاعتقاده أنه قُتل هناك ، وان لم يقطع الأمل فى بقائه على قيد الحياة ..

وبعد العشاء ذهب رامز الى فراشه ، وقد طار النوم من عينيه لفرط تأثره من حديث ذلك اليوم . وبينما هو يتقلبعلىالفراش، وقد أطفئت المصابيح .. سمع وقع خطوات بباب الغرفة أعقبتها نقرات خفيفة ، فجلس على الفراش وأرهف السمع ، ونظر نحو الباب فرأى نورا يتخلل شقوقه ، فعلم أن شخصا قادم اليه بالمصباح ، فوثب الى الباب ففتحه ، فوجد خادم القصر وبيده قنديل فسأله عما يريده فقال : « ان رسولا جاء لاستدعائه »

فقال رامز : « الى أين ؟ »

قال الحارس : « الى خارج القصر .. لا أدرى الى أين .. »

قال رامز : « من هو ؟ »

قال الحارس : « أحد حجاب البادشاه .. لعله يطلب ذهابك الى جلالته » ..

فتوسم بتلك الدعوة خيرا لما سبق الى اعتقاده من حسن الظن، فأسرع الى ثيابه فلبسها ، وأصلح من شأنه وخرج ، فوجدحارسا فى انتظاره ، فأومأ اليه أن يتبعه . فمشى فى أثره بين الأشجار ،

وقد خيّم الظلام ، وأوت الحشرات والهوام وهدأت الطبيعة .. فلم يسمع فى ذلك المكان غير وقع خطواتهما حتى وصلا الى الشارع المحيط بسور الحديقة الداخلية وفيه بعض الأنوار .. وانتقلا منه الى باحة يلدز المؤدية الى المابين الصغير ، فتصور رامز أن الحارس ذاهب به الى ذلك المابين ، فما لبث أن رآه عرج فى طريق الى اليسار بين الأشجار حتى وصل الى باب قصر فخم ، فأخرج الحارس مفتاحا من جيبه فتح به الباب ودخل ، وأشار الى رامز أن يتبعه فتبعه الى صالة تؤدى الى دهليز فى اليسار ، يؤدى الى غرف يستطرق بعضها الى بعض ، وقد أضيء الدهليز بالنور ، فظهرت جدران تلك الغرف ، فاذا هى تختلف عن سائر ماشاهده فى المابين وفى قصر مالطة .. لأن الجدران فى هذا القصر مبطنة بالأنسجة الحريرية (الأطلس) الملونة بالألوان الزاهية ، وعليها اطارات كبيرة لم يستطع أن يتبينها عن بعد ، فلما صارا فى وسط الدار أشار اليه الحارس انه ذاهب وسيعود اليه ، ودخل من الباب الأيسر المقابل للدهليز وأغلقه وراءه ..

فاغتنم رامز تلك الفرصة ودخل تلك الغرفة ، وكانت مفروشة كلها بالسجاد الثمين ، ونقش سجاد كل غرفة يلائم ألوان الأطالس المكسوة بها جدرانها ، ولكل غرفة نقش خاص بألوان خاصة .. وآنس فى المكان هدوءا يدل على خلوه من السكان ، فعلم انه من القصور التى أنشئت لبعض المقابلات ، أو للاحتفال ببعض القادمين ، ولم يدرك سبب مجيئه اليه ، على انه تشاغل

بمشاهدة ما هناك .. فوجد فى الاطارات المعلقة بالجدران خرائط متقنة الصنع مثل خريطة البوسفور ، وخرائط الروملى ، والأناضول ، والاستانة ، والبحر الأسود ، من صنع كبار المهندسين العثمانيين، أكثرها بارز الرسم يمثّل حال البلد الطبيعية ، فأعجبه أن يكون بين رجال الدولة من يستطيع القيام بذلك الرسم الجميل ، وتأسف لما حال دون ظهور مواهبهم من المظالم والمفاسد

وبينما هو يتأمل فى ذلك عاد اليه الحارس وناداه فتبعه،فأشار اليه أن يدخل من الباب الأيمن الذى خرج هو منه ، فأطاعه فرأى نفسه فى قاعة واسعة لم ير مثلها هناك ، فيها الرياش الثمين فوق السجاد الجميل ، وفيها المناضد عليها آنية البذخ ، كالساعات المذهبة ، والتماثيل المزخرفة ، وجدران القاعة مكسوة بالأطلس الأحمر المعرق بالذهب .. وفى سقفها ثريات كبيرة قد أنيرت مصابيحها . وعلى جدرانها اطارات فيها خرائط وصور ، أهمها خريطة الكعبة تمثلها مع ما جاورها مجسمة فى غاية الاتقان . ولاحظ الحارس دهشة رامز مما يراه ، فقال : « أنت فى قصر جيت ياسيدى ، وهو من أفخر قصور يلدز ، تفضل اجلس هنا حتى يرد اليك الخبر ولا تخف » قال ذلك وخرج وأغلق باب القاعة وراءه بالمفتاح ..

فاستغرب رامز ذلك ووقف ليتحقق من غلق الباب ، فوجده قد أغلق اغلاقا محكما ، وأصبح كأنه هو والحائط قطعة واحدة. ونظر فى أطراف القاعة فلم يجد فيها بابا سواه ، فاقشعر بدنه

وتوهم انها شرك نصب له .. ولا يلبث أن يقتل أو يصاب بأذى، لأنه سبق أن سمع بغرابة أساليب القتل فى يلدز ، وقول الحارس: « لا تخف » كان سببا فى زيادة الخوف ..

— ٥٣ —

باب السر

فمشى رامز فى القاعة وأعاد النظر فيما حوله ، وتفرس فى الجدران لعله يرى بابا آخر فلم يجد شيئا . ومع تألق القاعة بالأنوار أحس بالوحشة كأنه فى ظلام دامس ، فجعل يتلهى بالنظر الى الصور والخرائط المعلقة على الجدران حتى مل ، فجلس على مقعد بجانب منضدة عليها بعض الكتب ، وجعل يتشاغل بتقليبها، وعادت اليه ذكرى والده ، وهل هو فى أحد القصور على قيد الحياة ، أو سجينا ، أو هو ميت ؟ ..

وبينما هو فى ذلك سمع قلقلة مفتاح ، فأجفل ونظر الى الباب وتوقع أن ينفتح ويدخل الحارس يخبره بخبر جديد .. سواء كان خيرا أو شرا .. فطالت القلقلة ، ودله سمعه على انها فى الحائط المقابل له ، وليست فى الباب الذى دخل منه . فنظر الى الحائط فلم يجد بابا ولا مايشبهه ، فكذب سمعه وأعاد نظره الى الباب ، ثم سمع طقطقة القفل حين يتفتح .. فأصبح يتوقع أن ينفتح الباب فرآه باقيا على حاله ولاح له تغيير فى ذلك الحائط ، فالتفت نحوه

فاذا قد فتح فيه باب دخل منه شبح ملتف بملاءة بيضاء كأنه خارج من القبر .. فاقشعر بدنه ووقف شعره وخفق قلبه ، فنهض وقد جمد الدم فى عروقه ، وتوهم أن والده خارج من بين قبور الأموات ، أو عفريت من الجن شق الحائط وخرج منه مثل ما يسمع من أخبار قصص « ألف ليلة وليلة » ، ولم تمض لحظة حتى كشف ذلك الشبح الملاءة عن رأسه ، فاذا به السلطان عبدالحميد بملابس النوم وعليه برنس أبيض كالملاءة .. فدهش رامز واستغرب خروجه من الحائط ، ولكنه ظل واقفا مكانه وقد اصطكت ركبتاه من شدة الذعر ..

فلما صار السلطان عبد الحميد داخل القاعة أغلق الباب ، وأوصده من الداخل ، فعاد الحائط كما كان ، وتقدم نحو رامز وعلى رأسه عمامة صغيرة تشبه الكاسكيت ، وقد التف بالبرنس وابتسم تخفيفا لما تولى رامزا من الرعدة . فاستأنس رامز به وتقدم نحوه وحياه ويداه ترتعشان ، فقال السلطان عبدالحميد: « لا تخف يابنى .. انى جئتك من هذا الباب السرى المؤدى الى المابين لأخاطبك فى أمر لا أريد أن يشعر به أحد من أهل هذه القصور » قال ذلك وهو يجلس على مقعد هناك وأشار الى رامز أن يجلس ..

فجلس رامز وقد اطمأن خاطره ، وأصبح فى لهفة للاطلاع على الغرض من تلك الجلسة السرية

وأما السلطان عبد الحميد ، فانه لبث برهة وهو مطرق

لا يتكلم كأنه يفكر فى أمر هام .. ورامز ساكت وكله آذان صاغية للسمع . ثم فتح السلطان عبد الحميد الحديث قائلا :
« لا حاجة بى أن أوصيك بكتمان نبأ هذه الجلسة عن كل بشر »
فأشار مطيعا ..

فقال السلطان عبد الحميد : « ان حديثك بالأمس عن أهل المابين كان له وقع شديد فى نفسى ، وما زلت منذ تلك اللحظة وأنا أفكر فيه ، فوجدتك مصيبا وتحققت من ان هؤلاء الأشرار أصل هذه المتاعب ، غير انى أصبحت مقيدا بهم لكثرتهم وكثرة أعوانهم ، ولا أدرى كيف أتخلص منهم ! .. » وتنحنح وهو يلتفت كأنه يحذر أن يسمعه أحد ، ورامز مصغ وقلبه يخفق تطلعا لما سيسمعه

فقال السلطان عبد الحميد وهو يخفض صوته : « فرأيت أن أستشيرك فى الأمر سرا .. ولم أفعل ذلك فى قصرى كالعادة ، لكثرة المراقبين والجواسيس علىّ وعلى كل ناطق .. حتى الخدم والاغوات .. حتى النساء والجوارى ، فانهن يتلصصن علىّ لسماع ما يقال ، فاخترت هذا المكان وأمرت الحارس أن يأتى بك اليه لتكون سجينا فيه بدلا من قصر مالطة .وأوصيته أن يغلق الباب عليك ويذهب ، وهو لا يعلم بوجود هذا الباب السرى .. فالآن نحن هنا فى أمان ، فانصح لى بالطريقة التى تراها .. »

فاطمأن خاطر رامز ، وأصبح لغرابة ما يسمعه يظن نفسه فى حلم ، ولكنه تأمل ما هو فيه ، فتحقق انه فى يقظة ، فقال :

« يأمر سيدى البادشاه بما يريد .. فانى طوع أمره بكل ما فيه مصلحة الأمة والدولة .. »

فتنهد السلطان عبد الحميد وقال : « آه .. كم أسمع هاتين الكلمتين (الأمة والدولة) ممن يحيط بى من المتملقين ، فلا يؤثر فىّ قولهم لأنهم يخدعوننى وأخدعهم ، ويخاف كل منا صاحبه حتى استغرقت فى الشطط وارتكبت أمورا أرجو أن يمحوها الله من سجل أعمالى اذا أنا رجعت الى الصواب » قال ذلك وصوته يختنق كأنه يجهش بالبكاء .. ورأى رامز فى عينيه دمعتين تتلألآن وهو مطرق كالنادم الآسف ، فتأثر من منظره وشاركه فى البكاء.. ولم يبق عنده شك فى صدق قوله ، لكنه ظل ساكتا

— ٥٤ —

المهمة الكبرى

فمسح السلطان عبد الحميد عينيه وأظهر الاهتمام وقال : « أحب أن أتخلص من هؤلاء المنافقين المحيطين بى ، لكننى لا أستطيع ذلك قبل أن أثق من أولادى الأحرار الذين أغريت على اساءتهم ، وهم الآن بعيدون عنى .. فأحب أن أباحثهم سرا وتتفق على طريقة نقضى بها على هؤلاء الأشرار ، وننظم حكومة جديدة نحيى بها الدولة . كفانا ما مضى .. فما هو السبيل الى ذلك ؟.. هل اذا عولت على الأحرار يستطيعون الأخذ بناصرى والتغلب

على هؤلاء ؟ .. انى أخشى على حياتى منهم اذا أظهرت تغييرا فى سياستى ؟ .. »

فاعتدل رامز فى مجلسه وقد أبرقت أساريره من شدة الفرح ، وقال : « لاشك ياسيدى انهم يستطيعون .. ولا أخفى على جلالة البادشاه بعد أن رأيت حسن ظنه فينا ، أن الأحرار هـذه المرة ظافرون بلا ريب ، لأنهم اجتذبوا الجند الى حزبهم . ولم يبق ضابط فى سلانيك أو فى غيرها الا وهو عضو فى « جمعية الاتحاد والترقى » المقدسة ، فاذا أرادوا عملا حقّقوه بالقوة ، ولاسيما اذا كانت ارادة الذات الشاهانية معهم .. »

وكان السلطان عبد الحميد يسمع ذلك وقلبه يكاد يتميز غيظا، لكنه تجلد على عادته وأظهر سروره ، فانبسطت أساريره وظهر البشر على محياه ، فاستأنس رامز بمنظره ورقص قلبه طربا ، ولبث ينتظر ما يقوله السلطان عبد الحميد ، فاذا هو يقول له : « هل أنت واثق من مقدرتهم على ذلك ؟ .. »

قال رامز : « كيف لا .. وأنا من صميم الجمعية ؟ .. انى واثق بأن الجمعية اذا تأكدت من رضى جلالة السلطان عنهـا ، تفديه بالنفوس ، وتقاوم أعداءه أشد المقاومة .. »

فقال السلطان عبد الحميد : « وما هى الطريقة للمفاوضة معهم فى هذا الشأن وأنا سجين فى هذه القصور .. لا أستطيع الخروج منها ؟.. »

قال رامز : « اذا شاء مولاى كنت سفيرا بينه وبينهم .. »

قال ذلك وهو لايتوقع أن يوافقه السلطان على الخروج من سجنه ، فرآه قد أظهر الارتياح التام ، وقال : « حسنا .. ولكننى أخشى أن يطلع أحد من هؤلاء على قصدنا .. »

قال رامز : « لا خوف من ذلك ، فان لجمعيتنا طرقا للتكتم لا سبيل معها الى معرفة شىء .. وقد رأى جلالة السلطان تكتمنا بالأمس ، وكيف ان أحدنا يعرض نفسه للقتل ولا يبوح بالسر ، ولا غرض لنا الا خدمة الأمة والدولة .. »

فأطرق السلطان عبد الحميد لحظة وقال : « حسنا .. لكننى أود المفاوضة مع زعماء هذه الجمعية فى جلسة سرية مثل هذه . ان المخابرة بالمراسلة لا تشفى غليلا ، وعندى أمور كثيرة أرغب فى توضيحها والتحوط لها .. ولا يتم ذلك بالمراسلة عن بعد ، وأنا لايتيسر لى الخروج اليهم كما تعلم »

فقال رامز : « هم يتشرفون بالمثول بين يدى جلالتكم »

فقال السلطان : « لا أظنهم يفعلون ، اذ تعوزهم الثقة بالمابين.. فان أهله لم يبقوا للامة ذرة من الثقة بى » .. وغص بريقه

ولم يكن رامز من أهل الدهاء كما قدمنا ، فاعتقد فى صدق كلام السلطان على ظاهره ، فقال : « أنا أؤكد لهم حسن ظن جلالتكم ، وأحملهم على تعيين وفد يتشرف بالمثول بين يديكم »

فقال السلطان : « لايسعنا التطويل فى الأخذ والرد .. فينبغى أن يكون ذلك الوفد مفوضا فى كل شىء ، فتنتهى هذه المشاكل فى جلسة واحدة تنتقل بها الدولة من حال الى حال . آه من

هؤلاء المتملقين .. كم أغرونى على الايقاع بالأحرار وأقنعونى انهم غير أهل للدستور ، وأنا مضطر للتسليم .. فالآن أنا ملق حملى عليك وواضع ثقتى فيك ، فعسى أن يتم هذا العمل على يدك . واذا جاء الوفد ، فليكن مؤلفا من خيرة الرؤساء العقلاء ، يظهرون أنهم آتون لمشروع اقتصادى أو علمى أو نحو ذلك »

فأشار رامز مطيعا وقلبه يرقص طربا ، وهو لم يصدق أن السلطان عبد الحميد يطلق سراحه ، فقال : « ومتى يأمر سيدى بتحقيق ذلك ؟.. »

قال السلطان : « تذهب فى هذه اللحظة .. تخرج من هذه القصور من باب سرى أرشدك اليه على يد أحد ثقاتى ، تخرج ولا يدرى أحد بخروجك ، فاذا أصبحوا فى الغد ظنوا أنك فررت . وانما ينبغى المبالغة فى كتمان مادار بيننا عن كل أحد حتى تصل الى الجمعية ، وتعرض هذا الرأى فى جلسة سرية .. فهمت ؟.. » فأشار برأسه ويديه أن : « نعم »

— ٥٥ —

سعيد بك

وبلغ من استئناس رامز بالسلطان عبد الحميد وتصديقه اياه أنه اعتقد أن الدستور أصبح فى قبضة يده .. وتذكر والده وتلهفه على معرفة مكانه ، فاغتنم فرصة قربه من السلطان عبد

الحميد للسؤال عنه فقال : « قد حملنى لطف جلالة السلطان على أن أتجاسر بعرض مسألة .. هل أفعل ؟.. »

فقال السلطان : « قل ياولدى .. ما الذى تريده ؟ »

فزاده ذلك التلطف دالة ، فقال : « لى والد دخل يلدز منذ بضع عشرة سنة ولم نعد نعلم ماذا جرى له ، فهل هو يا ترى على قيد الحياة ؟ »

فأظهر السلطان عبد الحميد الاهتمام بهذا السؤال وقال : « والدك فى يلدز منذ بضع عشرة سنة ؟.. ما اسمه وماذا كان غرضه من المجىء ؟ .. »

قال رامز : « اسمه سعيد ، وقد جاء للبحث عن أوراق فى قصر مالطة »

فتظاهر السلطان عبد الحميد بالبغتة وقال : « سعيد بك أبوك لقد أغرونى عليه وزعموا أنه جاء بدسيسة لينتقم لمدحت باشا لأنه صديقه وكدت أقتله ثم اكتفيت بسجنه .. »

فانحنى رامز انحناء العطف وقال : « هل يتاح لى أن أراه ؟.. ان ذلك أكبر نعمة على .. فاذا ظفرت بها تفانيت فى خدمة السلطان » ..

قال السلطان : « طبعا .. وهل تخشى أن تطلب منى ما تريده بعد أن صرحت لك بقصدى ، سأطلب اخراج والدك من السجن فى هذه اللحظة .. وأخرجكما معا من يلدز فى هذه الليلة » فلم يتمالك رامز عن الاكباب على طرف ثوب السلطان يقبله

فأمسكه السلطان عبد الحميد وقال : « أنا عائد الآن الى قصرى ، وسأبعث اليك بوالدك مع حارسى يدخل به عليك من باب هذا القصر كما دخلت أنت .. والحارس يرشدك الى طريق النجاة » قال ذلك ونهض ، فنهض رامز وهو يقول : « أخشى اذا وصلت الى سلانيك أن يعرف ناظم بك بمجيئى فيتعمد القبض على ! » ..

فقطع السلطان كلامه قائلا : « لا تهتم بهذا الأمر أنا أدبره »

فأعاد شكره وامتنانه ، وتحول السلطان عبد الحميد نحو ذلك الباب فى الحائط ، ففتحه وخرج منه ثم أوصده وراءه فعاد الحائط كما كان

وبقى رامز فى مجلسه وقد تولته الدهشة ، وأخذ يفرك عينيه لئلا يكون فى حلم ، فتحقق أنه فى يقظة فقال فى نفسه : « ماهذه الغرائب المدهشة ؟.. السلطان عبد الحميد يطلب الدستور من تلقاء نفسه ! .. اذا تم ذلك على يدى ، فما أعظم سرورى .. هل أرى والدى الآن وأنجو به ؟ رب شر ينتج عنه خير .. لو لم يش بى عدوى ويلقينى فى هذه الورطة لم أوفق الى ملاقاة والدى ولا الى ما أرجوه من الانقلاب السياسى .. لا أصدق انى أصل الى الجمعية وأقص عليها أخبارى .. »

ونهض وجعل يخطر فى الغرفة وهو ينظر الى ساعة دقاقة موضوعة على منضدة مذهبة ، فاذا هو فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وأصبح يعد الدقائق فى انتظار والده .. وقد

صبر على بعده أعواما ، لكنه وجد هذه الدقائق أطول منهـا كثيرا .. وأوحشه ذلك السكوت ، فاذا دنت ناموسـة أجفـله وزيزها ..

وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع وقع خطوات فى الخارج أعقبها قلقلة المفتاح ، فوثب من مجلسه الى الباب ، ووقف ينتظر فتحه ليرى القادم .. ففتح الباب ودخل منه حارس ملثم ، وأشار الى رامز اشارة التحية ، ثم أومأ الى الخارج . فنظر رامز فرأى رجلا فوق الكهولة قد تغيرت سحنته ، وطال شعر رأسه ولحيته ، حتى صار كالنساك السـجناء الذين لا يمسون شعورهم بقص أو اصلاح . ومع انتظار رامز لوالده واطلاعه سلفا على خبر قدومه ، فقد أنكره لتغير سحنته عما يعرفه .. اذ تولته الشيخوخة وشاب شعره واسترسل ، وامتقع لونه من طول الاحتجاب عن أشـعة الشمس ..

أما الوالد فحالما وقع بصره على ابنـه صاح : « ولدى رامز حبيبى ! » وأكب على عنقه وأخذ يقبله ويبكى من شدة الفرح ، فلم يتمالك رامز عن البكاء وقبل والده وهو يتفرس فيه .. وما لبثا أن تعارفا وعادت الى ذهنيهما الصورة القديمة التى عرفها كل منهما عن صاحبه ، فقال رامز : « أبى .. ينبغى أن أشكر الله على وقوعى فى هذا الأسر ، اذ لولاه لم أوفـق الى رؤيتـك وانقاذك » ..

فقاطعه أبوه قائلا : « انما الفضل لرضى أمير المؤمنين ومراحمه ،

فلو لم يدب الحنان فى قلبه لم يأت مجيئك ولا أسرك بفائدة . فقد أبلغنى هذا الحارس أن جلالة البادشاه أمر بخروجنا من هنا ، وانه عهد اليك أمورا خاصة فنشكر الله على نعمه ، فالآن نحن هنا حتى يشير الينا هذا الحارس بما نفعل .. »

أما الحارس فكان واقفا لايتكلم .. ولما سمعهما يذكرانه أخرج من تحت ابطه صرة دفعها اليهما على أن يفضاها ، ففتحها رامز فوجد فيها اسطمبوليتين مما يلبسه الياوران وأشار اليهما أن يلبساهما . ففعل رامز وهو ينظر الى نفسه فى المرآة ، فاذا هو كالياوران تماما ، ووقف ينتظر مايشير به الحارس فأخرج من جيبه ورقة كالبطاقة ، دفعها الى رامز وقال له بالاشارة : « سأخرج بك من هنا ، ثم تنطلق فورا الى محطة السكة الحديدية ، فتدفع هذه الورقة الى رئيس محطتها فيركبك القطار الى سلانيك » والتفت الى سعيد بك وأشار اليه أن يلبس ، فتوقف وقال : « انه لايستطيع الخروج من يلدز فى تلك الليلة بل يفضل أن يصلح من شأنه قبل الخروج » . فاستغرب ابنه ذلك منه وهم بأن يعترض ، فأوقفه الوالد قائلا : « لابد من بقائى الليلة هنا ، وسأتبعك فى الغد فنلتقى فى سلانيك .. فهل عندك شك فى أمر العفو ؟.. »

قال : « كلا »

قال سعيد : « أستحى من نفسى أن أخرج الى الأسواق وأنا كالنساك .. وقد قضيت فى هذا المكان أعواما ، وسأبقى فيه يوما

آخر .. وفى الغـد أخرج وأتبعك الى سـلانيك ان لم يكن فى الاستانة » ..

فتأسف رامز على تمسكه بالبقاء وقال فى نفسه : « لابد من سبب بعثه على ذلك » فودعه وقبل يده وخرج مع الحارس ؛ فأشار اليهما أن يتبعاه ففعلا..فجعل الطريق من جهة قصر مالطة، فلما وصلا اليه أشار الحارس الى سعيد أن يدخل ذلك القصر ، وأمر حراسه أن يستقبلوه باشارات بينهم فهموها . وقاد رامزا فى طريق مجهولة بين الاشجار حتى وصل به الى باب من أبواب السور الخارجى ، فتحه الحارس بمفتاح معه وأشـار اليه أن يخرج واذا اعترضه حارس من حراس يلدز خارجا فليقل له : « الذات الشاهانية » وهو شعارهم فى ذلك اليوم . وهى أول جملة نطق بها ذلك الحارس الملثم منذ قدومه ومسيره مع رامز ، ولم يفعل ذلك الا مضطرا . ولما سمع رامز نطقه وجد صـوته يشبه صوت عبد الحميد .. لكنه لم ينتبـه لذلك الا بعد أن فارقه ، ولم يخطر له أن ذلك الحارس هو عبد الحميد نفسـه . وانما اعتقد أن ثمة شبها بين الصوتين

— ٥٦ —

فلسفة ماكيافيللى

بلغ من دهاء هذا الطاغية أنه أراد أن يُخفى تهريب رامز حتى

عن الحرس .. فلبس ملابس الحراس ، ومشى بين يدى رامز حتى أخرجه من يلدز .. وله من وراء ذلك حكمة لايدركها الا الذين فطروا على المكر والدهاء . وبعد رجوعه دخل قصره كما يدخل بعض الحرس الخاص .. وكان الحارس الذى لبس ثيابه محبوسا فى احدى الغرف ، فأخرجه وأمره أن يعود الى موقفه ، فعاد ولم يشك من رأى عبد الحميد داخلا بملابس الحراس ، وخروج هذا على أثر ذلك ، انه هو الحارس الذى دخل

دخل عبد الحميد قصره وكان أهله نائمين ، فنزع تلك الملابس وارتدى ثياب نومه ، ومشى الى غرفة المطالعة وهو صامت يفكر فيما فعله فى تلك الليلة ، هل أصاب أم أخطأ .. ووجد على موقف هناك باقة من البنفسج تعود رئيس الفراشين أن يتحفه بها من وقت الى آخر لعلمه أنه يحب رائحة هذا الزهر كثيرا ، فتناول عبد الحميد الباقة وتنشقها فانتعش ، ثم أعادها الى موضعها وألقى نفسه على مقعد وتنفس الصعداء وهو يهيىء سيجارا ليدخنه . ثم أشعل السيجار وتمدد وبسط رجليه ، ورفع بصره الى السقف ، وقد تألقت تلك القاعة بالأضواء ، وجعل ينفخ الدخان ويتأمل حلقاته ، وهى تتصاعد متتابعة متعانقة ، وأفكاره منصرفة الى ما أتاه فى ذلك اليوم من الأمر الغريب .. ثم ناجى نفسه قائلا : « ظن ذلك الشاب انى وثقت به وبوعده ، ويزداد اعتقادا بصدقى متى أطلقت سراح والده .. وهو يرى ذلك ثقة منى بهما .. ومن يثق بهما الى هذا الحد .. لكن بقاء رامز هنا لا فائدة منه لأنه

مصمم على الانكار ولا فائدة لى من قتله اذا لم أقتل كبار تلك الجمعية الجهنمية . وزد على ذلك أن شيرين هنا فى قبضة يدى وهو لايعلم ، فاذا علم بعد ذلك أنها رهن عندى حتى يحقق وعده تفانى فى الانجاز .. وقد أخبرنى صائب بك انه يتفانى فى حبها ، فاذا جاءنى ولم يفعل ، ولا هى اعترفت بأسماء أولئك الناس قتلتهما .. ولكن حيلتى ستنطلى على مؤسسى تلك الجمعية ويرون من اطلاقى سراح أحدهم بعد أن قبضت عليه صدق نيتى فى التماس آرائهم للاصلاح ، فيأتينى كبارهم .. ومتى أتوا أذيقهم الموت فيخاف رفاقهم وتضعف عزائمهم ، وتذهب هذه الجمعية كما ذهب غيرها من قبل وتتخلص منها »

ثم اعتدل فى مجلسه وزمجر كالشبل الجريح ، ووقف بغتة وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وقال : « تبا لكم من مغرورين جهلة .. لن يبلغ كيدكم كيدى .. سوف تذهبون طعاما للاسماك انى لا أزال أسفك وأقتل حتى تخلو الدنيا من المعارضين لى .. مهما يكن من ثقتهم بى فانى على رأى ماكيافيللى .. لله در هذا الفيلسوف .. صَدَقْتَ ياماكيافيللى، ان الرجل العظيم لايستطيع أن يستقل بحكمه وينجو من الرقباء والحساد الا اذا أغضى عما يسمونه الشرف ، والامانة ، والوفاء فى معاملة أعدائه .. ولا بأس عليه اذا ضحى بهذه الفضائل فى سبيل المحافظة على الدولة أو الوطن ، وأن يستبدلها بالمكر والدهاء ، وهى ما يسميه الجهلاء خيانة وغدرا .. ليست الخيانة أن أحتال على عدوى حتى

أظفر به وأقتله ، وانما هو الدهاء .. وما فائدة الوفاء اذا اضطرنى الى اطلاق سراح رجل أعرف أنه يريد قتلى .. بورك فيك يا ماكيافيللى .. نعم أقتل ثم أقتل من شككت فيه ، أو من تخاف منه شرا ، ولو على سبيل الشك . تلك هى سياسة كبار الرجال.. وهى التى سار عليها كبار القواد فى تأسيس الدول .. ألم يفعل ذلك أبو مسلم الخراسانى نصير العباسيين فى تأسيس دولتهم ؟.. ألم يفعله بأمر الامام ابراهيم العباسى . ألم يقتل على الشك ولو لم يفعل ذلك لما قامت للدولة العباسية قائمة .. فهل يلام عبد الحميد اذا سار على خطوات ذلك الامام واقتدى بأكبر الفلاسفة العقلاء ؟! .. »

كان يقول ذلك قولا متقطعا ، كأنه يخاطب رجلا واقفا بين يديه ، ولو رآه أحد يفعل ذلك لظنه أصيب فى عقله..فلما فرغ من تلك الأقوال رمى السيجار من يده ، وتناول باقة البنفسج ومشى لينام فى غرفة من غرف ذلك القصر على مقعد أو كرسى ، كالعادة فى تستره فى النوم حتى لايعلم أحد بمكانه .. نام فى تلك الليلة نوما متقطعا واستيقظ مبكرا ، فبعث الى الباشكاتب وأمره أن يستقدم رامزا فى قصر مالطة اليه ، فأسرع وأرسل فى طلبه فعاد الرسول وأخبره أنه غير موجود هناك .. فأظهر عبد الحميد الدهشة وقال : « ألم يكن هناك بالأمس ؟.. »

قال الباشكاتب : « نعم يامولاى .. ولكنهم يقولون ان حارسا من حراس المابين جاء فى طلبه .. »

فقال السلطان : « انها حيــلة انطلت عليهم .. كيف تتركون هذا الرجل يفر من بين أيديكم .. لله ما هذا .. انى لا أستطيع أن أثق بأحد من هؤلاء المجانين الخونة .. » وأخذ يكرر أمثال هذه العبــارات ويظهر الغضب والحنق ، والباشكاتب واقف لا يتفوه بكلمة .. ثم أظهر عبد الحميد أنه هدأ روعه وقال للباشكاتب : « ما العمل ؟.. هل ينبغى لى أن أتولى كل شىء بنفسى حتى الاحتفاظ بالسجناء ؟.. فالرجل فر ولا فائدة من تعقب آثاره فى الاستانة ، ولابد أنه عائد الى سلانيك .. فلنغتنم فرصة فراره ونستدل منه على مقر تلك الجمعية » وأطرق كأنه يعمل فكره ثم قال : « ارسل تلغرافا الى حبيبنا ناظم بك ، أخبره فيه ان رامزا الخائن أفلت من أيدينا وعاد الى سلانيك ، فليستقبله ويظهر له الصداقة ، ثم يراقب حركاته من طرف خفى .. ويتعقب أثره بدون أن يشعر به حتى يقف على مقر تلك الجمعية ، فيقبض على من يجدهم هناك .. وليرسلهم الى مكبلين بالحديد ، أو فليقتــل وليفتك .. فاذا استطاع القيام بهذه الخدمة رقّيناه وكافأناه .. »

وكان الباشــكاتب يســمع أوامر عبد الحميــد وهو يعجب لدهائه ، فكتب صــورة التلغراف وتلاه عليه ، فأصلح به بعض الشىء ، وأمر بارساله حالا فخرج ، وفعل ما أمر به وعاد عبد الحميد الى تفكيره ، فأعجبه ما أتاه من الدهاء .. فضحك ضحكة يندر أن يضحك مثلها ، وقال فى نفسه مع الاعجاب بالذي أتاه : « ينبغى أن أدبر أمورى بنفسى . وهؤلاء اذا صح اخلاصهم فانهم

قليلو التدبير » ومشى مشية المختـال وهو يقول : « اذا صح تدبيرى قضيت على تلك النفوس النجسة وعلمتهم من هو عبد الحميد .. »

ثم وقف برهة وقد طرق ذهنه أمر شيرين ، وما دبره من اغراء القادرين بها ، وهو لايشك فى أنها سوف تنجح فى استجوابها لاعتقاده بدهائها وذكائها ، وتذكر مايخشاه من حملهـا ووضعها فقال : « ومتى فرغت من مهمتها أقتلها لأتخلص من حملها »

وقضى بقيـة ذلك اليوم فى مطالعة التقـارير التى أتته من جواسيسه المنبثين فى أطراف المملكة ، وفيها أمور هامة .. لكنه لم يهتم بها بسبب اشتغاله بتدبيره الجديد ..

ولما أمسى المساء ، لبس ملابس حارس الأمس ، وأخرج والد رامز من يلدز كما فعل برامز

— ٥٧ —

الى سلانيك

خرج رامز من يلدز ، ولم يصـدق انه نجا .. فناداه حارس واقف على بعد بضعة أمتار من الباب : « مَنْ القادم ؟ .. » فأجابه : « الذات الشاهانية » فوسع له ورحب به ، ومشى معه حتى تجاوز يلدز وأصبح بعيدا عن الظنون

وطال مسير رامز قبل أن يصل الى محطة السكة الحديدية ،

فوصلها فى الصباح قبيل سير القطار ، فدفع البطاقة الى ناظر المحطة فرحب به وأنزله فى القطار المسافر الى سلانيك فى تلك الساعة فى عربة خاصة

فلما جلس فى المركبة وخلا بنفسه عادت اليه هواجسه ، وراجع فى ذاكرته ما مر به من الأهوال فى ذلك الليل ، وأخذ يمنى نفسه قبل كل شيء بمشاهدة شيرين ، لأنه لم يصدق قول والدها أنها هربت ، واذا تحقق من هربها الى مناستير أو غيرها سافر اليها . وفكر فى المهمة السياسية التى هو ذاهب اليها ، فلم يخامره شك فى صدق عبد الحميد هذه المرة .. اذ لولا صدق نيته فى ذلك لم يطلق سراحه وهو أسير عنده ، ثم أطلق سراح أبيه .. فاعتقد أنه صادق فيما قاله ، على أنه استغرب التماس والده البقاء هناك يوما آخر فوق السنين التى قضاها فى أعماق السجن ، ولكنه آنس منه اصرارا فقال : « لعل له عذرا أو غرضا » وقد خامره ريب فى بقائه ، وأسف لتركه لئلا يحدث ما يوجب اعادته الى السجن ، لكنه قال فى نفسه : « لو لم يكن للسلطان غرض فى اطلاقه ، فليس ثمة مايكرهه عليه »

قضى الطريق فى مثل هذه الهواجس ، وشغل عما يمر به القطار من التلال والأودية والغياض . ووصل سلانيك فى الضحى ، فخرج من المحطة بسهولة بتذكرة أعطاه اياها ناظر محطة الاستانة بعلامات بينهم يفهمونها

ولما خرج من المحطة أخرج منديله من جيبه ، فاذا فيه ورقة

مطوية لم يكن يتوقع وجودها .. ففضها فاذا هى بخط تذكر انه خط والده ، فقرأها فاذا هو يقول فيها : « احذر من مراقبة ناظم ورجاله السريين .. خوفا من معرفة مقر الجمعيــة . افعل ذلك ريثما آتيك » فدهش وأخذ يفكر فيما بعث والده على هــذه الكتابة ، فحفزه ذلك على الشك فى ناظم .. ولم يعبأ بما تضمنته من سوء الظن بالسلطان ، ولكنه اعتزم أن يكون حذرا

وأول ماخطر له أن يفعله فى سلانيك ، أن يذهب الى بيت خطيبته .. وحين أطل على المنزل أخذ قلبه فى الخفقان ، وتصور أنه سيلاقى شيرين فى المنزل ، فشعر بلذة أنسته متاعبه ومخاوفه.

وصل الى بيت الحبيبة فرآه مغلقا ، فسأل الجيران عن أهله ، فقص عليه أحدهم خبر اختفاء شيرين منذ أيام ، وان والدها سافر الى الاستانة .. وأما والدتها فقد ســافرت الى مناســتير للبحث عنها عند بعض أهلها هناك ، فأسقط فى يده وتذكر قول طهماز فوجده صادقا ، فوقع فى حيرة واسودت الدنيا فى عينيه ، وحدثته نفسه أن يتبع الوالدة الى مناســتير ، لكنه عاد الى التفكير فى المهمة ، فتذكر أن تلك الليــلة موعد اجتماع الجمعية فعزم على الذهاب اليها ، وهو لايخشى انكشاف أمرها للتدبير الذى دبروه فى اخفــاء مكانها .. ولم يشأ أن يؤجل ذلك حتى يحضر أباه. فذهب الى الفندق الذى كان نازلا فيه التماسا للراحة ، فوجد رسولا من ناظم بك فى انتظاره ، وقال له : « ان حضرة القومندان يطلب مقابلته للترحيب به » فصدقه وذهب اليه فى قصره ، فرحب

به وهنأه برضى الذات الشاهانية عنه ، وعرض عليه ما يريد أن يخدمه به .. فأثنى على فضله ، ولولا الورقة التى وجدها فى جيبه لوثق بقوله ، لكنه اعتذر بأنه يطلب الراحة فى هذا اليوم ، فدعاه للنزول عنده فاعتذر ومضى الى الفندق .. وهو يتوقع أن تتبعه الجواسيس ، فلم يلاحظ شيئا من هذا القبيل

ارتاح فى الفندق بقية ذلك اليوم ، وهو يهيىء ما سيعرضه على الجمعية .. حتى اذا كان العشاء سار الى قهوة اعتاد الأعضاء أن يتفرقوا فى أطرافها قبل الاجتماع ، ليتواعدوا على الاجتماع وكيفية الوصول اليه

— ٥٨ —
جمعية الاتحاد والترقى

واصطلاحهم فى نظام جمعيتهم ، انها مؤلفة من عدد محدود ، يغلب أن يكون ١٢ عضـــوا ، هم : لجنة الادارة عليهم رئيس يسمونه « المرخص » تحاشيا من تمييز بعضهم بالرياسة ، فهؤلاء الأعضـــاء يتعارفون ويجتمعون غير متنكرين للبحث فى أعمال الجمعية واصدار الأوامر الى الفروع . اما من ينضم الى الجمعية غير هؤلاء ، فانه لايتأتى له أن يعـــرف أعضاء اللجنة معـــرفة شخصـــية ، وانما يعرف الشخص الذى يكون واسطة لادخاله فيها ، وذلك أن أحد أعضاء اللجنة اذا عرف شابا من العثمانيين

آنس فيه ميلا الى الحرية وحب الاصلاح قربه اليه ، وتدرج فى اطلاعه على وجود جمعية حرة تسعى الى الاصلاح .. فاذا أحب الانتظام فى سلكها وطلب اليه ذلك وعده بالنظر فى طلبه ، ثم يخاطب اللجنة بشأنه ، فاذا وافقت أعطته رقما (نمرة) يعرف به فى سجلاتها ، ودعته للحضور فى جلسة سرية تعينها له .. يحضرها أعضاء اللجنة متنكرين ، فيدخل متهيبا ويقسم اليمين على الانجيل والقرآن ، والمسدس ، ويخرج . وهذا العضو الجديد اذا رأى صديقا له استحسن ضمه الى الجمعية قدم طلبه على يد العضو الذى قدمه قبلا ، واذا قبل يأتى الطالب الجديد للجلسة السرية ويقسم اليمين ويخرج ، وهو لايعرف سوى صديقه الذى أدخله.. وأما هذا فصار يعرف اثنين : واحد أمامه ، والآخر وراءه . واذا أدخل اثنين أو ثلاثة ، أو أربعة فانه يعرفهم وهم يعرفونه

وروعى هذا التحفظ أيضا فى العلاقة بين الجمعية المركزية وفروعها فى الجهات ، فانها تتفرع أولا الى شعب (مفردها شعبة) فى المدن الكبرى ، وللشعبة فروع يقال لها قولات (مفردها قول) ، وكل شعبة أو قول مؤلف من لجنة ادارية لها رئيس وأعضاء ، مثل الجمعية المركزية . ومؤسسو الشعب أصلهم من الجمعية المركزية ، وذلك أن أحد هؤلاء الأعضاء اذا رأى فى نفسه الكفاءة لانشاء شعبة فى بلد من البلاد عرض مشروعه على اللجنة ، فتخول له انشاءها .. فينتقل الى ذلك البلد ويجتمع بأناس يثق فى حريتهم وصدقهم ، ويؤلف معهم لجنة يخبرهم أنها

فرع للجمعية المركزية ، ولكنه لا يصرّح لهم بأسـماء أعضائها . ومتى تألفت الشعبة تعمل على ضم الأعضاء بالطريقة التى نظمتها الجمعية المركزية .. وهـذه اللجنة لا تعرف من أعضاء الجمعية المركزية الا الذى أسس الشعبة

وهكذا يقال فى انشاء الفروع الصغرى (القولات) ، فان أحد أعضاء لجنة من لجان الشعب يأخذ على عاتقه انشاء فرع للشعبة، ويخرج للقرية ، ويؤلف لجنة من أهل ثقته لايعرفون من أعضاء الشعبة سواه .. وقس على ذلك

وتختار الجمعية لنشر آرائها صحفا ينشئها أفراد منها يظهرون للناس ، وقد لايظهرون

وكان رامز من أعضاء لجنة الادارة فى سـلانيك ، فلما أتى القهوة عرف من لقيهم هناك من الأعضاء ، وكانوا قد يئسوا من بقائه على قيد الحياة .. فأخبرهم أنه جاء فى مهمة ذات بال تغنيهم عما يقاسونه من العذاب ، وأخبروه عن مكان الاجتماع فى بعض أطراف المدينة ، ودلوه على طريقة الوصول اليه

فتفرقوا من هناك ، وسـار كل منهم الى منزله . وتذكر رامز والده وانه ربما أتى فى أثناء الاجتماع تلك الليلة ، فأسرع الى بيت طهماز وأوصى الجار اذا جاء رجل صفته كذا وكذا أن يلحق به الى بيت كذا ، وهو المكان المؤدى الى محل الاجتماع . ولم يلاحظ رامز أن أحدا يتبعه ، على أنه لم يكترث بذلك لعلمه أن طريقة الوصول الى ذلك المكان لا يستطيع الجواسيس كشفها .

فلما كان قبل منتصف الليل خرج من الفندق وسار فى شارع استطرق منه الى آخر فآخر حتى وصل منزلا طرقه ، ففتح له ، فدخل فيه ثم خرج من باب سرى منه الى زقاق لايهتدى اليه غير العارف ، فاذا تعقّبه جاسوس يشـك أن ذلك المنزل هو مكان الاجتماع ، فاذا دخله وسأل عن القوم ، لا يجد فيه أحدا ، ولا يهتدى الى المكان الذى خرجوا منه . وهو منزل بعض الأجانب مما لايجسر رجال الضبط ولا غيرهم أن يطرقوه ، ولم يكونوا يذهبون الى كل اجتماع فى نفس ذلك الطريق .. فأوصى رامز صاحب ذلك المنزل اذا أتى والده أن يرشده الى مكان الاجتماع، ويخبره عن كلمة السر

فلما صار رامز فى الزقاق أصبح فى مأمن من الرقباء ، وسار مدة فى طرق مبهمة حتى انتهى الى محفل ماسـونى يجتمع فيه الماسونيون ، ولا حرج عليهم وقد أحيط المكان فى تلك الليـلة بالرجال من أعضاء الجمعية المنبثين فى جهات مختلفة ، لا يراهم أحد وعليهم العدة والسلاح للدفاع عن الحاجة (١)

فلما وصل الى الباب ، تلفت حتى تحقق من خلو الطريق من الجواسيس ، فطرق الباب طرقا خاصا ففتح له ، فدخل فى دهليز مظلم بأحد أركانه مصباح صـغير ، نوره متجـه بواسـطة عدسة مقعرة نحو الباب .. فيقع النور شديدا على وجه الداخل بحيث يـَرى ولا يـُرى .. وقد اصطف فى الدهليز صفان من الرجال

(١) خواطر نيازى

عليهم ملابس سوداء ، وقد تلثموا حتى لاتظهر منهم الا العيون . فحالما دخل رامز رفع الحراس سـيوفهم المجردة فوق رأسه ، فأشار اشارة ، ففتحوا الطريق .. فدخل الى غرفة يعرفها ، فاتشح فوق ثيابه برداء أسود يغطيها كلها ، ولها كساء للرأس كاللثام يرسل على الوجه عند الحاجة ، وسار الى قاعة الجلوس يتقدمه أحد الحراس ليهديه الى الباب .. فلما بلغه قرعه قرعا خاصا ، ففتح له ودخل ، وفيه ١٢ كرسيا هى مقاعد لجنة الادارة .. ولا يحضر تلك الجلسة سواهم الا باذن خاص ، وكان رامز واحدا منهم كما تقدم . وقبل دخوله أوعز الى الحراس اذا جاء والده وأدى العلامة اللازمة أدخلوه اليهم بالطريقة المعروفة

— ٥٩ —

الجلسـة

فلما صار رامز فى داخل القاعة ، طرق « المرخص» على الطاولة طرقة خاصة ، معناها الدعوة الى الجلوس ، فجلس على كرسى من الاثنى عشر كرسيا .. وكانت القاعة مربعة الشكل ، تحيط بها الكراسي ، وفى صدرها «المرخص» أو الرئيس ، وأمامه طاولة عليها كساء أسود ، وفى منتصف القاعة طاولة صـغيرة عليهـا الانجيل والقرآن والمسدس،وفى صدر القاعة فوق مجلس الرئيس صورة مدحت باشا مجللة بالسواد . فعرف رامز من الأعضـاء

الاميرالاى حسن رضا بك من الطوبجية ، والقائمقام فائق بك أركان الحرب ، والبكباشيين أركان الحرب فتحى بك ، وحقى بك ، والمحامى رفيق بك ، وطلعت بك ، والبكباشى أنور بك ، والقائمقام أركان حرب جمال بك ، ورحمى بك ، وغيرهم . وكل الحضور بملابس سوداء ، وقد رفعوا اللثام عن وجوههم لأنهم أعضاء لجنة الادارة

فلما تم جلوس الأعضاء ، قال الرئيس : « تفتح الجلسة باسم الله وبذكرى مدحت باشا ضحية الدستور .. »

فوقف الجميع احتراما ، ثم جلسوا ، وقال الرئيس : « أيها الاخوان .. ان أخانا رامزا قادم الينا من يلدز فى مهمة خاصة يرجو منها خيرا ، فلنسمع مايقول »

فوقف رامز وقال : « أنتم تعلمون انى أخذت غيلة الى يلدز منذ أيام ، ولعلكم قطعتم الأمل من حياتى ، لأن الذاهب الى ذلك المكان ، كالذاهب الى الجحيم »

فضحك الحاضرون ، وقال الرئيس : « علمنا بذلك ، وكانت أخبارك تأتينا بواسطة أحد اخواننا الشجعان هناك .. لا نظن أنك تعرفه .. »

فاستغرب رامز ذلك وقال : « انى لم أشاهد أحدا ، لأنى قضيت مدة اعتقالى هناك فى مكان منعزل عن الناس .. »

قال الرئيس : « ان أخانا هناك أخبرنا ببعض ماقاسيته ، وقال انك كنت مسجونا فى قصر مالطة »

فازداد رامز استغرابا لأنه لم يكن يعلم بوجود جاسوس هناك للجمعية ، فقال : « نعم .. انى كنت مسجونا وقد قاسيت كثيرا ، ولى الشرف انى قمت بالقسم الذى أقسمته بالنظر الى الجمعية المقدسة ، فلقيت السلطان وغيره من رجال المابين وألحوا على أن أبوح بأسماء الأعضـاء العاملين فيها ، فأبيت وكنت أتوقع أن أتشرف بالقتل فى هذا السبيل ، لكن فتح لى باب لم يسبق لأحد أن وفّق الى مثله ، وفيه منجاة من سفك الدماء والوصول الى الهدف على أهون سبيل »

فتطاول الأعضاء بأعناقهم لسماع حديثه .. وبادره الرئيس قائلا : « ماهو ذلك الباب أيها الأخ ؟.. اننا من أحب الناس فى المسالمة ، وأنت تعلم ان خطة جمعيتنا هذه نيل الدستور وانقاذ هذه الدولة من الدمار بالطرق السـلمية ما اسـتطعنا الى ذلك سبيلا .. »

فقال رامز : « ولعلمى بذلك فقد عددت ما وفقت اليه نجاحا باهرا » ..

فاستأذن أنور بك وقال : « هل يأتى من المابين أمر فيه مصلحة لا يعتوره سفك دماء ؟.. انى لا أرى أن الاصلاح يتحقق بغير السيف وسفك الدماء .. »

فقاطعه الرئيس قائلا : « لله درك يا أنور من رجل حـرب وحزم .. ولا يمنعنا ذلك من الاصغاء الى مايعرض علينا ، وليس على الله مستحيل »

فعاد أنور الى مجلسه وهو يقول : « ليس على الله مستحيل هات أيها الأخ ما عندك .. »

فقال رامز : « أنتم أهل حرب وكفاح يهون عليكم القتل .. وأما أنا فانى رب قلم وبحث ، ولا أرى الوصول الى الاصلاح بالحسنى مستحيلا ، ومع ذلك فانى أعرض عليكم ما جئت من أجله .. »

— ٦٠ —

حديث رامز

فأصغى الجميع وأخذ رامز يقص حديثه مع السلطان .. حتى أتى الى ما دار بينهما فى قاعة قصر جيت ، وكيف اعترف عبد الحميد بخطئه وكلفه أن يخبر أعضاء الجمعية بشأن المجىء اليه ، وكيف أطلق سراحه لهذا الغرض .. الى أن قال : « ومما يؤكد لى صدق نية السلطان هذه المرة أنه أطلق سراحى بعد أن كنت فى قبضة يده . وفعل ذلك سرا عن كل انسان حتى تولى اخراجى سرا بنفسه .. وقد أطلق سراح والدى أيضا ، وأنتم تعلمون اننا يئسنا من بقائه حيا .. و .. »

فلما ذكر والده ظهرت البغتة على الحاضرين ، ولم يتمالك الرئيس عن قطع حديث رامز قائلا : « والدك أتى معك ؟.. أين هو ؟.. »

قال رامز : « لم يأت معى ، فانه استمهلنى ريثما يصلح من شأنه ويأتى فى الغد .. ألا تعدون هذه المعاملة دليلا على اقتناع عبد الحميد بخطئه ، وانه ألهم الرجوع الى الصواب على يدى الأحرار العثمانيين ؟ »

وكان الكل يسمعون وهم يستغربون هذا الاقتراح ، فلما فرغ من كلامه قال الرئيس يخاطب الأعضاء : « أنتم تعلمون قانون جمعيتنا المقدسة .. ولا يخفى عليكم ان قانونها انما هو المطالبة بالدستور ، وقلب الحكومة الاستبدادية بالحسنى بلا سفك دماء على قدر الامكان . ولذلك فلا يمكننا رفض اقتراح عبد الحميد مع مافيه من نيل الدستور على أهون سبيل . ولا يخفى عليكم أيضا ان هذه الجمعية ترى اذا نالت الدستور أن لا تلحق بالسلطان سوءا .. اذ لا رغبة لنا فى الانتقام ، وانما نريد الاصلاح .. »

فوقف انور بك وشاربه المرتفع ينتفض من التأثر وقال : « يا اخوانى ان اقتراح عبد الحميد جميل ، وحقن الدماء جميل.. أما نيل الدستور بالحسنى فنعمة لا مثيل لها ، ولكن ذلك يخالف النواميس الطبيعية الاجتماعية التى جرت عليها الأمم من أقدم أزمنة التاريخ .. هل سمعتم بأمة نالت حريتها وتخلصت من حكومة الاستبداد الا بالسيف .. ولله در الشاعر العربى القائل :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

« لا نقول ان نيل الدستور بالحسنى مستحيل ، ونحن فى

الصفحة مفقودة

Missing Page

الصفحة مفقودة
Missing Page

فوجه الرئيس كلامه الى رامز قائلا : « شغلنا بهذا البحث عن حديث والدك سعيد بك .. هل اتصلت به فى يلدز ؟.. »

قال رامز : « نعم .. وسيكون هنا الليلة أو فى الغد .. »

فقال حقى بك : « سعيد بك صـــديق مدحت باشا لايزال على قيد الحياة ؟! »

– ٦١ –

مدحت وسعيد

قال الرئيس : « نعم .. نحمد الله على ذلك . لعلكم تعلمون مهمة هذا الأخ أو بعضكم لا يعلمها ، فأقصها عليكم بالاختصار لأنى صديق قديم لسـعيد بك .. كان أخونا المشـار اليه أكثر الأحرار التصاقا بأبينا وأستاذنا مدحت ، صحبه فى أكثر مصائبه ونكباته حتى رافقه أخيرا الى منفاه فى الطائف ، لأنه كان يعشقه أو هو يعشق الدستور الذى ذهب ضحية له .. وقد قص علىّ الفظائع التى قاساها مدحت فى منفاه من الجوع والتعذيب الى القتل . أخبرنى الأخ سعيد انه شهد مقتله على أيدى تسعة من الخونة فيهم ضابطان، أحدهما شركسى.. خانا الشرف العسكرى، والباقون من الأنفار قتلوه خنقا ، وقطعوا رأسه وأرسـلوه فى صندوق شحنوه الى يلدز ، وكتبوا عليه انه يحتوى عاجا يابانيا وأدوات صناعية لجلالة السلطان .. قص علىّ سعيد ذلك وهو

يبكى وقد بكيت معه ، ولاشك انكم تشاركوننا فى مصيبة أبى الأحرار . ان عبد الحميد قتل مدحت ، ولكنه لم يقتـل روحه وتعاليمه.. ووجودنا فى هذا الاجتماع وسعينا فى سبيل الدستور انما هو نسمة من تلك الروح الطاهرة . وليس ذلك كل أفضال مدحت ، فانه علمنا تجنب الخطر وعدم الاركان الى المواعيـد اقتداء به ، وقد بعث الى الأحرار العثمانيين رسالة شفهية على يد الأخ سعيد ، بلغنا اياها وقال : ان هناك وصية مخطوطة كتبها المرحوم وهو فى قصر مالطة يوم قبضوا عليه ، وأخذوا فى محاكمته تلك المحاكمة الظالمة ، وكأنه أحس بالخطر القريب وهو هناك ، فاغتنم فرصة انفراده وكتب وصية للأحرار ووضعها فى مخبأ فى قصر مالطة على أن يحملها معه ، ويدفعها الى بعض خاصته بعد خروجه من ذلك القصر .. فأُخْرِجَ فجأة ولم يمهل ريثما يأخذ الوصية ، فبقيت هناك .. وظن نفسه سيعود بعد تغير الأحوال ، فلما يئس من ذلك وأحس بقرب الأجل أسر الى سـعيد خبر الوصية ، ودله على مخبئها فى قصر مالطة .. وأوصاه أن يتلوها على الأحرار العثمانيين حيثما وجدوا . فلما عاد سعيد من الطائف أخذ يبث أفكار مدحت سرا ، وأنتم تعلمون أكثرها ، وأصبح يترقب الفرص لاخراج الوصية ، فلم يستطع دخول يلدز بالحيلة الا منذ بضع عشرة سنة ، ونحن فى انتظار رجوعه الى الآن . فأنا أعد خبر خروجه فوزا لنا ، وبشارة تدل على قرب النجاة من أسر الاستبداد ، واطلاق روح الدستور »

الصفحة مفقودة
Missing Page

الصفحة مفقودة

Missing Page

فطلبت البقاء هناك يوما آخر فبقيت بلا رقيب ، فأخرجت الوصية من مخبئها وخبأتها بين ثيابى بحيث يستحيل الاطلاع على مكانها وها هى .. » قال ذلك وأخرج أوراقا تآكلت أطرافها لطول دفنها فى التراب ، وتهرأت .. دفعها الى الرئيس ، فشخصت الأبصار وتطاولت الأعناق لما سيتلى عليهم ..

– ٦٢ –

وصية مدحت

فنهض سعيد لمساعدة الرئيس فى ترتيب الأوراق ، ومعرفة أولها من آخرها ، وتعرف الرئيس على خط مدحت فقبله وقال: «هذا خطه .. رحمه الله » وعاد الى الترتيب ثم قال : « ان هذه الوصية مكتوبة بسرعة كبيرة .. ولذلك فهى أسطر متقطعة أشبه بالمفكرات منها بالوصية ، فابدأ بما على ظهرها » وقلب الورقة وقرأ : « الدستور أطلبوه بالسيف »

فلم يتمالك انور أن صاح : « برافو .. بالسيف .. بالسيف» فنظر اليه الرئيس بلطف كأنه يوبخه على مقاطعته ، ولم يكن أنور بك ممن يقاطعون ، بل هو أدرى الناس بالأصول والقواعد لحفظ النظام ، ولكنه فرح بمطابقة قول مدحت لرأيه ، فغلب عليه فرحه ، فقال تلك الكلمة . أما الرئيس فعاد الى القراءة فقرأ : « سأذهب ضحية طلب الحرية ، ولكننى فرد لا تذهب

بذهابه تلك الروح التى أخذت تدب فى نفوس العثمانيين .. روح الحرية سرت فى نفوس الشبيبة العثمانية ، ولابد أن تزداد سريانا كل يوم بطبيعة العمران .. فموت واحد من الأحرار ، أو عشرة ، أو مائة ، لايمكن أن يقف فى سبيلها . ولذلك فأنا أكتب هـذه السطور أخاطب بها تلك الروح الممثلة فى الشبيبة العثمانية .. اثبتوا فى طلب الحق فانكم ستنالونه . لابد من نيل الدستور ؛ لأنه حق ، وان طال الأمد على ضياعه .. لابد من تغلبه ، ولكننى أرشدكم الى أمور عرفتها بالاختبار الشخصى ، ولو عرفتها قبل الآن لم تصل أيدى الظالمين التّى ، ولا أفلت الدستور من يدى ، ولكنى وثقت وارفقت فذهب سعيى بين الرفق والثقة ، فاحذروا من ذلك .. وهذه وصيتى بالاختصار ، فان الوقت لايساعدنى على التطويل ، وأنا مطلوب للوقوف أمام تلك المحكمة الظالمة ، ولا ألبث أن يحكم علىّ بالقتل أو النفى فأكتب مختصرا :

« (١) ــ علموا الأمة .. رقوا العامة ، ان الجهل سبب كل علة . ولا أعنى التعليم المدرسى كدروس الصرف ، والنحو ، والحساب ، ولا الطب ، ولا الهندسة ، أو القضاء . وانما أعنى تربية الشبان وتدريبهم على الحرية الشخصية ، واستقلال الفكر ، وبث روح الوطن فى نفوسهم حتى يدركوا ماهو ــ وهذا يقتضى تعليم المرأة فانها روح الأمة ــ فاذا ارتقت وتثقفت نشأ أبناؤها على مثالها ، فالأمة التى نساؤها مثقفات ، أو مرتقيات ، ينشـأ أبناؤها أهلا للحرية ، ولو لم يتعلموا .. فان القصـد التربية ،

الصفحة مفقودة

Missing Page

الصفحة مفقودة

Missing Page

فاحذروه » ..

فلما بلغ الرئيس الى هنا ، وقف أنور بك وقال : « أستأذن الأخ المرخص أن أقول : فليحى مدحت أبو الأحرار .. هذا هو الرأى الصواب وقد جاء قوله فصل الخطاب .. »

فابتسم الرئيس ، وعاد الى القراءة ، فقرأ :

« (٥) ــ بقيت وصية ربما تعجبون منها لعلمكم بالقواعد التى تقتضيها الحرية . ان الحرية تقتضى العدل والرفق وحقن الدماء ، ولكنها لاتنال الا بسفك الدماء .. أعنى الفتك بالأفراد الذين يقفون فى سبيل أغراضكم ، لأن رجلا واحدا شريرا ، قد يكون وجوده سببا فى فناء أمة ، أو ضياع حقوقها . فاذا كان الحق لايقضى بقتله ، فالسياسة تقتضيه .. افتكوا بالأشرار واقتلوهم . واذا كانت الجندية معكم فليس أهون عليكم من ذلك .. كل من تأكدتم سعيه ضد الحرية والدستور اقتلوه ، وأنا المسئول عن ذنبكم بقتله ، انكم اذا قتلتم شخصا أحييتم أمة .. لو أتيح لى أن أعرف ذلك قبل الآن لكنتم رافلين الآن فى بحبوحة الدستور ، ولكن تلك سنة الله فى خلقه ، يستفيد الأبناء من اختبار الآباء .. »

ولما فرغ الرئيس من قراءة هذه الوصية تنفس الصعداء ، ولم يتكلم أحد الا الشاب الملازم لك . فانه تنحنح تصديقا لما سمعه ، وعاد الرئيس الى القراءة :

« (٦) ــ اذا أتيح لكم الفوز بالدستور احذروا أن تبقوا

هذا الطاغية على كرسى السلطنة ، وان ظهر لكم انه تاب ورجع فانه يظهر غير مايضمر ..

« (٧) — لى وصية أخرى ، هى آخر الوصايا تتعلق بتوارث الملك فى الدولة العثمانية .. ان طريقــة التوارث المعمول بها الآن لا تخلو من الخطر على الدولة ، اذ يكون ولى العهــد شخصا معينا هو آكبر أبناء السلاطين سنا ، فقد يتفق أن يكون غير كفء لادارة أمور الدولة ، فاذا أعلن الدســتور وصارت الحكومة العثمانية دستورية أصبحت مقاليدها فى أيدى النواب، فينبغى أن ينظروا فى توارثالملك .. انه عظيم الأهمية فان لميكن ذلك ساعة الانقلاب ، فبعده عند سنوح الفرصة .. والذى أراه أن يبقى حق السيادة فى آل عثمان يتوارثونها بشرط أن يكون كل بالغ من أبنائهم مرشحا لولاية العهد ، وانما يكون للأمة أو مجلس نوابها أن يختار منهم من يجد فيه الكفاءة لهذا المنصب ..

« لست أنكر مايعترض هذه الوصية من العقبات .. ولكنها لازمة ..

« وأخيرا أســتودعكم الله ، وأنا ذاهب للموت فى ســبيل الدستور .. »

« مدحت »

الصفحة مفقودة
Missing Page

الصفحة مفقودة

Missing Page

جديدة فى جمعيتنا .. فكروا قبل الموافقة عليها ، انها خطوة هامة جدا .. فما قولكم ؟ »

فاستأذن سعيد فى الكلام ، فأذن له ، فقال : « انهذه الشريعة قديمة ، وأنا أعتقد انها ستكون الدواء الناجع لهذه الحالة . انكم تفتكون ببضعة من كبار الظالمين حتى تصغر نفوسهم ويهابوكم اذ يعلمون انكم لاتقتصرون فى الدفاع على الأقلام ، ولكنكم تدافعون بالسيوف أيضا ، وهؤلاء القوم لايفهمون سوى الارهاب.. فخاطبوهم بلسانهم ، وأنا الضامن لفوزكم باذنالله..»

وكان لكلام سعيد وقع عظيم فى نفوس الحاضرين حتى لم يبق الا من وافق على هذا الرأى .. ولما عرضه الرئيس على الاكثرية أقروا عليه بالاجماع ، وكان رجال العسكرية أكثر سرورا به لأنهم أهل سيف .. ومع ذلك وقف الرئيس وقال : « نقبل هذا القرار رغم ارادتنا لأنه مخالف للخطة التى رسمناها من أول انشاء جمعيتنا .. لكننا قبلناها ، أولا : لأنها وصية أبينا وأستاذنا ، وثانيا : لأن السياسة تقتضيها ، وقد أقر عليها الأعضاء .. »

ثم عرض مسألة بقاء عبد الحميد على العرش ، اذا نالوا الدستور .. فاختلفت الآراء فيه ، وفى الوصية التالية ، واتفق الرأى على ان ينظر فى ذلك فيما بعد .. فاذا وفقوا الى نيل الدستور تصرفوا حسب الأحوال

ثم أوعز الرئيس الى الكاتب أن يبلغ هذا القرار الى شعب

الجمعية فى مناستير وغيرها فأجاب مطيعا . ثم سأله الرئيس :
« كم هى الساعة ؟ .. »

فقال الكاتب : « الثانية بعد منتصف الليل .. »

فقال الرئيس : « لم يأتنا خبر حتى الساعة من الأخ المقيم فى يلدز ، وقد عودنا أن يرسل الأخبار كل يوم ، أو يومين .. »

فقال الكاتب : « لم يتأخر عن الارسال ، فقد أتتنى رسالته فى هذا المساء ، ولم أتمكن من فضها قبل مجيئى ، وأنا أعمل الآن فى حل رموزها على الأرقام (شيفره) .. »

فاستأذن رامز أن يساعده فى حلها لأنه خبير بذلك فأذن له . ثم أشــار الرئيس أن تعطى عشر دقائق استراحة ريثما يفرغ الكاتب من حل رموز تلك الرسالة ، فنهضوا وخرجوا الى قاعة الاستراحة ، والتفوا جميعا حول سعيد ورامز ، وجعلوايسألونهما عما مر بهما من الأهوال ، ويتحدثون ويتفاوضون ، وتناولوا بعض المنعشات . ثم عادوا الى الجلسة ، فقال الرئيس للكاتب :
« هل فى رسالة أخينا شىء جديد ؟ .. »

فقال الكاتب : « نعم ياحضرة الأخ المرخص .. »

قال الرئيس : « اقرأها .. »

فقرأ الكاتب : « خذوا حذركم .. ان المسألة أخــذت دورا جديدا ، تنبهوا جيدا ، ان الطاغية بعث الى ناظم بك قومندان سلانيك أن يفتك بالجمعية ويقتل على الشبهة ، فمن استطاع أن يقبض عليه ويرسله الى سلانيك أرسله ، والا فهو مفوض بالقتل

سريعا ، وله الجوائز على ذلك .. وأخشى أن يتعرف على مكان الجمعية ، فيباغتكم برجاله والعياذ بالله .. خذوا حذركم .. »

— ٦٤ —

الفتك

وكان الكاتب يقرأ ، والقوم صامتون مبغوتون ، فلما فرغ من القراءة ضج الحاضرون .. وكان أعلاهم صوتا الملازم ك . فانه قال : « قد اقترب أجله .. قولوا رحمة الله عليه .. »

فعجبوا من تعبيره وفرحوا بحماسته ، ولكن الرئيس طلب النظام للجلسة ، فانتظمت . فقال : « قد سمعتم ماجاءنا من أخينا فى يلدز بشأن ناظم بك .. فما قولكم ؟ .. »

فقال أنور بك : « ينبغى أن يذهب هـذا الرجل من الوجود بمقتضى قرارنا الأخير .. »

فقال الرئيس : « ان هذا العمل يستلزم أن يكون فى الجمعية فدائيون يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل ، كما فى سائر الجمعيات السياسية فى أوربا .. ونحن لم نتعود ذلك بعد ، فينبغى أن ندبر تدبيرا جديدا نسير عليه .. »

فوقف رامز وقال : « ان ناظم هذا أساء الىّ ، وأنا أولى الناس بقتله .. »

فتصدى الملازم ك . وضحك وهـو يقول « لا تتعد يا رامز

على ما ليس من شأنك . انما أنت أهل لكتابة المقالات ، ونظم الشعر ، فاذا احتجنا الى ذلك يوما ما .. فلا غنى لنا عنك .. اعدام هذا الرجل واجب علىَّ .. أقول ذلك وأطلبه بالحاح .. أنا أعدم ناظم من الوجود غدا .. »

فأعجب الجميع بمروءته وشجاعته وثبات جأشه ، وقال له الرئيس : « تتعهد بقتل ناظم ؟ .. »

قال بلا تردد : « نعم .. »

قال الرئيس : « اذن فأنت أول فدائى فى سبيل الدستور ، فاذا بقيت على قيد الحياة فيكون لك فضل يتناقله الناس ، وليس بين الأحياء من العثمانيين من عمل عملك .. واذا مت فليس بين الأموات منهم من سبقك الى ذلك .. »

ونهض الرئيس وناداه اليه فقبّله فى رأسه ، ودعا له أن يحفظه الله من ذلك الخطر ، فقال الشاب : « لم أقدم على هذا العمل وأنا خائف من الموت .. لابد من الخطر فى سبيل الحرية ، فاذا مت فاذكرونى عند أهلى .. »

ثم اجتمعوا جميعا فى وسط القاعة حول القرآن والانجيل والمسدس ، وأقسموا على الثبات والكتمان حتى يقضى الله بما يشاء ، وودعوا بعضهم بعضا وقد اقترب الفجر ، وأخذوا فى الخروج من باب سرى غير الذى دخلوا منه يؤدى الى زقاق ضيق لا يفطن له أحد

وبينما هم فى ذلك اذ استوقفهم أحد حراس المحفل فرجعوا ،

فقال : « شاهدت رجلا متنكرا أكثر من المرور ذهابا وايابا فى الشارع المؤدى الى المحفل فى هذه الليلة .. ويظهر من مشيته وحركاته انه ناظم بك القومندان ، أو رجل يشبهه .. »

فلما سمعوا قوله أجفل رامز والتفت أبوه اليه ، وقال له : « ألم أقل لك انه سيراقب خطواتك .. فاحذر منه ؟ .. » .

فمد الضابط الملازم يده اليهم وقال : « لا تتعبوا أنفسكم بالحذر من هذا الملعون ، فانه لن يملك فرصة يستفيد بها من معرفة مكاننا ، ولا أن يطلع أحدا على ما علمه .. قولوا رحمه الله .. »

فتحمس القوم عند اظهار هذه البسالة وقالوا له : « بورك فيك من فدائى شريف ، وقاك الله غائلة الظالمين.. وجعلك قدوة لأقرانك فى هذا السبيل الجديد .. انت أول فدائى فى طلب الدستور » وتسرب القوم من ذلك الاجتماع الى أماكنهم

— ٦٥ —

الحريم فى يلدز

تركنا شيرين وقد أمر عبد الحميد بارسالها الى القادين ج . لتحتال فى استجوابها . وكانت هذه القادين فى قصر خاص بها مثل سائر القوادين ، وهى اثنتا عشرة قادينة ، منهن أربع نساء هن زوجات شرعيات ، ولكل من هؤلاء القوادين قصر خاص فيه

دائرة خاصة تضم الباشكاتبة ، والخازنة ، والمهردار ،والاستفجى، وعدد من الخدم والخصيان ، والجوارى . ولا تخرج القادين من القصر لأى سبب من الأسباب

وأصل القادين فى الغالب سرية من السرارى المجلوبة الى قصر يلدز ، وقد بلغ عدد السرارى عنده فى ذلك الوقت نحو ٣٠٠ سرية . وللسرارى قـواعد فى تربيتهن وتدريبهن . وأكثرهن من الشراكسة ، وفيهن الروميات ، وغيرهن من الاجناس العثمانية الأخرى .. والغالب فيهن أن يحضرن صغارا الى يلدز بالشراء ، أو على سبيل الهدايا من الأهل ، أو بعض الأعيان . ويندر أن يقبل عبد الحميد جارية على سبيل الهدية من الأعيان خوفا من دسيسة ، أو غدر ، قياسا على ما يفعله هو مع سائر الناس

ينشأ أولئك السرارى فى يلدز على قواعد خاصة .. فاذا دخلت السرية يلـدز نسيت كل ماهو فى الخـارج ، فتنسى أهلهـا وأصدقاءها . ويتولى تربيتها نسـاء تعرف الواحـدة منهن فى اصطلاحهم بباش قلفه . ويرجع كلهن الى والدة سلطانة سيدة دار الحريم . تبقى هذه السرية فى المدة الاولى سنتين ، تتدرب فيهما على ما يسر السلطان من حسن الهندام ، أو الاحاديث أو غير ذلك ، حتى مشيها ووقوفها وجلوسها فانهم يجعلونه على نسق خاص . ويعلمونها بعض الاشعار أو الاقوال الشـعرية ، ويدربونها على سرعة الفهم بالرموز وغير ذلك مما يطول شرحه(١)

(١) Abdul-Hamid Intime 215

فاذا حازت الفتاة قبولا وظهرت فيهـا المواهب التى تؤهلهـا لرضى السلطان سموها « كوزده » ، فاذا تجاوزت الرتبة الاولى وحازت الاستحسان سموها « اقبـال » ، فاذا حملت الاقبـال صارت قادينا ، فيفرد لها قصر خاص كما تقدم .. لكنها لا تعد زوجة شرعية الا متى توفيت احـدى الزوجات الاربع ، فتحل احدى القوادين محلها على حسب اختيار السلطان

فيبقى مئات من السرارى على اختلاف طبقاتهن يتوقعن لفتة من السلطان .. وهن جميعا ، مع القوادين والزوجات ، وما فى قصورهن تحت رعاية والدة سلطانة وفى ادارتها ، واذا توفيت صارت احدى الخوازن أو كبيرتهن فى مكانها ويسمونها أيضا : « والدة سلطانة » كأنه لقب المنصب لا لقب النسب

وفى كل قصر من قصـور القـوادين طـائفة من الخصيان والجوارى والسرارى للخدمة والتدريب . وعلى الخصيان رئيس يسمونه الباش أغا أو قزلر أغاسى . وقد تداول هذا المنصب غير واحد فى زمن عبد الحميد ، آخرهم نادر أغا ، وقد تقدم ذكره مرارا . وصاحب هذا المنصب من أكبر أصحاب النفوذ والسطوة لثقة السلطان فيه ، وارتكانه اليه .. وقد مر زمن كان الباش أغا فيه أقوى شوكة فى الدولة من أكبر الوزراء . وذكروا ان زكى باشا أرادت الدولة ارساله قائدا لجندها فى طرابلس الغرب .. فجاء لوداع الباش أغا وهو يومئذ بهرام أغا ، فدخل عليه وهـو فى مجلس حافل ، فوقف بين يديه وقال : « يا مولاى ان الدولة

مينت عبدكم قائدا على جندها فى طرابلس الغرب ، ولى أمنية ألتمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لى حرزا من ريب الدهر ، وهى تقبيل يدكم الشريفة » فقهقه الأغا وقال له : « متى ارتفع قدركم حتى تتجاوز قدمى الى يدى »

ويذكرون من نوادر الاغا ، انه خرج الى ظاهر السراى فى الوقت الذى وصل الروس فيه الى سان استفانو ، وهو الوقت الذى كان فيه الفزع الأكبر ، والسلطان مهتم لما يؤول اليه التخت العثمانى الذى أودعه اياه آباؤه وأجداده العظام ، فدخل عليه الاغا وقال له : « لا يهتم مولانا الاعظم فقد خرجت الى ظاهر السراى ، ونظرت يمينا وشمالا فوجدت جميع ما انتهى اليه بصرى هو ملك جلالتك فلا تزعل فانه يكفينا »

ومن أدلة نفوذ أولئك الخصيان ان بهرام هذا هو الذى منع عبد الحميد من ارسال جند عثمانى الى مصر فى أثناء الحوادث العرابية ، وكانت انجلترا قد أوعزت اليه أن يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها ، فزعم الاغا المذكور ان السلطان اذا أرسل جنودا الى مصر لم يبق فى يلدز من يحافظ على حياته

وتحت الباش أغا من الخصيان طبقة المصاحبين ، واشتهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن فى زمن هذا الطاغية مما يضيق عنه المكان ..

— ٦٦ —

شيرين والقادين

دخلت شيرين الى قصر القادين ج . فبهرها ما فيه من الرياش الفاخر الثمين ، واستغربت كثرة من يجول فى أنحائه من الخدم والخصيان والجوارى .. ومشى بها الاغا حتى أدخلهـــا القصر ونساؤه وجواريه يرفلن بالملابس الفاخرة بلا حجاب ولا نقاب ، وفيهن بارعات الجمال .. ولا غرو ، فانهن مختارات من ألوف الجوارى ، حملن للاتجار بالجمال وخصصن لرضى سلطان آل عثمان صاحب الشوكة والاقتـــدار فى ذلك العهد ، والنـــاس يتسابقون الى الارتزاق بما يرضيه

لم يقع نظر شيرين على أجمل ممن هنالك ، ولم تكن تجهل الغرض من جمع تلك النفوس هناك ، وكيف انها جمعت لرضى شخص واحد هو من أشر الناس .. فتألمت فى قرارة نفسها ، لكنها شغلت بالنظر الى ما بين يديها من الفتيات ، وهن شغلن بها وأن نفرن منها لأنها غريبة . ويندر أن يدخل تلك القصور أحد من الغرباء رجالا أو نساء .. وهن أكثر استئناسا بالعبيد والخصيان مما بتلك الفتاة ، بالرغم مما فى وجهها من الدعة واللطف ..

وصلت شيرين الى باحة فى ذلك القصر كانت القادين ج قـــد اتكأت فيها على مقعد مكسو بالسجاد ، وتمددت بغير كلفة أو حذر ، وبين يديها المهرج المضحك كاغدخانه أمامى ، وغيره من

الخصيان الذين أتقنوا بعض أسباب اللهو من الالعاب ونحوها

فلما أطل نادر أغا على تلك الباحة ، وشعر الجوارى والخصيان بقدومه .. تنافروا وتفرقوا فى دهاليز القصر ، تهيبا من سيدهم وولى أمرهم . أما القادين . ج ، فلما أنبئت بقدوم الباش أغا اعتدلت فى مجلسها ، وابتسمت له .. فدخل وحيا وأومأ الى شيرين ، وكأنه يقدمها اليها وقال : « أقدم اليك هذه الفتاة واسمها شيرين ، وقد أمر مولانا البادشاه أن تكون ضيفتك مبالغة فى اكرامها ورغبة فى الترحيب بها »

فتحفزت القادين للقيام اظهارا لاحترامها أمر الخليفة وقالت : « كلنا عبيد أمير المؤمنين غارقون فى نعمه وآلائه » والتفتت الى شيرين ومدت يدها ، فصافحتها وأمرتها بالجلوس وقالت : « لقد أتيت أهلا ووطئت سهلا .. انزلى على الرحب والسعة »

فخجلت شيرين من هذا الاطراء ، واستأنست بالقادين ، وكادت وحشتها تذهب . أما نادر أغا فانه تحــول عنهما وهــو يقول للقادين : « لم تبق حاجة الى التوصية بعد أن أخبرتك برغبة أمير المؤمنين »

وحالما خرج تراجعت الجوارى من الدهاليز الى الدار ، والبطر ظاهر عليهن يتلاهين بأكل النقل .. كالفستق وغيره ، أو بمضغ اللادن يتضاحكن ويتغامزن ، وبينهن البارعات فى الجمال ، وقد أرخين شعورهن على غير كلفة .. وبعضهن اختص بحمل ما تلهو به القادين لقتل الوقت ، فاحداهن وكلت بتربية ببغاء جميل اللون

أتقن التقليد ، وأخرى تداعب قطة جميلة من قطط انقرة ، وهو ضرب من السنانير جميل الشعر رائع الألوان .. وأخرى تحمل ورق اللعب أو غيره من أسباب اللهو . ولما رأين شيرين أخـذن يتفرسن فيها ويتساءلن : من عسى أن تكون ؟ .. وليس عليها ثياب الجوارى أول قدومهن ، ولا عهدنا فى القصر من قبل ، ولا هى « كوزدة » ولا « اقبال » . على انهن لبثن ينتظرن ما يبدو من أمرها وهن لاهيات مسرورات .. الا القادين . ج ، فانها مع ما أظهرته من البشاشة والاستئناس بضيفتها كانت الهواجس مستترة بين أسرتها لما قام فى نفسها من الشك فى حب عبد الحميد لها ، رغم ما أظهره بالأمس من رجوعه الى سابق عهده معها . ولم يفتها انه انما أظهر ذلك تملقا لها حتى تقضى ما فى نفسه ، لكن حبها له كان يخدعها حتى تصدق دعواه وتتوهم انه يحبهـا .. وظلت ترجو تحقيق بغيتها وتقدمها متى وضعت حملها ، فاذا كان غلاما ارتفعت منزلتها ..

أما شيرين فلما رأت ما كان حولها من أسباب اللهو والقصف ، نفر قلبها من تلك الجلسة ، لكنها تجلدت وسكتت . وأحست القـادين بوحشتها وهى تريد أن تتملقهـا للغرض المقصود من مجيئها ، خدمة لأغراض مولاها ، فهشّت لها وقالت : « أراك تشعرين بالوحشة لأنك فى وسط لم تتعوديه ، لكنك لا تلبثين أن تألفيه . وقد سرنى اختصاص أمير المؤمنين هذا القصر بنزولك فيه ، اذ جعلك ضيفة علىّ وهذا من حسن حظى ، وأرجو أن

تتحققى من سرورى بقربك لما أقرأه على محياك من آيات اللطف والذكاء ، فعسى أن تكونى سلوة لى ، وأشارت الى جارية جاثية بقرب مقعدها تلاعب قطة جميلة .. فنهضت ودفعت القطة اليها ، فتناولتها القادين وأدنتها من خدها وجعلت تتلذذ بنعومة شعرها ، اذا لمس خدها وهى تخاطب الجارية قائلة : « أحب أن أرى الخازنة »

فأسرعت الجارية ثم عادت والخازنة وراءها ، وهى امرأة كهلة كانت القادين تحبها وتثق بها وتعول عليها ، وأصلها من البانيا وطن شيرين ، وقد جىء بها الى يلدز وشبت هناك وارتقت حتى صارت خازنة القادين.ج.. وكانت هذه تقربها وتفضى اليها بأسرارها وتعدها صديقة لها . فأحبت أن تستعين بها على اجتذاب قلب شيرين للغرض المقصود من نزولها هناك . فلما جاءت فى تلك الساعة قدمتها الى شيرين قائلة : « هذه خازنتى وصديقتى فطينة وهى من بلدك لأنها من جهات مناستير » ..

فصافحتها شيرين وتفرست فيها ، فرأت الجمال لا يزال باديا على محياها ، وملامح الالبانيين ظاهرة فيها ، فأحست بارتياح الى رؤيتها وتحركت لتهيىء لها مجلسا ، فاذا بالقادين تخاطبها قائلة : « قد دعوتك لأعرفك الى ضيفتنا ، ولكى تساعدينى فى تهيئة ما يسرها .. فدبرى ما ترينه »

فذهبت فطينة ولم يمض وقت طويل حتى جاء المهرج «كاغدخانه أمامى » فدنا من القادين وحيا تحية عسكرية ، وأشار بعينيه نحو

شيرين اشارة استفهام مع مداعبة ، فقالت له القادين : « هــذه ضيفتنا ينبغى لنا أن نضحكها ونسيها الوحشة .. فاذا كنت لا تستطيع ذلك امض بسلام »

فأدار عمامته حتى مالت على أذنه اليمنى وقال : « هل من أول الكلام خصام ؟ .. ان هذه الجميلة ان لم يعجبها كلامى لابد أن تضحك من رشاقة قوامى ، وحسن هندامى . ولكن اذا أمرت مولاتنا بمن يغنين أو يرقصن كان ذلك أدعى الى السرور » ..

فأعجبها ذكر الرقص والغناء ، فأشارت الى الخازنة فمضت ، وبعد قليل جاءت فتاة طويلة القامة عليها ملابس خاصة بالراقصات وحول زنديها الاساور والدمالج تحمل دفا تنقر عليه ، وترقص ومعها عوادة أخذت تسوى عودها ، وقد جلست الاربعاء على البساط وجعلت تنقر نقرا يناسب حركات الرقص ، وبذلت كل واحدة جهدها فى اتقان ما عهد اليها ، والقادين تلاطف شــيرين بالحديث عن حركات الرقص أو ألحان الغناء ، وأكثره من اللحن التركى ، والرومى ، وشيرين تظهر امتنانها من ذلك التلطف . لكن القادين أدركت بفراستها ان ذلك لم يشغلها عن هواجسها ، فأشارت باخراج القوم وقالت لشيرين : « يظهر انك لم تطربى لهذه الأنغــام .. ان عنــدنا جارية تقلد كل صوت من أصوات الحيوانات الأليفــة : كالديك ، والكلب ، والماعز ، وغيرها » وأومأت الى جارية سوداء هناك فسمعت شيرين صوتا كأنه صياح الديك ، فأجفلت والتفتت الى جهة الصوت فرأت جارية تحمــل

ببغاء ، فظننتها تحمل ديكا ، فلاحظت القادين انها تتوهم ذلك ، فقالت : « أظنك تحسبين ديكا يصيح وهو صوت تلك الجارية » وأشارت اليها فجاءت وهى تقلد الديك فى مشيتها ، ثم غيرت مشيتها الى ما يشبه الكلب ، وأخذت فى العواء ، ثم قلدت الفرس والحمار ، وقد علت القهقهة فشاركتهم شيرين ، لكنها كانت تفكر فيما ينطوى عليه ذلك اللهو .. فضلا عما شغل خاطرها من أمر رامز ورغبتها فى معرفة مكانه .. وكانت حين لمست رغبة القادين فى مؤانستها قد عزمت على الافادة منهــا فى استطلاع خبره أو الوصول اليه ..

— ٦٧ —

الشكوى

ولم تكن القادين ج . من المنهمكات فى اللهو أو اللعب مثل سائر القوادين، ولكنها قلدتهن فيما يرغبن فيه من القصف.. ولو تركت لنفسها لكانت أقرب الى الرزانة والتعقل والدهاء . ولكن للوسط تأثيرا فى الاخلاق والاطوار ، وما دار الحريم فى يلدز الا ملهى لعبد الحميد لا يأتيه الا اذا أراد أن يلهو ، فتتجه الافكار الى هذا الغرض .. وماذا يرجى من نساء لا عمل لهن غير الأكل والشرب ، وهن فى الغالب جاهلات ؟ .. بماذا يقضين أوقاتهن ان لم يكن بالالعاب والغناء والرقص ، وتربية السنانير والطيور ، والتعلل بالاكل والمضغ أو الاحاديث الفارغة عن الجن والعفاريت

ذلك كان شأن النساء فى يلدز الا القادين ج ، فانها كانت أقربهن الى الرزانة والتعقل ، فأدركت ان شيرين لم يفرحها ذلك العمل ، فأمسكت بيدها وأنهضتها وهى تقول : « هلم بنا الى غرفتى »

نهضت شيرين ومشت حتى دخلت دهليز القصر وشاهدت ما هناك من التحف الثمينة ، والفرش الوثير ، وتذكرت ان عند عبد الحميد ١٢ قادينا ، لكل منهن قصر مثل هذا بفراشه وأثاثه وخدمه وخصيانه غير قصوره الأخرى ، وغير ما فى يلدز من منازل الحاشية والياوران والمشايخ وغيرهم ، وناهيك بالحراس الالبان. فلم تعد تستغرب ما كانت تسمعه من الأحرار فى معرض انتقادهم المابين : ان فى تلك القصور خمسة آلاف انسان ، وفيهم النساء والجوارى والخصيان والياوران و ٧٠٠٠ جندى من الالبان . وان نفقاتها ٣٥٠٠٠ ليرة عثمانية فى الشهر ، وانهم يهيئون كل ليلة ١٧٠٠ مائدة (طبلية) (١) توزع على القصور وغيرها .. ويبقى من الأطعمة مايقتات به مئات ، ثم يوزع باقيه على بعض العائلات ..

فلما تصورت ذلك أسفت كيف يتنعم الظالمون بأموال المظلومين الأبرياء ، وكيف يسود رجل سفاح كعبد الحميد فيقبض على رجل حر نزيه كرامز وأمثاله .. وأحست عند تذكرها رامزا بقشعريرة ، وهب جسمها خوفا عليه لئلا يكون قد أصابه سوء ، وعزمت أن تخاطب القادين بشأنه فى أول فرصة .. حتى اذا وصلتا

(١) Abdul-Hamid Intime.

الى غرفة القادين الخاصة دعتها الى الجلوس على مقعد مطعم بالعاج أمام سرير مذهب ، تحيط به الستائر المطرزة ، وقد فرشت تلك الغرفة بأجسن ما تفرش به غرف النوم من السجاد والستائر . وفى صدر الغرفة موقد للتدفئة (صوبا) من البروسلين يشبه مواقد المابين الصغير ، وعليه ساعة مذهبة ..

جلست شيرين على المقعد بجانب نافذة تطل على الحديقة الداخلية ، وتشرف على البوسفور عن بعد ، وجلست القادين الى جانبها وهى ترحب بها وتتلطف فى مجاملتها حتى دعتها الى تبديل ثيابها ، وهمت بأن تطلب من الاوستة باشي اعداد بدلة فاخرة ، فاعتذرت شيرين بأنها تشعر بتعب ، وربما بدلت ثيابها بعد ذلك . وجلست الى النافذة وأطلت الى الحديقة ، فرأت ما يسرح هناك من الطيور وأكثرها من الحمام ، فاستغرقت فى هواجسها ، وانقبضت نفسها وتلألأ الدمع في عينيها ، والقادين تراعيها وتتوقع فرصة تفتح بها الحديث . فلما رأت انقباضها قالت : « مالك ياعزيزتى .. انى أراك منقبضة النفس ، واذا كان دخولك هذا القصر قد ساءك فانى لا أحملك على البقاء فيه قهرا »

فخجلت شيرين من هذا التوبيخ اللطيف ، وابتسمت وقد توردت وجنتاها من الحياء وقالت : « العفو ياسيدتى .. انى هنا منذ بضعة أيام ، ولم أشعر بأنس وراحة كما شعرت فى هذا اليوم منذ رأيتك .. فى الحقيقة انك معدن اللطف والانس .. »

قالت القادين : « مالى أراك منقبضة النفس على هذه

الصورة ؟ » ..

فتنهدت وسكتت ..

فأدركت القادين انها قلقة على حبيبها ، وكان نادر أغا قد أفهم القادين . ج ، كل ماعرفوه عن شيرين حتى تعرف كيف تتوصل الى معرفة أخبارها ، فتجاهلت وقالت : « اسمحى لى ياحبيبتى أن أقول بصراحة .. ان ما أراه فيك لايكون الا فى المحبين .. »

فلم تتمالك شيرين عن البكاء ، فهمت القادين بمسح دموعها ، وقد أثر فيهـا منظرها وأحست بما تقاسيه لأنها جربت مثله بنفسها ، فقالت : « يظهر أن ظنى قد صدق ، فأنت عاشقة و ..»

فأجفلت شيرين من هذا التعبير ، ومدت كفها نحو فم القادين كأنها تسكتها عن الكلام حياء وانكارا ، فقالت القادين : « لا يسوءك انك عاشقة فان الحب ليس عارا ، وقد يكون حبك طاهرا .. قولى ولا تخفى عنى شيئا .. اجعلينى مستودع سرك وان كانت هذه أول مرة لقيتنى فيها ، فانى شعرت بعطف نحوك مثل عطفى على شقيقتى .. »

فانشرح صدر شيرين لهذا التلطف ، وحسبت نفسها قد فازت بما تريده .. لأنها انما أظهرت انقباضها بين يدى القادين ، لعلها تتصل بالحديث الى توسيطها فى انقاذ رامز ، وهى تعتقد أنه أسير هناك .. فابتسمت وقد خفق قلبها من شدة الفرح بهذا الأمل ، وقالت : « انك فى الحقيقة أكبر تعزية لى .. ولا أرى بأسا من الشكوى اليك ، لعلك تستطيعين التفريج عنى بما عندك من

النفوذ والدالة » ..

فتطاولت القادين نحوها وقالت : « قولى لا تخفى عنى شيئا وتأكدى انى أبذل جهدى فى سبيل راحتك »

قالت شيرين : « ألا تعرفين أسيرا حمل من سلانيك الى يلدز فى هذين اليومين ؟ »

قالت القادين : « نحن بعيدات عن أمثـال هذه الاخبار .. لا يؤذن لنا بالاطلاع على شىء من ذلك .. ولكننى أستخدم من يأتينا بخبره اكراما لخاطرك .. زيدينى ايضاحا »

فاستبشرت شيرين وأبرقت أساريرها وقالت : « ان شابا من ذوى قرابتى اسمه رامز اتهموه بالدخول فى جمعيـة سرية فى سلانيك ، ووشى به بعض الجواسيس ، فقبضوا عليه وساقوه الى يلدز منذ بضعة أيام .. فلم أتمالك عن اللحاق به حتى يلحقنى ما يلحقه أو أستطيع انقاذه .. وقد علمت انه محجوز فى أحد هذه القصور .. سمعت ذلك من السـلطان نفسه ، ولكننى لم أعرف غير ذلك .. فأظهرت القادين الدهشة وقالت : « تشرفت بمقابلة البادشاه ؟ »

قالت شيرين : « نعم تشرفت بالمثول بين يديه .. »

قالت القادين : « انه حظ يندر أن يوفق اليه النساء ، ويظهر أن جلالته يعلم ما بينك وبين رامز من القرابة .. »

قالت شـيرين : « نعم .. هو يعلم ، ويظهر أن الجواسيس

أطلعوه على خبرى معه .. »

فأظهرت الاستغراب وقالت : « لا تؤاخذينى على كثرةأسئلتى ما الذى دعاك الى مقابلة الذات الشاهانية ؟ »

قالت شيرين : « دعانى الى ذلك كما قلت لك رغبتى فى الدفاع عن رامز والتصريح للسلطان بما يجول فى خاطرى من أمر الدولة ، وما يحدق بها من الاخطار اذا لم يتداركها جلالته بالدستور .. »

فأجفلت القادين وتراجعت عند سماع اسم الدستور وقالت : « قلت له ذلك ؟.. وماذا قال لك ؟ »

قالت شيرين : « أظهر لى كل ارتياح وآنسنى ، لكنه طلب الىّ أن أخبره عن أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » القائمة بالمطالبة بالدستور فى سلانيك ، ورامز واحد منهم .. فاعتذرت بأنى لا أعرف منهم أحدا .. فهددنى بأنى اذا لم أبح له بأسمائهم كان رامز فى خطر على حياته ، وانى اذا بحت أنقذته من القتل »

فبادرتها القادين بالسؤال : « وماذا فعلت ؟.. ألم تجيبى ؟ »

فهزت رأسها هز الانكار وقالت : « كلا .. هبى انى أعرف أحدا منهم فهل من المروءة أن أفشى خبرهم .. وأعرضهم للخطر ؟.. »

فابتسمت القادين ابتسام الاعجاب ، وأظهرت عدم رغبتها فى الاطلاع على شىء من ذلك وقالت : « لله درك من جسورة حازمة . انى لم أعهد مثل ذلك فى النساء من قبل .. تعرضين

نفسك وخطيبك لخطر القتل محافظة على عهد بعض الناس !..
انها مناقب كبار النفوس » وخفضت صوتها وتلفتت يمينا وشمالا
كأنهـا تحذر أن يسمعها أحـد وقالت : « والحق يقال أن بين
أعضاء هذه الجمعية جماعة من العقـلاء والعلماء .. ولكن بينهم
أيضا جماعة من الضعفاء المنافقين الذين ينتفعون بأذى غيرهم ..
ولو كانوا كلهم مثل رامز ومثلك لكانوا .. » وسكتت وتحفزت
للوقوف وهى تقول : « ألا تنهضين للطعام ؟ »

فشق عليها قطع الحديث قبل اتمامه لعلهـا تتوسـل الى طلب
مساعدتها ، فاعتذرت عن الطعام بأنها غير جائعة ، فقالت القادين :
« ألا تأكلين بعض الفاكهة ؟ »

فأجابت شبرين : « كما تشائين .. » وظلت جالسة ، فعادت
القادين الى الجلوس وقالت : « لم تقولى ما هى الخدمة التى
تطلبينها منى ؟.. »

قالت شـبرين : « لم يبق لى مع ذكائك من حاجـة الى
التصريح .. »

فضحكت القادين وقالت : « طبعا أنت تطلبين معرفة مقر رامز
وتبحثين عن الطريق الى نجاته »

قالت شيرين : « نعم .. هذا كل ما أطلبه ، واذا كنت تستطيعين
أن تساعدينى على ذلك ، فلا أنسى فضلك طول حياتى .. »

قالت القادين : « اذا استطعته فانى أفعله من كل قلبى ، ولا
فضل لى فى شىء من ذلك .. » وتنحنحت وأظهرت أنها تهـم

بالكلام ويمنعها الحياء

فقالت لها شيرين : « ماذا تريدين ؟ .. قولى ياسيدتى .. ألعلك ترين مانعا من تدخلك فى هذا الأمر ؟.. فاذا كنت .. »

فقطعت القادين كلامها قائلة : « كلا .. ولكننى أكتم أمرا لا أجد من أبوح به اليه .. وقد رأيت فيك .. » وبلعت ريقها وأطرقت لحظة ثم وقفت وهى تتجاهل ما بدر منها وقالت : « سأبحث الليلة عن خبر رامز وأطلعك عليه .. افعل ذلك من كل قلبى .. وصفقت فجاءت جارية سوداء فأمرتها أن تعد المائدة ، وتكثر عليها من الفاكهة ، وأن تدعو الخازنة فطينة . وأمسكت شيرين بيدها وأنهضتها الى المائدة ، فمشت معها وهى تتوقع أن تسمع منها تتمة الحديث وأن تبوح لها بسرها ، والقادين تغالطها وكلما اقترب حديثها من تلك النقطة غيرته واستأنفت الموضوع . فأدركت شيرين أنها كانت تريد أن تكاشفها بسر وندمت فسكتت

— ٦٨ —

استفهام

قضتا بقية ذلك النهار فى مثل ذلك ، وشيرين تزداد استئناسا بالقادين . ج وخازنتها .. وظلت متعلقة الذهن بما همت أن تكاشفها به ، وتوهمت أن القادين . ج عدلت عن المكاشفة خوفا من افشاء سرها لضعف ثقتها بها ، فأجلت ذلك الى فرصة

أخرى .. ولما مالت الشمس الى المغيب ، وانقبضت الطبيعةلفراقها انقبضت نفس شيرين ، وغلبت عليها السويداء ، وليس أثقل على قلب المحب المشتاق من ساعة الغروب ، فانها تزيده وحشة وألما ، ولم تشأ شيرين أن يبدو انقباضها للقــادين . ج أو خازنتها .. فالتمست الخلوة فى غرفة أعدوها لها ، وأظهرت أنها تطلب الراحة من التعب لحظة ..

فلما خلت بنفسها فى تلك الغرفة أخذت تتأمل ما هى فيه ، وماذا عسى أن يكون من أمر رامز : هل هو هناك ، وهل يمكن انقاذه .. على أنها كانت ترجو من وعد القادين خيرا كثيرا ، ولم يخامرها شك فى صدقها .. وخاصة بعد أن رأتها تهم بمكاشفتها بسرها ، وهى لم تقابلها من قبل .. قضت ساعة فى هذه الهواجس وقد أظلمت الدنيا وأنيرت مصابيح القصر ماعدا غرفتها ، فلم يشأ الخادم أن يزعجها بدخوله لأنه كان يظنها نائمة ..

وبينما هى فى ذلك ، اذ سمعت وقع أقدام على أرض الغرفة ، فرفعت رأسها لترى من القادم ، فتبينت فى تلك الظلمة القادين داخلة وهى تخفف الوطء لئــلا توقظها ، فتحركت شــيرين فى سريرها دلالة على انها مستيقظة .. فتقدمت القادين.ج نحوها بسرعة وأكبت عليها ، وجعلت تقبلها ترحيبا بها . فجلست شيرين فى الفراش وقد أحست بحرارة تلك القبلات ، ولم يبق عندها شك فى محبة تلك المرأة ، فبادرتهــا القادين . ج بالسؤال عن صحتها فقالت : « انى بخير .. أشكر فضلك .. »

قالت القادين : « لا تظنى أنى نسيت وعدى اياك للبحث عن حبيبك ، ولكننى لا أستطيع ذلك الا فى فرصة مناسبة ، ولم‌تتأت لى الا الآن .. ولا أستطيع أن أفعل ذلك الا سرا عن‌كل انسان .. وقد يكون ذلك مستحيلا على لو لم أوفق الى فرصة لم يوفق اليها سواى من القوادين .. » قالت ذلك وتنهدت

فأحست شيرين بميل القادين الى الشكوى والمكاشفة ،فقالت لها : « مثلك يتنهد ويشكو أيضا ؟.. انك أشرف امرأة فى المملكة العثمانية لأنك من نساء السلطان . وفى المملكة ملايين من النساء يحسدنك على مقامك ، ومع ذلك فأنت تتأوهين .. »

فتنهدت ثانية وقالت همسا فى تلك الظلمة : « ليس فى المملكة العثمانية أشقى من نساء السلطان .. حتى جوارينا فانهن أسعد منا حالا .. »

فاستغربت شيرين هذه الشكوى ، وأرادت أن تعترض ، فبادرتها القادين قائلة : « هل فى الدنيا أثمن من الحرية ؟ »

فانتعشت شيرين عند ذكر كلمة الحرية وقالت : « كلا .. »

فقالت القادين : « الحرية التى يتمتع بها كلابنا ، وسنانيرنا ، وطيورنا ، ودوابنا ، حتى الناموس ، والذباب .. ان هذه الحرية نحن محرومات منها دون سائر البشر . ان المرأة متى صارت قادينا دفنت فى قصرها لاتخرج منه حتى الى الحديقة التى ترينها من هذه النافذة .. وهى الى ذلك عرضة للخطر والغضب وسوء الظن . تسعى الجارية فى يلدز الى الرقى .. وأرقى درجة يمكن أن

تبلغها أن تصير قادينا من نساء السلطان ، فاذا وصلت الى هذه الرتبة ندمت على ماضيها لأنها تفقد حريتها .. جرية الذهاب والمجيء ، ويمنع عنها التمتع بالطبيعة . الحرية .. آه الحرية .. »
وسكتت كأنها غصت بريقها

فتأثرت شيرين من هذا القول ، ووجدت للكلام مجالا ، فقالت : « آه ياسيدتى .. الحرية .. هذه مطالب الأحرار الذين يحاربهم السلطان ويبحث عنهم ويتعمد قتلهم .. » ولما قالت ذلك خشيت أن تكون قد تجاوزت حدود اللياقة .. ولكنها ما لبثت أن سمعت القادين . ج ، تقول : « السلطان .. انه لا يريد أن يكون أحد حرا ، حتى هو نفسه ، فانه مقيد فى هذه القصور كما تعلمين ، ولكن ما العمل .. اعلمى ياشيرين أنى تسرعت فى مكاشفتك ، فأرجو ألا أكون قد أخطأ ظنى فيك .. انى ظننت فيك المحبة وصدق المودة ، فهل أنا مخطئة بهذا الظن ؟ .. »

فبادرتها شيرين قائلة : « ان ظنك فى محله .. أنت تخاطبين فتاة تحبك وتعول عليك .. وياحبذا لو أستطيع أن أخدمك فى شيء .. »

فنهضت القادين حتى وصلت الى الباب ، وتلفتت خارجا كأنها تبحث عن أحد هناك ، ثم عادت وقالت لها : « ان أكبر خدمة تستطيعين تأديتها لى هى أن تنقذينى من هذا السجن .. هل يمن الزمان علىّ بذلك ياترى ؟ »

وكانت الغرفة مظلمة الا بصيص من النور كان يدخل من

ثقب الباب والنوافذ ، والقادين تتكلم همسا ، وشيرين تستغرب ما تسمعه وقد داخلها الشك لحظة فى صدقها .. لكنها حين رأتها تكشف لها سرها ولاتطلب منها كشف خبرها غلب عليها تصديقها فقالت : « اذا أتيح لى الخروج من هذا الأسر مع رامز ثقى أنى باذلة جهدى فيما تريدين .. ان القوم العاملين مع رامز على الظفر بالحرية اذا نجحوا — وهم ناجحون باذن الله — كنت فى مقدمة الفائزين .. أنا أفديك بروحى »

فأظهرت القادين أنها صدقتها وقالت : « صدقت فيما تقولين بالنظر الى حبيبك واليك ، وأما بالنظر الى سائر أعضاء تلك الجمعية فلا .. أنا أعلم منك بذلك .. كثيرا ما سمعنا بجمعيات قامت تطالب بالدستور ، أو الحرية ، ثم رأيناهم يأتون ويسلمون أنفسهم للسلطان طمعا فى المناصب ، وانما يضام منهم الأحرار الصادقون الذين يعملون لخدمة الحقيقة — ولا أظن أن جمعية سلانيك هذه المرة الا مثل سابقاتها فى باريس وغيرها — ومع ذلك دعينا نؤمن بنجاحها .. » ثم قطعت الحديث وانتقلت الى سواه لتوهم شيرين انها لا تطالبها بكشف السر — وذلك أدعى الى الحصول عليه — فقالت : « قد خرجنا عن الموضوع الذى جئت من أجله .. فأول كل شىء انى واثقة باحتفاظك بالسر ، ثم انى جئت لأعتذر لك عن تأخرى فى استقصاء خبر حبيبك ، لأنى لا أستطيع أن أتظاهر بذلك ، ولابد من اغتنام الفرصة » .

وسكتت ..

فقالت شيرين : « ألم توفقى الى فرصة بعد ؟.. »

قالت القادين : « سنحت لى فرصة لم يوفق اليها غيرى .. قلت لك ان نساء السلطان لا يؤذن لهن بالخروج من قصورهن ، ولا أن يأتى اليهن أحد غير الخصيان والجوارى ، ولذلك رأيتنا نشغل أنفسنا بتلك الألعاب الصبيانية كمهارشة الديوك ، وملاعبة السنانير ـ الا أنا .. فان السلطان أذن اذنا فوق العادة لطبيب من أطباء المابين أن يتردد الينا منذ بضعة أيام ، يسألنى عن صحتى وكنت أشكو انحرافا عالجنى من أجله ـ فهذا الطبيب أشعر أنه صادق وقد غمرته بالجوائز والنعم ـ وأنا مع ذلك مستغربة الاذن له بالدخول الى هذا القصر ، ولا أجسر على مخاطبته بشأنك لئلا أعرض نفسى للخطر ، ولكننى رأيت رأيا أظنك توافقيننى عليه .. وذلك أن أقدمه اليك بحجة أنك منحرفة المزاج ، فمتى أتى للاستفهام منك عما تشكين تدرجى بالحديث حتى تسأليه عن مكان رامز ..ولا بأس عليك اذا فعلت ذلك ،فان السلطان نفسه يعلم قلقك عليه .. فلعله يخبرك عن مكانه ، واذا أفلحت فاخبرينى بالخبر ـ ها أنا الان ذاهبة وسأرسل الخادم ليضىء هذه الغرفة ، فامكثى فى الفراش وأنا أشيع فى القصر انك منحرفة الصحة » وخرجت ثم جاء الخادم وأضاء الغرفة ، وهى ساكنة فى الفراش كالمريضة وما بها مرض . وقد عادت اليها هواجسها وأحست أن القادين . ج ، تحبها حبا صادقا ، وتثق بها ثقة كبرى ، ورأت أنها قصرت فى ايفائها حق الصداقة لأنها

أساءت الظن بها ، وخشيت مكاشفتها بأسرارها

أما القادين فقد أتقنت حيلتها حتى أوهمت شيرين انها لايهمها سر غيرها ، وتقـدمت بكشف سرها له حتى جعلتها تسعى من نفسها لمكاشفتها بأسرارها ، وأدركت بدهائها ان شيرين تنتظر أول اجتماع تجتمع فيه بالقادين لتبوح لها بأسرارها فى مقابل مافعلته هى ..

ومكثت شيرين فى الفراش ساعات حتى حان موعد النوم ، ولم يأت الطبيب .. اذ لم يكن على موعد من المجىء ، وقد أوعز اليه نادر أغا أن يبتعد عن القادين هذين اليومين .. اذ لم تبق حاجة الى التعجيل . وفى الصباح التالى بادرت القادين الى شيرين لتعتذر لها عن تخلف الطبيب عن الحضور فى ذلك اليوم ، وهى تحسب أن له عذرا فى الغياب ، وقالت انها بعثت اليه من يستقدمه .. وجلست بجانب سرير شيرين وقالت : « تأملى ياعزيزتى مدى القيود المفروضة علينا .. انى لا أجسر أن أستقدم الطبيب الا سرا ، ولو علم السلطان بذلك لبالغ فى العقاب ، وقد يعاقب بالقتل لأقل الذنوب .. ان هـذا البوسفور مملوء بجثث القتلى من النساء والرجال » قالت ذلك وهى تخفض صوتها وتتلفت ..

فلما سمعتها شيرين تقول ذلك عزمت على التصريح لها بجانب من سرها ، فقالت : « اذا كنت تشكين من اقامتك هنا ، فاتركى هذه القصور واخرجى الى بلاد الحرية .. »

فقالت القادين : « الى أين أذهب وأنا غريبة وحيدة ؟ وأعترف لك انى لا أثق بالأحرار فانهم كثيرا مارجعوا وخافوا .. »

فقطعت شيرين كلامها قائلة : « انهم ياسـيدتى اليوم غير ماكانوا عليه من قبل .. »

فهزت رأسها اسـتخفافا ، وقالت : « انهم هم أنفسهم .. لم يتغيروا .. »

قالت شيرين : « أؤكد لك انهم هذه المرة غير ما كانوا عليه قبلا .. وأنا من أكثر الناس علما بهم .. »

فاستبشرت القادين بقرب الوصول الى المقصـود ، فقالت : « ياحبيبتى ان مثيلاتنا لايمكنهن الاطلاع على حقيقة الرجال .. لم يظهر بين الأحرار المقاومين للظلم أعظم من مراد بك ، وهو الآن فى الاستانة بين الأخصاء المقربين .. »

فابتسمت شيرين ابتسام من يعلم بأمور هامة يجهلها مخاطبه وقالت : « قلت لك ان أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » هذه المرة مختلفون عنهم فى المرات الماضية اختلافا كبيرا . ولولا حرمة الأسرار لذكرت لك بعضهم ، فتثقين بقولى وتعلمين انى أقول لك الصدق .. »

فأطرقت القادين لحظة ثم رفعت بصرها الى شيرين ، وفى عينيها ملامح العتاب ، وقالت : « صدقت .. ينبغى للانسان أن يكون حريصا على سره ولا يفرط فيه كما فعلت أنا .. ولكننى وثقت بك ، ولم أندم على مافرطت فيه ، لأنى شعرت بلذة وأنا أصارحك

بأسراری .. »

فتوردت وجنتا شيرين من الخجل ، وأحست انها أخطأت فيما قالته . واذا لم يكن فى نيتها مكاشفة القادين بشىء لم يكن ينبغى لها أن تذكر شيئا من هذا القبيل ، فارتبكت فى أمرها ولم تجد لها مخرجا الا بالمكاشفة ، لكنها قالت : « قد أخطأت ياسيدتى فهم مرادى .. ومع ذلك فقد قبلت توبيخك ، فأنا لم أقل انى أضن عليك بسر أكتمه اذا كان ذلك السر لى ، وأما هــذا السر فهو لرامز وقد أطلعنى عليه ، ونحن نتشاكى .. ولايخفى عليك ذلك ، وهو واثق انه لايخرج من فمى لأحد ، فاذا أخرجته فاننى أعد عملى خيانة .. وأما الأسرار التى هى لى ، فلا أخفى عنك شيئا منها .. »

فأجابتها وهى تساعدها على الاعتذار : « ان قدرك قد ارتفع فى نظرى الآن عما كان عليه من قبــل .. ان الانسان يجب أن يكون أمينا صادقا والا فهو من الأشرار ، وحذار أن تكونى منهم . وهذا يؤكد لى ان ما كاشفتك به الآن يبقى محفوظا عن كل لسان .. لاتظنى انى أطلب منك أن تبوحى بأسرار الجمعية ، ولكننى أجادلك فى حقيقة هذه الجمعية .. فأريد أن أعرف الفرق بين أعضائها الآن وأعضائها فى الأمس ؟.. »

فانشرح صدر شيرين لذلك التخلص ، وأحست بنزاهة تلك المرأة وكبر نفسها وسعة صدرها وتعقلها ،حتى هان عليهــا أن تضع كل أسرارها بين يديها .. على انها جاملتها قائلة : « الفرق

المهم أن أعضاء الجمعية اليوم أكثرهم من ضباط الجيش العثمانى ، وكانوا من قبل من الكتاب والأدباء .. ولا يلبث الضباط كلهم أن ينتظموا فى سلكها ، فاذا فعلوا ذلك فبماذا يطاردهم السلطان عبد الحميد ؟.. »

فأظهرت القادين الاستغراب وقالت : « هل أنت على ثقة مما تقولين ؟.. قد سمعت شيئا من ذلك .. ولكنهم يقولون ان بعض الضباط الصغار المطرودين من الجيش انتظموا فى الجمعية .. »

فقالت شيرين : « كلا ياسيدتى .. ان المنتظمين فى الجمعية اليوم هم أهم ضباط الجند من أمراء الالايات ، ومن دونهم ، وهم فى خدمتهم العسكرية .. والجند تحت أوامرهم متى شاءوا ، وأنا أعرف كثيرين منهم » قالت ذلك وتصاعد الدم الى وجهها ندما على تصريحها انها تعرف كثيرين منهم

— ٦٩ —

الدكتور . ن

أما القادين فاكتفت فى تلك الساعة بهذا التصريح ، اذ تحققت أن سر الجمعية عند شيرين ، وعزمت على اتخاذ الوسائل لاستجوابها فيما بعد ، فقالت : « أراك تغالبين نفسك بين التصريح والكتمان ، فأنا أتوسل اليك أن تكفى عن التصريح .. وكأنى أسمع لغطا فى الدار ، لعل الطبيب أتى » قالت ذلك

وخرجت ، ثم عادت مبغوتة وقالت : « لم يأت الطبيب لأنه أمر بأن لايدخل قصرى فى هذا اليوم ، ولكننى سأبعث اليه أن يأتى متنكرا هذا المساء » قالت ذلك وخرجت لشأنها .. فأتت الخازنة لمسايرة شيرين ، وقد تحابتا وتفاوضتا فى شئون مختلفة ..

فلما أمسى المســـاء ذهب أهل القصر الى مضاجعهم ، وظلت القادين ساهرة فى غرفة شيرين ، وبعثت الخازنة تترقب وصول الطبيب وتأتى به اليهما . فلما اقترب منتصف الليل أتت الخازنة تخبرها عن قدومه ، فاستقبلته مرحبة ، فانحنى احتراما وقال : « قد أتيت ياسيدتى طوعا لأمرك رغم الخطر الذى أخشـــاه .. فماذا تأمرين ؟.. »

فأثنت على غيرته وقالت : « أنت تعلم ثقتى بمهارتك واعتقادى فى صدق علاجك ، وعندى صديقة أصابها انحراف ، فأردت أن تكون أنت طبيبها » قالت ذلك ودخلت .. فتبعها وهو ينظر نحو السرير ، فرأى شيرين جالســـة فيه .. فلم يتفرس فيها تأدبا ، فسبقته القادين . ج فى مخاطبتها قائلة : « هذا طبيبنا وصديقنا فأخبريه عن شكواك ريثما أعود اليكما .. » وخرجت

فاستغرب الطبيب تخليها عنهما ، وجلس على كرسى بجانب السرير ، وسأل شيرين عما تشكوه ، فقالت : « انى أشكو من ألم شديد فى الرأس .. »

وكان الطبيب يخاطبها وهو مطرق ، فلما سمع جوابها أجفل لأنه تذكر صـــوتا يعرفه ، فنظر اليهـــا وهى تنظر اليه .. وكان

الطبيب فى حدود الثلاثين من العمر . فلما وقع نظرها عليه اختلج قلبها فى صدرها لأنه يشبه شخصا تعرفه فى سلانيك كان صديقا لرامز ، فجعل كل منهما ينظر الى صاحبه فسبقها هو الى الكلام ، وان كانت سبقته هى الى المعرفة ، لكنها خشيت التصريح فقال لها : « شيرين ؟.. »

قالت شيرين : « نعم .. وأظنك أنت الدكتور . ن ؟.. »

قال الدكتور . ن : « نعم .. ما الذى جاء بك الى هنا ؟.. » وأشار بأصبعه على فمه أن لاترفع صوتها

قالت شيرين : « جئت لأبحث عن رامز .. » وغلب عليها البكاء ، ثم قالت وهى تشرق بريقها : « أين هو ؟.. وماذا تفعل أنت هنا ؟.. »

قال الدكتور . ن . بصوت منخفض : « أنا هنا فى مهمة خاصة باسم اخواننا أستطلع لهم أخبار هذا الطاغية ، وأما رامز .. » وسكت وهو يتردد كأنه يكتم شيئا يعرفه

فخشيت شيرين ذلك التردد وقالت ، وقد شخصت ببصرها فيه : « أين هو ؟.. ماذا أصابه ؟.. قل .. بالله قل .. »

قال الدكتور . ن : « تعقلى ياشيرين مثل عهدى فيك لأقص عليك خبره .. »

فتطاولت بعنقها نحوه وحدثتها نفسها بسوء أصاب حبيبها ، وعلمت ان هذا الطبيب جاسوس الأحرار فى يلدز ، ولم تتمالك أن أعادت السؤال وألحّت فى طلب الجواب فأجابها : « علمت

منذ بضـــعة أيام ان رامزا أتى يلدز وانه مقيم فى قصر مالطة ، فجعلت أترقب الفرص للذهاب اليه لعلى أســتطيع انقاذه ، فلم أستطع ذلك الا مساء أمس بحيلة انتحلتها فلم أجده هناك .. »

فاقشعر بدنها وقالت : « أين هو ؟.. أين ذهب ؟.. »

قال الدكتور . ن : « لا أدرى .. »

قالت شيرين : « بل انت تدرى .. قل .. هل قتلوه ؟ .. »

فأشار اليها أن تخفض صوتها وقال : « لا أعلم أين هو ولا ما فعلوا به ، ولم أجد أحدا من أهل يلدز يعرف خبره .. والذى عرفته بعد البحث الدقيق الى ســاعة مجيئى انه خرج من ذلك القصر فى أواسط الليل منذ يومين بدعوة من المابين ولم يرجع..» وهز رأسه كأنه يأسف لضياعه

فتحققت شيرين من انهم قتلوه خلسة ، كما قتلوا مئات قبله ، اما خنقا ، أو غرقا ، أو بالسم .. ووثبت من السرير رغم ارادتها وهى تقول : « قتلوه يادكتور ؟.. قتلوه ؟.. أظنه ذهب طعــاما للأسماك » ولطمت وجهها وبكت

فأمسكها وأجلسها وقال لها : « تجلدى ياشيرين ولا تفعلى مايؤدى بنا الى الخطر جميعا »

فصاحت : « أما أنا فلا أبالى بما يصيبنى بعد رامز ، ولكننى أخشى عليك فانك ذو نفع للأحرار .. »

فقال الدكتور . ن : « وأنت أنفع منى لهم .. هدئى روعك .. واذا فرضنا ان أخانا أصيب بسوء فى سبيل الحرية والدستور

فهنيئا له .. ان اسمه سيخلد فى كتب التاريخ .. وياحبذا يوم استشهد فى هذا السبيل »

فأطرقت القـادين ، وهى تفكر ، وأحست كأنها أفاقت من عواطفها ، ومع تفانيها فى سبيل الدستور والحرية فان حبها رامزا غالب على كل ذلك . لم تسمح نفسها أن يكون ضحية الدستور ، لأن المحب لايرضى أن ينال الدنيا كلها فداء لحبيبه .. لكنها ظلت ساكنة ودموعها تتساقط على خديها ، فعاد الدكتور الى الكلام فقال : « على اننا لم نتحقق من مصير رامز ، وقد يكون أقرب الى الحياة منا .. خففى عنك واصبرى .. ان الله مع الصابرين .. »

وبينما هما فى ذلك ، اذ سمعا وقع خطوات عند الباب .. ففطن الطبيب الى انه شطّ فى الكلام ، وخشى أن تكون القادين قد سمعت ما دار بينهما ، وهناك البلية الكبرى والخطر العظيم . ولم تنتبه شيرين لهذا الخطر فظلت ساكتة

أما الطبيب فأعمل فكره لحظة ، وكان سريع الخاطر حازما فطنا .. ولولا ذلك لم يقبل أن يكون جاسوسا للجمعية فى يلدز مدفن الأحرار . ووقف لاستقبال الداخل فاذا هى القادين ج . قد دخلت هاشة باشـة ، فانحنى لها باحترام فقالت له : « هل عالجت حبيبتنا شيرين العلاج الشافى ؟.. »

فأجابت شيرين عنه قائلة : « ان العلاج لايفيد ياسيدتى لأنهم قتلوه .. » وغصت بريقها

واستغرب الدكتور . ن تصريحها بذلك للقادين ، اذ لم يكن

يعلم انه دعى لهذه الغاية بعلم القادين ، فقالت القادين : « ماذا تقولين ؟.. هل قتلوا رامزا .. من قتله ؟ .. »

فقالت شيرين : « ألم تأذنى لى أن أسأل الدكتور . ن عنه لعله يطلعنى على خبره ، فقال انه علم بوجوده فى قصر مالطة الى منتصف الليل من يومين ، وانه دعى الى المابين ولم يرجع .. فهل عندك شك انهم قتلوه ؟ .. »

فأطرقت القادين ج . وظهرت الدهشة فى عينيها ، وقالت : « ليس من الضرورى أن يصح ما تتوقعينه .. ولكن ربما كنت على صواب ، اذ قد يفعلون ذلك .. »

— ٧٠ —

فوز باهر

وكان الطبيب يعمل فكره فى تلافى ما قد يكون من اطلاع القادين على حديثهم ، فلما رآها سلمت ان عبد الحميد يقتل على الشبهة سرا وجهرا .. طرق ذهنه سبيل للنجاة من هذا الباب فقال : « هل تعتقدين ياسيدتى ان رامزا قتل ؟.. »

قالت القادين : « لا أعتقد ذلك اعتقادا ثابتا ، ولكنهم يفعلون هذا فى سبيل صيانة الدولة .. »

قال الدكتور . ن « أراك تجيزين القتل فى هذا السبيل ؟! »

قالت القادين : « قد أجازه قبلى الفيلسوف ماكيافللى .. »

فأظهر الدكتور . ن الاهتمام ودعاها الى الجلوس على المقعد ، فجلست وهى تنظر اليه وتتفرس فى وجهه ، فقال لها : « تجيزين القتل فى هذا السبيل ، ولو كان المقتول أنت ! ؟.. »

فأجفلت القادين وقالت : « ماذا تعنى ؟.. »

قال الدكتور . ن : « أعنى سرا عظيما عهد الىّ به منذ أيام ، وأنا أؤجله شفقة عليك .. »

قالت القادين : « تعنى انهم أرادوا قتلى ؟.. »

قال الدكتور . ن : « أعيرينى سمعك واستجمعى رشدك ، واعلمى انى أعرض عليك الحياة بعد أن حكم عليك بالقتل .. »

قالت القادين وهى ترتعد : « أفصح .. لاتخف .. »

قال الدكتور . ن : « هل عهدت مثلى يدخل على القوادين ، ويتردد على قصورهن قبل الآن ؟.. »

قالت القادين : « كلا .. »

قال الدكتور . ن : « اذن ما الذى جعل لى هذا الامتياز الآن ؟.. »

فأطرقت القادين ، وهى تفكر ، وأحست كأنها أفاقت من سبات عميق ، وقالت : « ثم ماذا ؟.. قل .. »

قال الدكتور . ن : « اعلمى انك صرت فى خطر الموت منذ علم عبد الحميد أنك حامل.. ولما لم تفلح الحاضنة فى اسقاط حملك ، كلفنى بقتلك بالسم خلسة . قد يخطر ببالك الشك فى قولى ، لكنك تتحققين من صدقه متى تذكرت تردد هذا الطاغية بشأنك .

كم غالطك وأهملك .. ثم هو أجَّل قتلك حين احتاج اليك فى المهمة الأخيرة .. لا أعلم ما الذى يريده منك ، ولكنه ظل يلح علىَّ فى تنفيذ أمره بقتلك حتى صباح الأمس .. ثم أمرنى أن أنقطع عن قصرك بضعة أيام .. ففعلت . ولعلك اذا تذكرت ما الذى كلفك به الأمس تتحققين من صدق قولى »

فتذكرت القادين . ج ماخاطبها به عبد الحميد بشأن استطلاع سر شيرين ، وهى رغم حبها له كانت تعتقد بغدره مما عرفته من سيرة حياته من الذين قتلهم من رجاله بعلمها .. فأطرقت حينا وسبق الى ذهنها صدق الدكتور فى قوله وظلت ساكتة

فابتدرها قائلا : « قد ترتابين فى كلامى ، وربما حدثتك نفسك انى أخدعك ، وقد تنقلين خبرى الى هذا الطاغية .. فأنا لا أبالى اذا مت فى هذا السبيل ، ولكن موتى لاينقذك من القتل ، فافعلى ما بدا لك .. »

وكانت القادين . ج قد سمعت بعض ما دار بين شيرين والدكتور . ن من الحديث ، وخاصة قوله انه يتمنى أن يموت كما مات رامز فى سبيل مصلحة الأحرار ، وطلب الدستور ، فغلب على ظنها صدقه ، ولكنها أرادت أن تتثبت من ذلك فقالت : « وما الذى يسىء عبد الحميد من حملى حتى يريد قتلى ؟.. »

قال الدكتور . ن : « ألست أرمنية الأصل ؟.. »

قالت القادين : « نعم .. »

قال الدكتور . ن : « ألم تعلمى خوفه من الأرمن ، وكم قتل

منهم عفوا .. وأزيدك علما ان بعض المنجمين تنبأ له ان سقوط دولته سيكون على يد ولد منه تلده امرأة أرمنيـة ، فلما علم بحملك رغم الوسائل التى اتخذها .. أصبح همه قتلك ، وعهد بذلك الى ، فرضيت وأنا أؤجل ذلك قصدا لأنى أشفقت على صباك .. »

فقـالت القادين : « كيف رضيت أنت أن ترتكب هـذه الجريمة ؟.. »

قال الدكتور. ن : « حاشا لى أن أفعل ذلك .. انى حر صادق لا أقتل النفس البريئة ، وانما قبلت ليتيسر لى الاقامة فى هذه القصـور لمعرفة أخبـار المابين لأبلغها لاخوانى الأحرار .. أنا ياسيدتى جاسوس للأحرار هنا . أقول لك ذلك بكل صراحة ، ولا يفيدك أن تنقلى خبرى الى هذا الطاغية ، ولا يهمنى اذا أنت نقلته اليه ، فانه يشرفنى أن أستشهد فى هذا السبيل .. نحن ألوف نطلب الدستور ، ولو قتل نصفنا فى سبيل الظفر به لانبالى ، لأن النصف الباقى يناله ، ويحفظ التاريخ ذكرنا .. أما أنت فانك مقتولة لا محالة ، لأن عبد الحميد يرى فى بقائك سببا لقتله .. واذا بقيت على قيد الحياة حتى تلدى ، فان طفلك يقتل أولا ، ثم تقتلين أنت ، الا اذا قبلت نصحى ونجوت بنفسك ورجعت عن عبادة هذا الظالم ، وكفرت عن ماضيك بالانضمام الى الأحرار.. هذه نصيحتى لك .. فافعلى ماتشائين .. والسلام »

وكان الدكتور . ن يتكلم كأنه صاحب سلطان ، فكان لكلامه

تأثير شديد على القادين . ج ، حتى اعتقدت صدقه ، وخشيت على حياتها وحياة وليدها ، فأطرقت وقد جمد الدم فى عروقها ، وشيرين تسمع ما دار من الحديث وتعجب لهذه المصادفة ، واغتنمت الفرصة لتأييد قول الدكتور . ن ، فوجهت كلامها الى القادين . ج ، وقالت : « أنظرى ياسيدتى .. انى أشير عليك أن تصغى الى نصحه . واذا حدثتك نفسك بغير ذلك ، وأردت نقل خبرنا الى عبد الحميد فقد علمت ان الموت لايهمنا . أما الدكتور فقد ذكر لك السبب ، أما أنا فهل تظنين انى أحب الحياة بعد ذهاب حبيبى رامز ضحية الدستور غدرا ؟.. » قالت ذلك وعادت الى البكاء ..

فتأثرت القادين . ج من كلامها ، وكانت من أهل الذكاء والدهاء كما علمت ، ولكن حبها عبد الحميد أعمى بصيرتها ، فلما داخلها الشك فى حبه بما سمعته من كلام الدكتور . ن . دلها عقلها على ما خادعها به ، وانه لم يكن يظهر لها الحب الا اذا احتاج اليها فى خدمة ، كما فعل وقت حادثة الأرمن وغيرها .. وتذكرت تردده فى العقد عليها ، فصح عندها صدق الدكتور.ن. فى أقواله ، ولم يبق لديها شك فى ذلك ، فالتفتت اليه وقالت : « قد صدقتك يادكتور . ن ، فما العمل الآن ؟.. »

قال الدكتور . ن : « العمل أن تهربى من هذه القصور بما خف حمله ، ومعك شيرين .. وابقى أنا هنا حتى أتمم المهمة التى أتيت لها .. هذا هو رأيى ، ولايصح تأجيل هروبكما الى الغد..»

فنهضت وهى تفكر . وما لبثت أن قالت : « أنا ذاهبة لأدبر وسيلة نلفرار الليلة ، فامض أنت لشأنك وأنا شاكرة هــذه الفرصة . وسأذكر فضلك ماحييت »

فودعهما الدكتور . ن . فبكت شيرين لوداعه ، وتوسلت اليه أن يفر معهما فقال : « ان وجودى هنا لازم لمصلحة الجمعية . أما أنت فتجلدى واصبرى ، وستدور الدائرة على الباغى ولو بعد حين » وخرج

– ٧١ –

الفشل الكبير

فلنتركهم يدبرون أمر فرارهم ، ونرجع الى السلطان عبــد الحميد ، فانه أصبح بعد ذهاب رامز وأبيه وهو يتوقع أن تنجح حيلته ، وقد أوشكت أن تفلح .. لو لم يبادرهم سعيد بوصية مدحت كما رأيت .. فظل عبد الحميد ينتظر ثمرة حيلته يومين وهو لايستقر له قرار ، وكان يتوقع أن يوافيه ناظم بخبر الجمعية فى اليوم التالى ، فلما أبطأ عليه الخبر جعل ينتحل الأســباب لتأخيره ..

وبينما هو فى ذلك ، أتاه نادر أغا فى الصــباح يخبره بفرار القادين .ج ، مع شيرين .. فاقشعر بدنه وأخذ فى البحث والتنقيب حتى قلب يلدز رأسا على عقب ، ولم يبق أحــد لم يستجوبه ،

فتبين بعد البحث انها فرّت مع فوزى بك أحد كبار الياوران ، وهو رئيس فرقة الحرس الالبان المعهود اليهم بحراسة تلك القصور .. فأسقط فى يده ، وبث الأرصاد والعيون فى أطراف المملكة ، وقد تشاءم من فرار تلك القادين لما يعتقده من علاقة حملها بحياته ، فاسودت الدنيا فى عينيه ، وأحس بفشل لم يذق مثله . ولم يتوسط النهار حتى أتاه تلغراف من ناظم بك فى سلانيك يخبره فيه ان أحد أعضاء الجمعية تعمد قتله ، فأطلق عليه الرصاص فأصابه ، ولكنه لم يمت ، وان الجمعية أصبحت ذات بأس . ثم أتاه تلغراف آخر ان فدائيا قتل سامى بك مفتش البوليس وهو ذاهب الى قروشوه . وكان السلطان قد كلفه بالبحث عن رئيس الجمعية والفتك به ، وتوالت التلغرافات على المابين باضطراب الأحوال فى مكدونيا ، والبانيا ، وان الناس فى خوف وذعر شديدين ..

وبينما كان عبد الحميد يتلو هذه التلغرافات وهو فى غرفة المطالعة فى المابين الصغيرة كالعادة والباشكاتب بين يديه . وكان يظهر عدم الاكتراث أمامه ، ويشدد عزيمته ليوهمه انه على ثقة من قدرته . ثم خشى أن يبدو ضعفه فيصبح فى خوف على حياته من أعوانه لاعتقاده ان هؤلاء الأعوان لايطيعونه الا خوفا من بطشه ، أو طمعا فى ماله .. فاذا رأوا منه ضعفا انقلبوا مع الجانب الأقوى .. فلما خشى ظهور ضعفه نهض وهو يتكلف الضحك وقال : « لقد آن لى أن أفتك بهؤلاء المغرورين ، ان الرفق بهم

لم يجد نفعاً » فوقف الباشكاتب واستأذن ، وهو يعلم ان عبد الحميد يكاد يموت خوفا ، ولكنه أظهر انه صدّقه وانصرف

أما عبد الحميد فدخل غرفة الكتابة للخلوة بنفسه ، ولم يصلها حتى تنفس الصعداء وقال : « ويل لهم .. انهم يفتكون برجالى.. انهم غير الأحرار السابقين الذين كنت أبتاعهم بالأموال .. متى كان أولئك الملاعين يعرضون أنفسهم للقتل ولا يبوحون بالسر ؟ حتى النساء صرن كالرجال شدة وبطشا .. » وتذكر القادين . ج وشيرين ، فوقف شعر رأسه ، وقال : « ويل لك يا أرمنية .. خرجت من يلدز وأنت على قيد الحياة مع جنينك ؟.. انى قد أخطأت فى التأجيل، كان ينبغى أن أقتلك فى الحال.. ويلاه ، قد خرجت سالمة .. وبعد قليــل سوف تضعين طفلك ، وهو الذى سيكون شؤما على أبيه .. هل أفل نجم ســعدك ياعبد الحميد وانقلب عليك الزمان ؟.. » قال ذلك وقد غصّ بريقه وبكى بكاء حقيقيا ، ثم تشدد ووثب من مكانه وهو يقول : « متى كان أولئك الملاعين متحدين على اختــلاف الطوائف والمذاهب ؟.. لاينبغى أن أيأس وأنا عبد الحميد ، وقد غالبت أولئك الغلمان ثلاثين عاما ، وغلبتهم .. أفيعجزنى أمر هذه الشرذمة ؟.. لابد من التفريق بينهم ، ولابد من الفتك بهم » وأطرق لحظة يفكر وتناول سيجارا وأشعله ، ثم جعل يخطر فى الغرفة ذهابا وايابا ، ثم صاح بغتة : « شمسى .. شمسى .. هو الرجل اللائق بهذا العمل ، انه فتاك شديد .. هل أستشير أحدا بشأنه .. لا .. انه الرجل الشديد

وقد ادخرته لهذه الغاية ، سأرسله وأفوض اليه أن يعزل ، ويولى، ويقتل ، ويرقى . وأرسل من الجهة الثانية من يفرق بين مذاهبهم. ان صائبا ماهر وسأرقيه فيتفانى فى خدمتى ، وقد كان فى مقدمة الذين أفلحوا فى الكشف عن الجمعية وأعضائها .. المال .. المال .. سأبذله .. هذا وقته ، قد ادخرته لمثل هذه الساعة .. »

قضى السلطان عبد الحميد ساعة فى مثل هذه الهواجس ، ثم طفق يدبر وسائل المقاومة ويدس الجواسيس ..

— ٧٢ —

شعبة مناستير

حينما انفضت جلسة الجمعية المركزية فى سلانيك كما تقدم ، عاد رامز الى نفسه .. ورجعت اليه هواجسه عن شيرين ، وأين هى .. وصارح أباه بحديثه معها ، كما حدثه عن تاريخ حياته بعد فراقه تلك المدة الطويلة .. فقضيا يوما فى مثل ذلك ، وأخيرا قال سعيد : « أين والدة شيرين الآن ؟.. »

قال رامز : « أخبرنى جارهم انها ذهبت للتفتيش عن شيرين فى مناستير أو جهاتها .. »

قال سعيد : « دعنا نذهب الى هناك فنحمل معنا أوامر الجمعية المركزية الى شعبتها .. ألم تقرر الجمعية بالأمس أن ترسل وصية مدحت وسائر قراراتها الى فروعها ؟.. وهى طبعا

تحتاج الى رسل سريين ، فلنكن نحن رسلها الى مناستير »

ففرح رامز بهذا القرار وقال : « سأقابل الباشكاتب وأخبره بذلك » وافترقا

وفى اليوم التالى ضرب ناظم بك ، واهتزت سلانيك لهذا العمل لأنهم لم يتعودوا سماع مثله . وبعد أيام أعدت التقارير ونحوها مما يطلب نقله الى شعبة مناستير ، وكلها مكتوبة بالارقام (الشيفرة) على نسق خاص بين الجمعيتين ..

وصلا الى مناستير واهتديا الى كاتب الجمعية ، فبلغاه ما يحملانه من الأوامر الجديدة ، فاهتم بعقد جلسة خاصة لهذا الشأن.. فعقدت سرا على نحو ماذكرناه فى جمعية سلانيك . وكان الكاتب قد حل رموز الرسائل وهيأها ، فانعقدت الجلسة وهى مؤلفة من نخبة من الضباط وموظفى الحكومة ، وفى مقدمتهم القائمقام صادق بك قومندان آلاى الفرسان الرابع عشر ، وفخرى بك ترجمان الولاية ، وحبيب بك يوزباشى الطبجية ، وضياء بك ملازم الطبجية ، وابراهيم شاكر أفندى مدرس الرسم فى المكتب الاعدادى ، ورمزى بك بكباشى أركان حرب ، ووهيب أفندى وغيرهم .. وكلهم من ذوى الأخلاق السامية والمبادىء الصحيحة وخاصة صادق بك ، وكان أكثرهم عملا وأشدهم حماسة ، وهو رب السيف والقلم ، وعليه كان المعول فى التدابير التى دبروها والبيانات التى ألقوها ، والكل يسيرون على خطواته ويقتدون

برأيه (١) ، فهو كالرئيس فيهم أو « المرخص » ، وكان ربعة مستدير اللحية مع ميل الى الضعف شأن أصحاب المزاج العصبى ، لكنه لم يكن فيه حدة العصبيين وتقلبهم ، بل هو رابط الجأش ثابت فى أعماله .. يبدو الهدوء والسكينة على محياه ، فاذا دعت الحالة الى الحماسة أو العمل غضب كالأسد الهائج لايبالى ماذا يفعل ، وقد يضحى بنفسه فى سبيل الحق والحرية

فلما عقدت الجلسة كان أول شىء فعلوه ، التعريف بسعيد والد رامز ، وما له من الايادى البيضاء فى تاريخ الأحرار . ثم تلوا وصية مدحت باشا ورحبوا بها كل الترحيب ، وأعجبهم ما كان من قرار الجمعية بشأنها ، وتحمسوا ووافقوا على الفتك ، وقرروا توزيع ذلك على الأعضاء ، وعلى فروع هـذه الشعبة برسنة وغيرها .. وانفضّت الجلسة ، وكان أول شىء قام به رامز انه ذهب للبحث عن والدة شيرين فى منزل بعض أقاربها ، وأخذ والده معه فلاقته بالبكاء فرحا بقدومه ، وفرحت بقدوم والده لأنها تعرفه ، وسألها عن شيرين وشأنها . فقصّت عليه حديثها مع صائب وما دار بينهما ، وعن ثباتها فى حبه وكيف اختفت بغتة . فأعجب بصدق محبتها وازداد أسفا على ضياعها .. وبكيا عليها مع العزم على مواصلة البحث عنها فى الأماكن التى يحتمل وجودها فيها ، فقال رامز : « لابد من العثور عليها .. الا أن يكون ذلك الملعون قد حملها على الانتحار تخلصا منه ، ولكنها عاقلة لا

(١) خواطر نيازى

ترتكب هذه الرذيلة وهى تعلم انى لا أزال على قيد الحياة ، بل هى تحب الحياة من أجلى ، كما أحبها أنا من أجلها .. »

فقال والده : « لابد من الصبر حتى يأتى الله بالفرج .. وأين طهماز ؟.. »

فقالت والدة شيرين : « لا أعلم أين هو ، ولكنه كان مع صائب بك الى آخر يوم » ..

فقال رامز : « انه الآن من أرباب الرتب المقربين فى يلدز »

فضحكوا رغم ماهم فيه من الحزن والقلق ، لأنهم يعرفون حقيقة طهماز ، وانه لاينفع لغير الأكل .. ولولا زوجته لم يكن يحس أحد بوجوده ..

خرج رامز من هناك كاسف البال ولم ييأس من العثور على شيرين ، فبعث بعض الناس يبحثون عنها فى القرى والأديرة ، وفى كل مكان ظنها تذهب اليه ، فلم يقفوا لها على أثر . فيئس من وجودها واعتقد ان عبد الحميد وجواسيسه هم سبب هذا الشقاء ، فازداد نقمة عليهم وأصبح يغتنم الفرص للتفانى فى مقاومتهم ..

مضت أيام وهو يشتغل بمساعدة كاتب الجمعية فى كتابة المنشورات ونسخها ، وتدمير من يوصلها الى الفروع ، وكانوا يرسلونها غالبا مع النساء لبعد الشبهة عنهن بالاشتغال بالسياسة وبينما هو فى ذلك جاءته الدعوة للاجتماع فى جلسة عاجلة وعينوا له مكان الاجتماع ، وكانوا انما يجتمعون للمداولة فى خبر

جديد ، أو حادث جديد ، أو تقرير أمر عاجل .. فلما عقدت الجلسة واستقر الأعضاء فى أماكنهم قال «المرخص» : «دعوناكم الليلة لأخبار عظيمة الأهمية جاءتنا على يد مركز سلانيك وقد حل رموزها الأخ الكاتب وهو يتلوها .. تفضل أيها الأخ اتل علينا .. » وأشار الى كاتب السر

فوقف كاتب السر وبيده ورقة ، وقال : « هذا الكتاب من مركز الجمعية المقدسة فى سلانيك ، تقول فيه انه جاءتها رسالة بالشفرة من أخينا الدكتور . ن . من يلدز ، تحتوى على أخبار عظيمة الأهمية ، وهذه صورة الرسالة كما هى » وأخذ الكاتب يتلو رسالة الدكتور ، وهذا نصها :

« تأخرت عليكم فى ارسال الأخبار ، اذ لم أوفق الى من يحمل رسالتى اليكم هذه المرة ، لأن التشديد فى المراقبة أصبح فائق الحد ، وأصبح الطاغية يخاف من خياله ويشك فى نفسه . ان أخبارى هذه المرة حسنة وهامة . اعلموا أولا ان اصابة ناظم بك بالرصاص ، ومقتل سامى بك بهذه السرعة والعزيمة ، كان لهما تأثير شديد فى نفسه وفى نفسى .. بارك الله فيكم ، أما هو فانه قام وقعد والتف جواسيسه حوله ، وتملقوه وحضوه على التشديد والفتك ، فعهد الى شمسى باشا المتوحش الفظ أن يتولى تعقبكم والفتك بكم . وقد أرسل الجواسيس وفيهم صائب لبث روح الشقاق بين العناصر والمذاهب .. فاحذروا من هذا اللعين ،

واعلموا ان الطاغية خائف من اجتماع الكلمة ، فهو يبذل ما فى وسعه لتفريقها .. فوجهوا عنايتكم الى مقاومة ذلك بارسال المنشورات الى المسيحيين من كل الطوائف ، تحذرونهم شر التفرقة ..

« ويسرنى أن أبشركم بأمر وفقنا اليه ، ولم يكن فى الحسبان وذلك أن احدى القوادين من نساء السلطان عبد الحميد فرّت من القصر ، وهى شديدة النقمة على عبد الحميد وتريد قتله ، واسمها القادين ج ، ومعها الياور فوزى بك أحد قواد الحرس الالبانى . والغالب انهما قصدا البانيا لأن الياور المذكور منها .. ويسوءنى أن أخبركم عن ضياع الأخ الحبيب رامز ، فانى علمت بوجوده فى قصر مالطة .. فذهبت لأراه ، فأخبرت انه طلب الى المابين فى منتصف الليل ولم يرجع .. » فحدث عند ذلك تمتمة وضحك وحركة ، وتوجهت الانظار الى رامز

ثم عاد الكاتب الى القراءة فقال : « ومن غريب الاتفاق ان شيرين ابنة طهماز الذى تعرفونه أتت يلدز من تلقاء نفسها ، وأظهرت من البسالة وصدق اللهجة فى مصلحة الجمعية مايندر مثاله .. وصارحت السلطان بما لم يجسر أحد على مثله .. »

فحدث ضجيج بين الأعضاء وشخصت أبصار الجميع لما يكون من تتمة الكلام . أما رامز فتسارعت دقات قلبه ونسى موقفه تطلعا لما يذاع عن شيرين .. وأتم الكاتب القراءة ، فقال : « وأبشركم انها بعد أن وقعت تحت خطر القتل نجت ، وكانت من أكبر

الوسائل المساعدة على فرار القادين . ج ، المتقدم ذكرها .. فاذا كان أخونا رامز لايزال على قيد الحياة فانى أهنئه بها » فعاد الضجيج ولم يتمالك صادق بك نفسه من أن ينادى رامزا ويهنئه

ثم تلا الكاتب تتمة رسالة مركز سلانيك ، فقال : « فمن تلاوة رسالة أخينا الدكتور . ن . تتحقق حاجتنا الى السعى فى مقاومة مساعى أولئك الاشرار . وقد كتبنا صورة منشور الى الاهالى والقبائل نرجو أن توزعوه بمعرفتكم . وكذلك تجدون مع هذا صورة عريضة رفعناها الى قناصل الدول هنا ، نطلعهم على أحوالنا مع سلطاننا وحكومتنا ، ففرقوا منها نسخا على القناصل فى جهاتكم لتكون أعمالنا مبنية على الحكمة والتعقل . ويسرنا أن نخبركم أن أخانا طوسون بك الذى تنكر بملابس الدراويش، وسار لبث روح الجمعية المقدسة فى الاناضول قد أفلح ، وأنشأ فروعا من الشعب والقولات فى تلك البلاد انتظم فيها أكثر ضباط الفيلق الثالث »

— ٧٣ —

محاربة أهل المابين

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الرسالة ، تنفس الأعضاء الصعداء بعد تعب الاصغاء ، وخاصة رامز .. فقد كان تأثيره مزدوجا ، وهمه أمر شيرين ، لكنه صبر نفسه حتى يخرج من الجلسة ..

وأخذ الاعضاء يتباحثون فيما يعملون .. فقال صادق بك ، بما عهد فيه من الرزانة فى أحرج المواقف : « هذه يا اخوانى أخبار هامة تستوجب اعمال الفكر ، وأهمها فى نظرى ارسال الجواسيس لبث روح الشقاق . وقد سبقنا اخواننا فى سلانيك الى نشر المنشورات فى سبيل الوفاق بين الطوائف ، وأرى أن نعيد الكرة ونذكر فى منشوراتنا سعى الظالمين وأعمالهم ، وأن نترجم هذه المنشورات الى اللغات البلغارية ، والسربية ، والالبانية ، فضلا عن التركية .. ونوزعها على الرؤساء ومشايخ القرى ، وزعماء القبائل ، والعصابات .. فما رأيكم ؟.. »

فنهض سعيد وقال : « انه لنعم الرأى ، وأنا أتولى توزيع هذه المنشورات بيدى .. »

فقال صادق بك : « بورك فيك .. انك نعم الصديق الأمين لأبينا مدحت ــ رحمه الله ــ ان هذه المهمة شاقة وكثيرة الخطر اذ يعسر عليك الوصول الى تلك العصابات ، وهى لاتستقر فى مكان . ولكنى أشير عليك أن تستعين فى معرفة أماكنها بالأخ نيازى بك قائد طابور رسنة ، انه ذو حمية وبسالة ، وقد قضى مدة فى مطاردة العصابات البلغارية .. وقد أحسن البطل هادى باشا العمرى حامى حمى الأحرار بتعيينه هناك ، وأنى أتوقع من هذا الشاب مستقبلا مجيدا .. ونحن نعرفه ، ولكنه لايعرف اننا من اخوانه أعضاء هذه الجمعية المقدسة . فهو يعرف أحوال العصابات ، فاذا لقيته استعن به فى البحث عن أماكن رؤساء

تلك العصابات » ..

ثم استأنف صادق بك الكلام ، فقال : « وهناك أمر عظيم الأهمية أيضا أعنى مخابرة الدول على أيدى قناصلها ، بتقارير نشرح فيها حالنا مع سلطاننا ورجاله حتى نعذر فى نظرهم اذا مست الحاجة الى التحكيم أو نحوه ، وهذا العمل لا أرى فينا من يليق به الا أخينا رامز ، لأنه لابد من حاجته الى البحث عن خطيبته الباسلة الحرة ، وهو كاتب عبقرى فى اللغات الأجنبية ، ففى طريقه يمكن أن يقوم بهذه المهمة »

فوقف رامز وقال : « انه يشرفنى أن يرى الأخ صادق بك انى أستطيع القيام بهذه المهمة .. وسأقضيها على الرأس والعين.. »

فوقف صادق بك عند ذلك ، وقد أبرقت عيناه وظهرت البسالة فيهما وقال : « بقيت مهمة واحدة أطلب اليكم أن تسمحوا لى بها لأنها من واجباتى .. »

ففهم الجميع انه يعنى مقتل شمسى باشا ، فتصدى ضياء بك قائلا : « ان المهمة التى تشير اليها أيها الأخ الباسل نضن بيدك أن تمد اليها .. أنا أنوب عنك فيها »

فوقف حبيب بك واعترض نفس هذا الاعتراض . فقال صادق : « نحن متفقون اذا على وجوب ازالة ذلك المخلوق الفاسد ، ولا فرق فى أن يكون أحدنا أو الآخر القائم بهذا العمل .. وها أنذا أقسم اليمين » وتقدم نحو القرآن والسيف ، فتسابق رضا وحبيب الى هناك ووضع كل منهم يدا على القرآن

ويدا على مسدسه ، وأقسموا اليمين المغلظة بقتـل ذلك الرجل وغيره عند الحاجة فى خدمة الحرية والدسـتور . فأثر ذلك فى سائر أعضاء الجمعية ، فهبت الحماسـة فيهم ودبت الحمية فى عروقهم مثل التيار الكهربائى ، فنهض شـاب من الاعضاء هو الملازم . ك ، وقال : « لايليق بأحد منكم أن يلوث يده بدم ذلك الفظ الغليظ ، أنا أريحكم منه ، ثقوا انى فاعل ذلك .. ويجب أن أفعله وحدى » قال ذلك وقد تجسمت الشجاعة فى عينيه . .

فصاح الجميع : « فليعش الفدائى الحر .. »

فقال صادق بك : « هكذا تكون الحماسة والمروءة .. كان الله معك أيها الأخ لكسر شوكة الظالمين ، وحماك بفضله وكرمه.. والآن سيتلو عليكم الأخ الكاتب صورة المنشور الذى سيوزع على يد الأخ سعيد بك على رؤساء القبائل ، وزعماء العصابات البلغارية وغيرها .. وبما انه طويل أرجو أن يتلوه مختصرا .. »

فوقف الكاتب ، وقرأ هذه الخلاصة :

« الى اخواننـا المسيحيين من بلغار ، وصرب ، ويونان ، والبان ، وغيرهم ..

« قد مضى نصف قرن على الممالك الصغيرة المحدقة بمكدونيا ـ نعنى بلغاريا ، واليونان ، والصرب ـ وهى تسعى فى مساعدتكم لتخليصكم حسب زعمها من ظلم العثمانيين . فاذا صـدقت فى انقاذكم من ذلك الظلم فلكى تبتلعكم لنفسها ، فهى لذلك تبث

روح الشقاق بيننا وبينكم حتى جرت الدماء أنهارا ، فيا أبناء الوطن ، اخواننا .. قد آن لكم أن تفيقوا من سباتكم وتعلموا ان تلك الحكومات انما هى طامعة فى بلادكم . واعلموا ان هـذه الأمنية لن ينالها أولئك الطامعون لأننا نبذل أرواحنا فى سبيل بقائها . ولكن ينبغى أن نعترف لكم بفساد الحكومة العثمانية الآن .. وحق لكم أن تشكوا منها ، ونحن أيضا نشكو نفس الشكوى ، وقد قمنا لاصـلاحها بأيدينا . وأول أركان ذلك الاصلاح اتحاد العناصر العثمانية من ترك ، وبلغار ، ورومان ، وروم ، والبان . ومن أجل ذلك تأسست « جمعيـة الاتحاد والترقى » العثمانية ، وأعضاؤها هم أمراء العسكرية وضباطها والمأمورون الملكيون ، وكلهم من خيرة رجال الشرف يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل هذا الوطن . وغرض الجمعية الأصلى حفظ الحـرية ، وصـون الأعراض والأرواح والأموال لكل العنـاصر ، وتغيير شكل الادارة فتستعيض بالشـورى عن الاستبداد . فلندع الأفكار القديمة ، والآراء الفاسدة ولنتحد جميعا . وعند وصول بياننا هذا اليكم اجتمعوا واقرؤوه وأوصوا عصاباتكم حتى تتحد هـذه العصابات معنا فى طلب الدسـتور والمساواة .. الخ .. »

فلما فرغ الكاتب من تلاوة هذه الخلاصة ، قال «المرخص» :
« اقرأ علينا خلاصة المنشور الذى سيوزع على الدول الاجنبية »
فقرأ :

« سيدى ..

« ان الحال التى بات فيها الجانب المهم من وطننا .. وهو مكدونيا ، واصلاحها ، واعداد مستقبلها ، حملنا نحن أبناء مجموعة الوطن المسماة تركيا ، على عرض السطور الآتية لمقامكم الرفيع مع كل احترام .. وانما الحافز الوحيد للتشبث بهذا الأمر هو عشقنا الطبيعى لأرض ولدنا فوقها ، وما يجب علينا من الاتحاد فى السعى لاستكمال سعادتها ورفاهية أبنائها .. وعلمنا بأن أوربا تعرفنا قليلا ، وتعرفنا مسيئين . وقصدنا من تقديم هذا الالتماس اظهار الحق فى مسألة مكدونيا ، أو المرض الذى ابتليت به ، والدلالة الى الطريقة المثلى المؤدية بنا الى الصراط المستقيم، وخلاص الدول الأوربية من مزاحمات ومساعى لاطائل من ورائها ..

« ان مساعى أوربا فى اصلاح مكدونيا لم تنته بنتيجة ، ولم تتغير الأحوال بوجه من الوجوه .. بل انها انقلبت الى ماهو أسوأ ، وكثرت القلاقل ، ومشكلة مكدونيا زادت تعقيدا واستولى ارتباك عام على كل أنحاء المملكة ..

« ان أصل هذا الفساد ، انما هو طمع روسيا فى مكدونيا كما يشهد بذلك تاريخها الماضى ، ونأسف لأن دول أوربا تسايرها .. وقد اختلقوا مسألة ظلم المسيحيين فيها ، وانهم تعساء تحت سلطة المسلمين . ولكن أوربا فى خطأ فاحش . وهناك حقيقتان باهرتان تبينان أسباب ذلك ، وهما : أولا ، انه ليس بمكدونيا داء خاص بها ولا مسألة ناجمة عنه . ثانيا ، انه ليس بمكدونيا تعصب

اسلامى . ونحن نقول قبل كل الناس ، ان سكان مكدونيا ليسوا فى الرخاء الذى تتوقعه .. وأفكارنا متفقة من هذه الوجهة مع أوربا ، الا ان اختلافنا هو فى تعيين منشأ الغدر . ولذا فيكون اختلافنا أيضا فى اتخاذ الوسائل المانعة له .. اذا فالمتاعب التى تعانيها مكدونية ليست ناشئة منها .. وهى قد عمّت الولايات التى تتألف منها المملكة العثمانية .. وسببها هو الاستبداد الظالم فى أصول الحكومة الحاضرة .. والشىء الذى آل بالبلاد الى هذه الحال التى لاتطاق ، هو فقدان الحرية العثمانية ، ملكية ، وسياسية ..

« فان كانت أوربا تريد حقيقة أن تسعد المكدونيين ، يجب أن تعينهم على ازالة استبداد الحاضر ، ليسعد العثمانيون عامة ، ويسعد معهم المكدونيون ، لأن الواقع ليس مرض مكدونيا ، بل هو مرض تركيا كلها ، وسيزول بفضل أبنائها وهمّتهم ..

« فاذا كانت أوربا تريد اصلاح أحوالنا اكراما للانسانية ، فعليها أن لاتتعرض لما نريده من الاصلاح .. وأن تضيق على الاستانة لتضع حدا للاستبداد ، أو تتركنا وشأننا ندبر أمورنا ونصلح شئوننا ، ولا رائد لنا غير الحق والعدل ، لهدم صروح الظلم .. وقد قدمت نسخة من هذا البيان لقناصل الدول .. الخ .. »

ثم تقرر أن يُعطى البيان الأول الى سعيد بك ليتولى ترجمته الى اللغات البلغارية ، والصربية ، واليونانية ، ويكتب منه نسخا

يوزعها على القبائل ، والعصابات سرا ، وأن يعهد بالبيان الثانى الى رامز ليكتب منه نسخا بالفرنسية ، ويقدمه الى قناصل الدول . ثم انفضّت الجلسة وقلوب الأعضاء مملوءة آمالا وهمية .

وحالما خرج رامز من الجلسة سار توا الى توحيدة والدة شيرين وأخبرها سرا بما سمعه عن ابنتها ، وانها فرّت من يلدز ، ولم يعرف الى أين سافرت .. وانه مسافر الى بعض الجهات للبحث عنها ، ففرحت فرحا شديدا .. وعادت اليها آمالها ، ومكثت تنتظر مايأتى به القدر ..

— ٧٤ —

العصابات الالبانية

قضى سعيد بضعة أيام فى ترجمة البيان ونسخه ، ثم تنكر فى ملابس أحد الفلاحين الالبانيين ، ولبس على رأسه طاقية قصيرة ، ولبس دراعه «صدرية» مفتوحة فوقها الكبران المرخى الأكمام ، وحول حقويه التنورة المثناة الى أعلا الركبة ، وتمنطق بمنطقة فيها الطبنجة . ولف ساقيه بسيور (الطماقات) واحتذى حذاء غليظا ، ومشى وعكازه بيده لا يظن من رآه الا انه من عامة الالبان ..

وكان فى البانيا من جهة مناستير عدة عصابات من البلغار ،

والالبان ، وعصابة توفيق الاهوماتلى، وعصابة أمين البيسوجانلى، وعصابة قورطيس النوسيللى وغيرهم . وكل عصـــابة مؤلفة من عشرات من الرجال الاشداء ، يقطعون الطرق على النـــاس .. يقتلون وينهبون بحجة الدفاع عن النصرانية ، وأكثر ما يكون اشتباكهم بالمارة من المسلمين يأخذون ما معهم ، ويأسرونهم حتى يفديهم أهلهم . وكانت مهمة سعيد شاقة لأن فى جملتها أن يبلغ منشور الجمعية الى رؤساء هذه العصابات . ولا يخفى مافى ذلك من الخطـــر .. لكنه كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، عاشـــقا للحرية يتفانى فى سبيلها ..

وكانت عصابة جرجيس الالبانى شـــديدة البطش ، قد ملأت بشهرتها جبال البلقان أو هى عصابات تعمل باسمه ، وفى غيابه أو حضوره . فأحب سعيد أن يبدأ بعصاباته فسافر فى طلبها ، وهى معتصمة فى الجبال الوعرة ، فطال سفره لأنه ربما قيل له انها فى جبل كذا ، فيسافر اليها يوما أو يومين فيجدها قد انتقلت الى سواه .. قضى فى ذلك أياما قاسى فيها الأهوال من البحث ، حتى كاد يعدل عن طلبها . وهو انما يطلبها اذا كان جرجيس معها لتبليغه المنشور .. فأنبأه بعضهم انها فى جبل على بضع ساعات من مكانه ومعها زعيمها ، فعاهد نفسه أن يقصـــدها ، فاذا لم يجدها عدل عنها الى سواها ..

وكانت الشمس قد تجاوزت الأصـــيل ، وهو يمشى فى سفح جبل على أن ينزل منه الى الوادى ، ثم يعود من طريق آخر الى

أعلى الجبل المقابل ، وهناك يقيم جرجيس بعصابته .. فنزل الى الوادى ، ثم أخذ فى الصعود حتى اقترب من قمة الجبل ، والشمس قد دنت من المغيب ، فسمع ضوضاء عقبها اطلاق الرصاص ، فدوى الوادى دويا عظيما ، وليس فيه ولا فى سفح الجبل بيت ولا خيمة . ولكنه شاهد بعض الخيم فى أعلا الجبل ، وسمع منها اطلاق البنادق . فلما سمع دوى الرصاص وقف وراء صخرة يحتمى بها وأصاخ بسمعه ، ولم يبق بينه وبين قمة الجبل الا خمسون مترا ، وندم على مجيئه متأخرا ، ولكنه تجلّد وصبر .. فاذا هو يسمع طلقات أبعد من الأولى وراء الجبل ، وسمع لغطا بين الخيام ودبدبة حوافر خيل . ثم طرق أذنه صوت امرأة تستغيث بالتركية ، ولم يسمع من كلامها سوى قولها : « أمان جانم ما الذى تريدونه منا .. أتركونا فى سبيلنا ؟ ثم سمع صوت رجل يجاوبها بالتركية أيضا بقوله : « لاتخافى من هؤلاء الكلاب ولو كانوا مائة .. »

فأدرك سعيد ان عصابة جرجيس تعترض بعض المارة . ولكنه توسم فى صوت الرجل البسالة والقوة ، فحدثته نفسه أن يصعد خلسة حتى يشرف على المعركة ، وقد خيم الظلام .. فلايخشى أن يراه أحد ، فتسلق الصخور بخفة حتى أصبح وراء احدى الخيام ، فأشرف على المعركة ، فرأى رجال جرجيس محدقين بركب مؤلف من أربعة أشخاص .. اثنان راكبان ، هما : رجل ، وامرأة ، واثنان على الأقدام ، هما : خادمان . وتفرس فى الرجل والمرأة

فلم يعرفهما ، لأن المرأة ملثمة ، ويظهر من مجمل حالها انها من أهل النعم .. وكذلك الرجل برغم التفافه بالعباءة فوق أثوابه ، وتغطية أكثر أجزاء وجهه باللثـام .. فتربص سعيد ليرى ماذا يكون ، وقد استـغرب مرور هؤلاء فى ذلك الطريق الوعر ، وأصبح شـديد الميل الى استطلاع حقيقتهم .. ولم يخف على نفسـه ، لأنه كان يبحث عن جرجيس منذ زمن طويل .. وقد سرّه أنه وصل اليه

فلما تكاثر رجال العصابة وكادوا يظفرون بالقوم ، تقدم الزعيم جرجيس ، وقد عرفه سعيد من طول قامته ، ونوع ملابسـه ، واسترسال شعره ، وما عليه من الأسلحة الثمينة . وكان قد لبس الجاكت والبنطلون والطماقات ، وحول وسـطه المنطقة فوق الجاكت وفيها الطبنجات ، والخناجر . وعلى رأسه طاقية صغيرة مسطحة وفى مشيته تيه واعجاب .. فخاطب الرجل بالتركية وهو ضعيف فيها قائلا : « لافائدة من دفاعكم ، وانما أنتم تعرضون أنفسكم للقتل ونحن لانريد أنفسكم .. وانما تكفينا أموالكم ، فان لم تسـلمونا اياها قتلناكم .. ولا تخافوا على المرأة فنحن لاتتعرض للنساء .. »

فخاطبت المرأة رفيقها بلهجة الاستغاثة ، قائلة : « يكفى جانم يكفى .. اعطهم يا يريدون .. »

فأبى الرجل ذلك وقال : « أليس من العار أن أرضخ لهؤلاء اللصوص رغم أنفى ؟.. ولكن .. » وصرّ على أسنانه وأشار

نحو المرأة وهز رأسه أسفا .. يعنى ان وجودها معه يلجئه الى القبول والتسليم .. على انه استوقف فرسه ووقف وقفة أسد ولم يتحرك ، فمشى جرجيس نحوه بجأش هادىء وقال له : « لا يصعب عليك التسليم فان أعظم منك سلموا لنا ، وقد رحمناك لأننا أردنا أن نستبقى حياتك اكراما لهذه المرأة .. »

فتراجع الرجل وقال : « وما الذى تريدونه منا ؟.. »

قال جرجيس : « نريد ما تحملونه على هذه البغال .. »

فالتفت الى المرأة وقال : « وما هو رأيك ؟.. كيف نسلم ؟..»

فقالت المرأة : « لابأس يافوزى .. اعطهم مايطلبون ، فانهم يرتزقون من هذه الحرفة .. قبح الله ذلك الطاغية الملعون ، كم أفسد من أخلاق رعاياه .. »

فلما سمع سعيد اسم فوزى وذكر الطاغية ، أدرك فى الحال أن هذه هى القادين . ج . ومعها الاميرالاى فوزى بك ، كما أنبأهم جاسوسهم فى رسالته .. فأخذ يبحث بنظره عن شيرين ، فلم يجد معهم من النساء غير القادين . ج . فرأى من الحكمة والمروءة أن يتوسط حينئذ .. وفى توسطه جرأة كبيرة ، لكنه تعود ركوب الاخطار ..

وكان الظلام قد تكاثف ، وهناك نار موقدة أمام الخيام .. ورأى رجلا من العصابة أشعل عودا من الكبريت ، أنار به مصباحا ومشى نحو جرجيس ، فظهرت عند ذلك سحنة الاميرالاى ، وكان ملثما وعليه ثياب السفر . فتقدم سعيد

ونادى : « جرجيس .. أيها البطل .. »

فالتفت الجميع نحو الصوت وأجفلوا ، اذ لم يكن أحد منهم يتوقع أن يسمع صوتا من وراء الخيام ، فأجابه جرجيس : « من أنت ؟.. »

قال سعيد : « انى ضيف عليك .. وقد قضيت أياما وأنا أطلبك لأؤدى لك أمانة عندى .. فهل أقدمها ؟ .. »

فاستغرب ذلك الطلب ، وأومأ الى رجاله أن يحيطوا بفوزى والقادين . ج ، وينزلوهما فى احدى الخيم ، وتحول نحو سعيد فرأى رجلا ليس فى هيئة ملابسه مايدعو الى التهيب ، فصاح به : « ويلك .. من أنت ؟.. »

قال سعيد : « أنا رسول اليك من أمة برمتها .. اعرنى سمعك وأجلسنى معك لأقصَّ عليك خبرى .. »

فبغت لهذه الدالة والتفت اليه باحتقار ، وقال : « من أنت لتخاطبنى بهذه اللهجة .. انها جسارة غريبة .. »

قال سعيد : « قلت لك ستعرف من أنا .. ومتى عرفتنى وعرفت من هو خصمك الذى أحجمت عن قتله ، واقتنعت بما له لاتندم على الاصغاء لى .. »

فأشار جرجيس الى رجاله أن يضيئوا خيمته ويدخلوا اليها الأسيرين ، ولاحظ سعيد فى أثناء تحول القادين . ج ، عن فرسها انها تتوكأ كأنها مثقلة ، فعلم انها حامل . ثم دخل جرجيس ودعا سعيد وأمره بالجلوس ، وأجلس الاميرالاى ، والقادين . ج ،

على طنفسة هناك ، وظل هو واقفا ، فقال سعيد : « تفضل ياحضرة الزعيم اجلس .. انى أعرف قدرك ، ألست رئيس جمعية طوسفا الالبانية ؟.. »

قال جرجيس : « نعم .. ومن أنت ؟.. قل حالا .. »

قال سعيد : « أما أنا فانى مندوب متنكر جئتك برسالة من « جمعية الاتحاد والترقى » العثمانية ، سأدفعها اليك الآن ولا حاجة بك أن تعرف من أنا .. » ومد يده وأخرج ورقة دفعها اليه ، فتناولها ودنا من المصباح وأخذ فى قراءتها . وأخذ الاميرالاى يتفرس فى سعيد فلم يتذكر انه يعرفه . أما سعيد ، فانه اغتنم اشتغال جرجيس بتلاوة الورقة ، وقال للأميرالاى : « ألست أنت الاميرالاى فوزى بك ومعك حضرة القادين . ج ؟»

فأجفل فوزى بك عند سماعه ذلك التصريح ، وهو يحسب نفسه بعيدا عن المعارف لايعلم به أحد هناك ، ولكنه تجاهل وأنكر وقال : « لا أفهم ماتقول .. من أنت ؟.. »

قال سعيد : « يا للعجب .. كم تسألون من أنا وتنكرون من أنتم .. لاينبغى أن تخاف منا ، اننا لانقتل على الشبهة كما يفعل صاحبكم فى يلدز ، ولا نطلب غير حقنا .. فأخبرنى أين شيرين رفيقتكما ؟.. »

فلما سمع سؤاله عن شيرين ، تحقق من انه مطلع على حقيقة أمرهم ، ولا سبيل للانكار ، وأعظم أمر الجمعية لتيقظها ، فقال : « ان شيرين فارقتنا فى سلانيك »

وكان جرجيس قد فرغ من تلاوة الورقة ، فرماها الى سعيد باحتقار وقال : « هذا كلام لايمكننا سماعه .. نعم اننا أقرب الى المصالحة منكم جماعة المسلمين ، ولكنكم تحتالون علينا وتضحكون منا ، فتأتوننا كل يوم ببيان جديد .. تكتبون الينا اليوم بمعنى الاتحاد بين العناصر ، وتكتبون الى المسلمين تحرضونهم علينا . وقد كنا صدقناكم وعزمنا على حل العصابة فوقع لنا كتاب مرسل منكم الى المسلمين تبينون فيه فضل الاسلام ، ومزايا المسلم على غيره ، وتجعلون أموالنا حلالا لكم .. »

فقال سعيد : « أين هذا الكتاب ؟.. ان صاحبه رجل مفسد .. أين هو ؟.. »

فأشار جرجيس الىأحد رجاله ، فأتاه بحافظة أخرج منها كتابا مرسلا الى حاكم استاروه فى تلك الجهة عليه الطغراء ، وقد صدر باسم الخليفة ، ثم قال جرجيس : « ألم تقولوا انكم تطلبون الدستور وفيه حماية الأعراض ، وحفظ الحقوق لجميع الناس على اختلاف مذاهبهم ؟.. وهذا كتاب من السلطان يقول عكس ذلك .. خذ اقرأ .. ألم يقل هنا ان سعى « جمعية الاتحاد والترقى » فى طلب الدستور مفسدة للأخلاق ؟.. وانه لا يوافق مصلحة المسلمين لأنه يجعل نساء المسلمين يخرجن حاسرات كنساء الكفار ؟.. اقرأ .. »

فتناول سعيد الورقة وقرأ فيها نحو هذا المعنى ، وأمعن نظره

فى الامضاء فاذا هو « صائب » فعلم انه جاسوس السلطان الذى ذكره الدكتور ن . وانه وصل الى تلك الجهات وأخذ فى بث تلك الروح الشريرة التىحذرهم منها الدكتور . ن . فقالسعيد : « ياسيدى ، ان كاتب هــذه السطور أحد جواسيس المابين .. وهؤلاء خصومنا يعملون على عرقلة مساعينا طبعا ، فلا ينبغى الاصغاء لهم » ..

فأدار جرجيس وجهه وأظهر عدم المبالاة بما يقوله ســعيد ، كأنه ندم على مسايرته وسماع حديثه ، والتفت نحو الاميرالاى وقال : « أعطونا ما معكم والا قتلناكم .. »

فشق على سعيد ما رآه من اســتخفاف جرجيس بقوله ، ولم يصبر على ذلك الضيم ، فقال : « ياجرجيس .. لايحسن ببطل مثلك ملأت شهرته الخافقين أن يحتقر رسولا من جمعيــة حرة تطلب الاتفاق معه على كيد الظالمين . هل من أجل رسالة كاذبة من جاسوس منافق ترد أيدى الأحرار الممدودة لمصافحتك ؟.. »

قال جرجيس : « ومن ينبئنى أنها من الأحرار ؟.. ومن يؤكد لى أن هؤلاء الأحرار القائمين بطلب العدل والحرية لا يصيرون عبيدا للظالمين غدا كما صار سواهم .. دعنى من ذلك وكفى .. »

فأطرق ســعيد وأعمل فكره فى طريقة يقنع بهــا الرجل أنه مخطىء .. واذا هو يسمع دبدبة واطلاق النار حول الخيام بكثرة وسرعة ، وقد قامت الصيحة فى الخيام .. فخرج جرجيس للبحث عن السبب ، فرأى تلك الخيام قد أحاط بها الجند العثمانى من

كل صوب ، وفر الالبانيون الا جرجيس فانه أوشك أن يفر كعادته .. ولولا اشتغاله بأمر سعيد ومباحثته واشتغال رجاله بحراسة أولئك الأسرى لاشتموا رائحة الجند عن بعد ، وفرّوا الى جبال أخرى اعتصموا بها وامتنع على الجند الوصول اليهم

فأطل سعيد من الخيمة ، فرأى ضعف جرجيش وفرار رجاله فقال للاميرالاى : « امكث هنا مع القادين . ج ، وسأعود اليكم» وتقدم نحو الجند فاذا هم فصيلة فى مقدمتها ضابط كالأسد الكاسر ، واتفق وقوع نور المصباح على وجهه ، فتبينه فاذا هو نيازى بك الرسنة لى الذى أوصاه صادق بك أن يستعين به فى كشف أماكن العصابات ، وكان قد شاهده فى مناستير وتعارفا .. وكان نيازى لكثرة مطاردته العصابات قد أصبح اسمه مبعث فزع لهم .. ولم يلق عصابة الا شتت شملها ، فبلغه فى تلك الليلة نزول جرجيس هناك بنفسه مع عصابته ، فأحب أن يبغته ويلاقيه ويباحثه فى معنى ما أتى به سعيد .. فتسلق الجبل برجاله خلسة ، وقد عرف المكان من المصباح فرآهم مشتغلين عن التلصص ، فلم يشعروا الا وهم محاطون بالجند ولم تبق لهم حيلة . ولاحظ نيازى عزم جرجيس على الفرار فصاح فيه : « جرجيس . جرجيس .. لا تهرب ولا تخف انى لا أريد بك سوءا .. »

فوقف جرجيس .. وقد تعجب سعيد من هذه المصادفة ، وتفاءل خيرا بنجاح مشروعهم الجديد ، وتقدم نحو نيازى بك وقال : « نيازى بك ؟ »

فلما سمع صوته عرفه فترامى عليه وقبله وقال : «سعيد بك ؟ أنت هنا ؟.. ما الذى أتى بك ؟ .. هل أصابك سوء ؟.. »

قال سعيد : « كلا .. انى بخير ، ولكننى مقيم فى ضيافة جرجيس البطل الالبانى »

فلما سمعه جرجيس يقول ذلك خجل من نفسه ، واحترمه وتقدم اليه وقال : « لم تقل لى من أنت ؟... »

فقال سعيد : « ليست العبرة فى من أنا .. بل العبرة بما جئتك به .. والآن ما رأيك اذا سمعت هذا القول من نيازى بك نفسه ، وهو الظافر الان ؟ »

فتقدم نيازى الى سعيد وقال : « أظنك جئت لتبليغ الرسالة الجديدة ؟.. »

قال سعيد : « نعم .. ولكن صاحبنا لم يصدقنى . وقد أطلعنى على رسالة من بعض رجال المابين تقول عكس قولنا »

فقال نيازى لجرجيس : « اعلم أيها البطل أنى من أعضاء هذه الجمعية المقدسة ، ولكى أؤكد لك حسن نيتنا فى المنشور الذى أتاك به أخونا سعيد بك أطلب يدك لأصافحك ، ولنتحد معا على القوم الظالمين .. وبدلا من أن نتقاتل ونحن أبناء وطن واحد ، نجتمع على مقاتلة المستبدين .. ونسعى فى نيل الدستور والقانون الأساسى »

فلم يسع جرجيس عند ذلك الا الاذعان ، ومد يده وصافح نيازى ، وأقسما على العمل معا .. وأن يظل ذلك سرا مكتوما

حتى يأتى وقته .. فأشار نيازى الى رجاله أن يتفرقوا ويستريحوا ، ودعاه جرجيس الى الاستراحة .. فتقدم سعيد ، وقال لنيازى همسا : « ألم يبلغ شعبكم فى رسنة خبر القادين . ج ، التى فرت من يلدز مع أحد القواد الالبان ؟ »

قال نيازى : « بلى .. ومعها شيرين خطيبة صديقى العزيز رامز » ..

قال سعيد : « تعال فأريك القائد والقادين . ج ، أماشيرين ، فقالا انهما تركاها فى سلانيك » .

ومشى نيازى الى تلك الخيمة ، فدخل سعيد وقدمه الى الاميرالاى فوزى بك والقادين . ج . فأثنى الاميرالاى على ما شاهده من بسالة نيازى وحميته .. وأعجب بما رآه من تفانيهم فى سبيل الدستور الى أن قال : « الان تأكدت من فوز الأحرار وان ذلك الطاغية مغلوب على أمره لا محالة »

فقال سعيد : « اننا لا ننفك عن الطلب حتى ننال ما نريده أو نموت .. »

فقال فوزى بك : « ألا تخبرنى كيف عرفتنى وقد خرجنا من يلدز ولم يطلع أحد على خبرنا ؟ »

قال سعيد : « نحن هنا فى هذه الجبال ، ونطلع على أخبار عبد الحميد فى أبعد قصوره ، ونعرف ماذا يأكل أو يشرب .. »

فقال فوزى : « وفقكم الله الى ما تريدون ، ونحن لم نترك يلدز الا لنكون معكم فى هذا السبيل فماذا نفعل ؟.. »

قال سعيد : « تنزلون مناستير .. وسنلتقى هناك ونتعارف ونتعاون ، والآن قد تعبتم .. وأظن أن جرجيس يغض النظر عن مطالبه منكم » والتفت الى جرجيس وضحك ، فقال جرجيس : « بل أنا فى خدمتكم الى حيث تريدون »

فقال نيازى : « لا نكلفك هذه المشقة فأنا أتولى ايصال حضرة الاميرالاى الى مكانه ، وانما أطلب منك المحافظة على العهد الذى عقدناه فى هذه الليلة »

قال جرجيس : « انى على ماتريدون »

فودعوه وعادوا ، فمشى نيازى ورجاله فى خدمة فوزى بك حتى وصلوا الى الطريق السلطانى ، وهناك افترقوا . فعاد نيازى الى بلده وهو غارق فى بحار التفكير لأمر خطر له وهو يخاطب جرجيس فى تلك الليلة ، سيكون له شأن فى نيل الدستور

وسار سعيد وفوزى بك يطلبان مناستير ، فقص فوزى بك حديثه عن القادين . ج ، وانه كان يعشقها قبل أن صارت قادينا وهى لا تلتفت اليه لاشتغالها بعبد الحميد ، وانها كانت تظهر عطفها نحوه ، وكان لها يد فى ترقيته حتى صار من الياوران ، وتولى رياسة احدى فرق الحرس . فلما علمت بعزم السلطان على الغدر بها بسبب حملها ، بعثت اليه فدبر أمر تهريبها مع شيرين . فسأله عن شيرين أين هى ، فقال : « جئنا معا الى سلانيك بعد أن طال سفرنا فى الطريق لأننا جئنا راكبين على الأفراس فى طرق بعيدة عن المدن خوفا من عيون عبد الحميد . فلما وصلنا سلانيك

نزلنا فى فندق متنكرين ، وهى معنا .. ثم استأذنتنا فى الذهاب الى بيت أبيها لعلها ترى والدتها هناك ، لأنها فارقتها فى ذلك البيت . فمضت مع خادمها ولم تعد .. فبعثنا خادمنا فى اليوم التالى ليعرف حقيقة أمرها ، فعاد وقال : « انه وجد أباها وهو يعرفه منذ كان فى يلدز وان صائب باشا الجاسوس معه ، وقد عزم أن يزفها اليه كأنها يئست من بقاء رامز فقبلت سواه . ولم يعد فى امكاننا البقاء فى سلانيك خوفا من اكتشاف أمرنا .. فسافرنا نطلب بلدا لنا من ولاية مناستير ، فاتفق لنا مارأيت »

فشق خبر شيرين على سعيد لعلمه انه يغضب رامزا غضبا لا مزيد عليه ، وفكر قليلا فتذكر الكتاب الذى اطلع عليه عند جرجيس بامضاء صائب ، يبث فيه روح الشقاق ، فتحقق أنه اذا عرضه على الجمعية حكمت على صاحبه بالموت فيقتل على أهون سبيل ، لكنه يجب أن يعرف مقره .. وأن يبلغ رامزا ذلك ، وهو لايعرف أين هو

— ٧٥ —

اعلان الثورة

وبعد سفر شاق وصلوا الى قرية فى ضاحية مناستير ، صاحبها من أنصار الجمعية .. كلفه سعيد بتهيئة بيت لاقامة عائلة الاميرالاى . وكانت القادين .جقد ثقل حملها ودنا وقت وضعها ،

فارتاحت فى تلك القرية ، وأعد لها سعيد كل ما يلزم من أسباب الراحة . وصحب زوجها الى مناستير وقدم اسمه للجمعية ، فقبلت عضويته فأدخلوه وحلفوه اليمين فى الظلمة ، وهم ملثمون على جارى العادة فيمن يدخل الجمعية . وبعد خروجه قص سعيد على الجمعية خبر مهمته ، وما كان من أمره مع جرجيس ، ثم أخرج الورقة بامضاء صائب وأطلعهم عليها ، فتقرر بالاجماع أن سعى هذا الجاسوس من قبيل محاربة الحرية والدستور ، وذلك أشد نكاية على الجمعية من الجند والسلاح .. فتطوع أحد الفدائيين بقتله حالما يعرف مقره

وبعد انفضاض الجلسة ، عاد فوزى بك الى منزله ، وذهب سعيد الى توحيدة والدة شيرين وقص عليها ماسمعه عن ابنتها ، فلطمت وصاحت : « ويلاه .. انه لايزال يفكر فى صائب وكل مصائبنا منه . لا ينبغى أن أبقى هنا ، يجب أن أذهب الى سلانيك لاشك أن شيرين فى أشد الضيق .. وأخشى أن تقبل ذلك المنافق ليأسها من رامز ، وهى لا تعرف انه على قيد الحياة .. ويلاه .. ما العمل ياسيدى ؟.. »

فقال سعيد : « لا حاجة بك الى السفر ، امكثى هنا حتى يأتى رامز فتخبريه عن شيرين .. وأنا أذهب الى سلانيك بدلا عنك .. »

فرضيت لعلمها أن سعيدا واسع الحيلة ، لعله يقوى على زوجها فيغيِّر عزمه ويفض ذلك المشكل ، فأخذ سعيد يتأهب للسفر .

وفى صباح الغد أتاه رسول من كاتب الجمعية يدعوه الى جلسة ستعقد فى مساء ذلك اليوم لأمر هام ، فلم يسعه الا الانتظار لحضور الاجتماع . وعقدت الجلسة وحضرها رجل يعرفه من خيرة الأحرار هو جمال أفندى رئيس بلدية رسنة ، مقر طابور نيازى بك ، ويعرف ما بينه وبين نيازى من الصداقة والالفة . فلما تم عقد الجلسة قال « المرخص » : « يا اخوانى .. دعوناكم لنطلعكم على أمر عظيم الأهمية ، هو خطوة جديدة فى أعمال جمعيتنا المقدسة ، وسيؤول بلا شك الى نيل الدستور ، وان تكن أختنا أو أمنا جمعية سلانيك قد تقدمتنا باعلان الفتك بالظالمين ، وهى خطوة هامة فى أعمالنا ، فان شعبة مناستير هذه سيكون لها الحظ فى أن تخطو خطوة أصعب مراسا .. نعنى قيام الأمة معا للمطالبة بحقوقها باعلان الثورة . والفضل فى ذلك راجع الى شعبة رسنة بهمة الأخ الغيور البطل نيازى بك ، فانه بعث الينا صديقه أخانا جمال أفندى ليقص علينا ما هو عازم عليه .. فأعيروه سمعكم »

فأصغى الجميع لما سيتلوه جمال أفندى فقال : « يا اخوانى نحن اذا فعلنا شيئا أو استطعنا عمل شىء فانما نفعله بروح هذه الجمعية المقدسة التى ترشدنا وتهدينا وتأخذ بناصرنا . أما ماجئت من أجله ، فهو أن أخانا نيازى بك قائد طابور رسنة .. وكلكم تعرفون شجاعته فى حروبه ببلاد اليونان ، وكانت الحكومة قد كلفته بمطاردة العصابات البلغارية ، والالبانية .. وقد طاردها

بهمة وبسالة قد عرفتموها ، فعلم بالاختبار ان الحكومة عاجزة عن مطاردة تلك العصابات ، وان قيام الأمة فى وجه الظالمين على هذه الصورة باسم الحق والحرية أفضل وسيلة لنيل حقوقها ، فكاشفنى بهذا الأمر (فى ٢٨ يونيو عام ١٩٠٨) ومعنا طاهر أفندى مفتش البوليس ، وكلنا من أعضاء هذه الجمعية المقدسة وقال لنا نيازى : « عندى ٥٠٠ ليرة اقتصدتها من دخلى ،ويمكننا أن نجمع ١٥٠ الى ٢٠٠ رجل من أعضاء الجمعية والجنود القرويين ، ونهيىء لهم السلاح .. وستشاركنا أوخرى ، ورسنة أيضا ، فنشغل الحكومة فى هذه الآجام شهورا .. وفاتنى أن أقول لكم ان الباعث الأول الذى حملنا على هذا التدبير ، هو أمر مضبطة روال التى تقضى بتقسيم مكدونيا ، واعطائها الى الأجانب كما تعلمون .. ولا يمكننى أن أكتم ما رأيته من تحمس الأخ نيازى بك ونشاطه ، فمن قوله لنا : ان رسنة ينبغى أن تبدأ بهذه الثورة لأن البلغاريين بدأوا منها وجلبوا لنا هذا البلاء . وينبغى لنا أن نحب المسيحيين كاخواننا ، ونساوى بيننا وبينهم ، ونعتبر أعراضهم أعراضنا ، وأرواحهم أرواحنا ، وأموالهم أموالنا لأن نهضتنا انما هى ضد أعضاء الادارة الفاسدة .. لاعلان الحرية والمساواة والاخاء ، وانى مرسل اخواتي وأبنائهن وزوجتى بلا معين الى مناستير ، ومودعهم وداعا أبديا .. فوافقناه على العمل وأنفذونى اليكم لنستشيركم فى ذلك .. »

فلما فرغ جمال أفندى من كلامه عرضت المسألة على الأعضاء،

فقال سعيد : « انه نعم الرأى هو .. وأنا أعلم منكم بصوابه لأنى عانيت عذابا شديدا فى البحث عن العصابات ، ورأيت المشقة فى مناوأتها ، فعلمت ان الحكومة تعجز عن مطاردتها ، وهى شرذمة بلا نظام ولا تدريب ، فكيف اذا كان يديرها جنـد منظم .. اسمحوا لى أن أهنىء نيازى بك على هذا الرأى السديد ، وان أشكره لقيامه بتحقيقه وتعريض حياته للخطر .. ولم ينقض بعد عام على زواجه »

فاستأذن جمال أفندى للكلام وقال : « أذكرتمونى أمرا جميلا بهذا المعنى ، وذلك أن نيازى حين عزم على تشكيل العصابة ، علم أن ذلك يقتضى ذهابه الى أنحاء بعيدة والاعتصام بالجبال ، وتحمل مشاق السفر والخطر ، فذهب الى عروسه وخاطبها فى ذلك ، فشجعته وقد نقل لى لفظها بعينه ، وهو قولها : اذهب يا نيازى لا وظيفة لك سوى الموت فى مصلحة الوطن .. فأرسلها مع عديله الى أهلها »

فوقف صادق بك وقال : « ان زوجة أخينـا نيازى تذكرنا بخطيبة أخينا رامز ، فان أمة فيها مثل هؤلاء النساء لا يجـوز حرمانها من الدستور ، والان لا أظنكم ترون مانعا من الموافقة على مشروع الأخ نيازى بك ، ولنرسل اليه التعليمات اللازمة وعسى أن يكون عمله قدوة لسواه ، اذ يشعر أهل المابين أن الأمة كلها غاضبة عليهم ، لعلهم يشعرون بالواجب .. وعلينا الان أن نبلغ هذا الخبر الى الجمعية المركزية فى سلانيك »

فوقف سعيد وقال : « أنا أقوم بهذه المهمة » .. اذ أراد أن يغتنم الفرصة للبحث عن شيرين هناك

فقال المرخص : « جزاك الله خيرا .. أظن أن رامزا لم يعد من مهمته فى مخابرة قناصل الدول .. أين هو الان ياترى ؟.. »

قال سعيد : « لم يرجع بعد ، ولا نعلم أين هو ، ولكنه لا يلبث أن يعود وقد نجح فى مهمته باذن الله »

ثم انفضت الجلسة وتوجه جمال أفنـدى ، ومعه التعليمات اللازمة لنيازى بك .. وتوجه سعيد بك الى سلانيك ، وهو على أحر من الجمر ، فبلغ الجمعية الخبر .. وسمع منها خبرا لا يقل عنه أهمية ، وهو : أن أنور بك قام لمثل هذا الغرض ومن معه من الجند .. وكلفته الجمعية ابلاغ ذلك الى شعبة مناستير ، ثم قصد الى منزل طهماز ، فوجد المكان قفرا .. فسأل الجيران ، فأخبروه أن طهماز أتى ، وأتت اليه ابنته شيرين ومعها خادمها ، وبعد أن مكثوا أياما سافروا للبحث عن توحيدة .. فسـألهم : « هل تعرفون البلد الذى قصدوا اليه ؟.. »

فأجابوا : « كلا لا نعرف .. »

فتأسف سـعيد لهذا الفشل ، ولكنه تجلد لأن الزمان علمـه الصبر ، وان الانسان لاينبغى أن يقلق ويضجر ، ولا ييأس . فعاد الى مناستير فرآها قائمة قيامتها . وقد وصل اليها شمسى باشا وأخـذ فى التحرى والبحث والتشديد ، وقد دله بعضهم على بعض أعضاء الجمعية ، فعزم على الفتك بهم .. فعقدت الجمعية

جلسة عاجلة ثبتت فيها الحكم عليه بالاعدام ، ونهض الفدائى وهو يبتسم لقيامه بهذه المهمة . وفى اليوم التالى ضجت المدينة لقتل ذلك المشير على يد شاب ملازم أطلق عليه مسدسه بين ١٥٠٠ من أعوانه ، وغيرهم .. ونجا بنفسه سالما ، ولم يتمكن أحد من الوقوف على خبره . فكان لهذا القتل تأثير شديد فى قلوب أعداء الجمعية ، وتضاعفت هيبتها .. وخاصة بعد أن شاع خبر عصابة نيازى بك ..

- ٧٦ -

عصابة نيازى

وقد نجحت عصابة نيازى نجاحا باهرا .. وطلب الانضمام اليهم خريستو القائد البلغارى فقبلوه ، فاكتسبوا بذلك ثقة البلغاريين . وقبل سفر العصابة كتب نيازى بك منشورات بعث بها الى المابين والمفتش العام ، وقومندان الجندرمة فى مناستير ، وبكباشي الطابور فى رسنة ، ومدير رسنة ، وجاء فى كتابه الى المابين الآتى نصه : « ان الأمة تطلب الدستور ، والجمعية صاحبة هذا المشروع مستعدة لخدمة الذات السلطانية ، ولا تحاسبها عما سلف من السيئات ، فنحن نريد تنفيذ القانون الأساسى هذا اليوم ، فان كانت الحكومة لاتمنحه طوعا ، فالأمة تأخذه عنوة » ولما حان السفر ، أخذوا يهتمون بصرف نظر الحكومة عنهم ،

حتى لا تشعر بفرارهم .. فرأى نيازى بك أن يحول اهتمامها الى مكان خارج المدينة ، زعم أن عصـابة بلغـارية هاجمته ، فخرج الجند الى ذلك المكان فخلت الثكنة ، فدخل هو ورجاله اليها وفتحوا صـناديق الأسلحة ، وأخـذوا ما وجدوه من النقود . وكتب نيازى بك صكا بذلك ، حفظ فى صندوق الطابور .

خرجوا وهم ١٥٠ رجلا نحو لاحجة يوم الجمعة .. فالتقوا بمن وافاهم الى هناك ، وشرح لهم نيازى بك خطته ، فقال : «ان خطتى الجهاد فى سبيل الحرية الى الممات ، فمن لايرضى فليرجع» فوافقوه وساروا معه ، وجعلوا يطوفون القرى يدعون أهلها الى الاتحاد معهم فى طلب الحرية والدستور ، ويحلفونهم على الثبات ويبذلوا الجهد فى محاسنة غير المسلمين ومعاملة الأهالى بالرفق ، والعدل ، وأدخلوا عددا كبيرا من الأهالى فى الجمعية ، وفيهم المسلمون ، والنصارى ، على اختلاف الطوائف فى اسـتاورة ، وأوخرى ، وغيرهما . وكتب نيازى الى جرجيس رئيس عصابة الالبانيين يدعوه الى الانضمام اليه لمناهضة الحكومة الظالمة ، وكتب بذلك الى غيره أيضا

فلما علمت الحكومة فى رسنة بخروج نيازى ورجاله ، بعثت جندا للقبض عليهم ، فخالفوهم فى الطرق . وساعدهم على الفوز ان الجمعية كان نفوذها قد تمكن فى أهم المـدن هناك ، مثـل أوخرى ، ودبره ، وقروشيشته ، وغيرها . وانضم اليهم كثيرون من المغضوب عليهم الفارين من كل الطوائف . وكان نيازى بك

يصرف المرتبات الى رجاله مما جاء به معه ، واذا احتاج الى مال أخذ من البلد الذى يكون فيه ، وأعطى شيوخه صكا على الحكومة تقتطع قيمته من الضرائب

وفى اليوم الثالث من خروجه ، كتب الى الجمعية فى مناستير بما فعله ، وبشرهم بنجاحه .. وبعث منشورا الى نصارى مكدونيا ترجمه الى لغاتهم يطلب اليهم نبذ الضغائن القديمة ، والاتحاد مع المسلمين لطلب الدستور ، وان هذا هو الهدف الأول « لجمعية الاتحاد والترقى » .. واهتمّ بالتقريب بين القرى الاسلامية المتجاورة وتشكيل هيئات ادارتها واحكام الصلح والوفاق بينها ،وجمع اليه الهاربين من الجنود والمسجونين ممن كانوا يضرون بالأهالى ، وأجمل لهم النصح ودبر مايمنع ضررهم، واجتذب قلوبهم بالعفو والملاطفة وحسن الأسلوب ، واتباع الحق والعدل ودبروا طريقة لمخابرة رسنة ، وأوخرى ، واتخذوا بريدا وعينوا منازله .

واشتد ازر نيازى بك حين بلغه قيام أنور بك بمثل ما قام به ، وكان ينشىء فى القرى التى يمر بها نوعا من الحكومة الدستورية بما يتمشى مع نظام الجمعية ، والناس ينضمون اليه ويؤازرونه ، ولحق به عدة عصابات وطنية

فلما بلغت أخبار هذا النجاح الى مناستير ، اشتد ازر الجمعية به ، فكتبت انذارا الى والى مناستير تقول فى جملته : « ان حكومتكم الحاضرة غير شرعية لأنها خالفت الدستور ، وان

الجمعية سوف تعمل على استرداد الحق الصريح (الدستور) الخ » وكتبت الى نيازى بك كتابا ضـمنته الأوامر والنصائح والأخبار ، وفى جملة ذلك : « ان شمسى باشا أعـدم هنا علنا ونجا قاتله » ..

ففرح نيازى بك بذلك .. واضطربت الحكومة ، وتملكها الارتباك ، فعينت عثمان باشـا الفـريق بدلا من شمسى باشا ، فاجتمعت الجمعية وبحثت فيما ستفعله ، فرأت الميل الى الرفق ، فقررت القبض عليه بدلا من قتله وبعثت تستقـدم نيازى بك . وكان قد طاف كثيرا ببـلاد البانيا وعزم على المسير الى يانيا ، فقضى فى انتقاله أياما يجمع كلمة الناس باسم الجمعية ويستحلفهم على الثبات ضد الظلم بلا تفريق بين المذاهب أو العناصر ، فدخل فى محالفته البلغار ، والصرب ، والالبان ، والأروام ، وصـار الرهبان يحتفلون بقدومه ويتوسلون الى الله أن يأخذ بيـده ، وهم يعدون الجمعية حكومة شرعية خفية ..

فلما وصله الأمر بالمجىء الى مناستير أسرع اليها ، وهو لايعلم ما يطلب منه .. وقاسى فى سبيل عودته مشقة حتى بلغ ضواحى مناستير ، فوصـله كتاب من الجمعية تأمره بالقبض على عثمان باشا فحاصروه فى مركز القومندانية وقطعوا الأسلاك التلغرافية ، وجردوا الحراس من الأسلحة ، وكان الباشا نائما فأيقظوه من نومه وأمسكوه من ذراعيه ، وأفهموه أن لا محل للغضـب أو الاضطراب .. فتقدم اليه نيازى بك ، وأخذ يقنعه أنهم لايريدون

أذاه ، وان قصدهم شريف ، وان المراد حمله ضيفا الى رسنة . وسلم اليه كتابا من الجمعية قرأه فاذا عبارته لطيفة ، وفيه ثناء على قدرته العسكرية وشجاعته ، وان الجمعية لاتنوى قتله كما قتلت شمسى باشا من قبل ، بل هى تأسف اذا أصيبت شعرة من شعره بأذى . فسكت .. فأخذوه الى رسنة

فلما رأت الحكومة انحياز فيلق مكدونية الى الجمعية ، بعثت تستنجد بفيلق الاناضول .. فانحاز الى الجمعية ، فأسقط بيدها

— ٧٧ —

المولود الجديد

كل ذلك والجمعية تزداد قوة وأملا ، ولكنها كانت تنتظر رجوع رامز من مهمته الى القناصل . وفى أواسط يوليو من تلك السنة عاد رامز وطلب عقد الجمعية ، وأخبرهم ان الدول لاترى بأسا من طلب الدستور .. ولا تعترض طريقهم اذا طلبوه

فتباحثوا وقد أخذت الحماسة منهم مأخذا عظيما ، فقرروا طلب الدستور من المابين

فوقف سعيد وقال : « أرى قبل الاقدام على هذا الطلب وهو آخر خطوة نخطوها فى عملنا أن نستشير أخانا الجديد الاميرالاى فوزى بك ، فانه ذو معرفة وحنكة ، وزوجته من قوادين السلطان عبد الحميد وتعرف أخلاقه .. »

فاستحسن الجميع رأيه وكلفوا سعيدا أن يتصل به ،فاصطحب ابنه رامزا وقص عليه خبر شيرين فى أثناء الطريق ، وكيف أنه ذهب الى سلانيك ولم يجدها ولا يعلم أحد مقرها ، فتجددت أحزانه ، وقد علمت أن فوزى بك أقام بقرية بضاحية مناستير ، فوصلوا القرية فى الضحى ، فوجدوا فوزى بك فى الحديقة وأمارات البشر على وجهه .. فلما رأى سعيدا هش له وتقدم لاستقباله ، فتقدم سعيد للتعريف بينه وبين ابنه وسأله عن سبب غيابه عن مناستير منذ أيام ، فقال : « انه كان مشتغلا بالقادين لأنها وضعت حملها منذ بضعة أيام .. »

فقال سعيد : « وماذا وضعت ؟.. »

قال : « وضعت غلاما »

وكان سعيد قد علم من حديث جرى بينه وبين فوزى بك ان الطفل ابن عبد الحميد ، وهم أن يسأله عن شكله .. فأسرع فوزى بك وأخرج من جيبه صورة فوتوغرافية دفعها الى سعيد وقال : « هذه صورة الطفل »

فاستغرب سعيد تسرعهم فى تصويره ، فقال فوزى : « ان القادين طلبت ذلك بسرعة وأرسلت الصورة الى يلدز من بضعة أيام ، وهى تعتقد أن ارسالها يسهل نيل الدستور على الجمعية »

فتأمل سعيد فى الصورة ومرت فى خاطره أفكار متضاربة ، وتذكر حوادث كثيرة نشبت فيها الحروب أعواما بسبب دعاة الملك المشكوك فى أنسابهم .. لكنه عاد الى المهمة التى جاء من

أجلها ، فقص على فوزى بك قصة نجاح الجمعية ، وقال : « انها عزمت على طلب الدستور من السلطان ، فأشرت عليها أن تستشيرك فى ذلك قبل الاقدام عليه ، فماذا ترى ؟.. »

قال : « أرى المبادرة الى الطلب بلهجة شديدة ، فانالسلطان ضعيف الان .. وهذه فرصة لا تضيعوها »

وكان رامز وهو يسمع الحديث ، يجول بنظره فيما حوله من الأشجار والرياحين ، فوقع بصره على شبح يلبس ملابس النساء مرّ فى طرف الحديقة البعيد بأسرع من لمح البصر ، فارتاب فى أمره ، لكنه رأى السؤال عنه فضولا منه ، فسكت .. ولم تمض بضع عشرة دقيقة حتى رأى أهل القصر فى هرج ، وقد علا الصياح وتراكض الخدم نحو الحديقة ، فبغت فوزى بك وصاح فيهم : « ما بالكم ؟ » فتقدم اليه أحد الخدم وهو يلطم ويقول : « الطفل .. الطفل .. »

فقال فوزى : « ماباله ؟ ماذا جرى له ؟.. »

قال الخادم : « لا أدرى .. انه يصيح من شدة الألم وقد أزرق بدنه وغارت عيناه .. »

فركض فوزى وتبعه سعيد ورامز ، فسمعوا بكاء القادين قبل الوصول الى البيت ، فدخلوا الدار ودخل فوزى الى غرفة القادين ، وبعد برهة عاد وهو يحمل الطفل ميتا لا حراك به ، ويكاد جلده يكون أسود .. وحالما وقع نظر سعيد عليه ، عرف أنه مات مسموما ، فقال : « ماذا أطعمتموه ؟ »

قالوا : « لم نطعمه شيئا »

قال سعيد : « لابد من شيء سام دخل جوفه .. أنظروا من خدعكم .. »

فالتفت الخادم الى المرضع ، فانتبهت لأمر جرى فى تلك الساعة فصاحت : « ويلاه لعل تلك الساحرة التي حنكته قد دست السم فى فمه .. »

فقال فوزى : « من هذه الساحرة ؟ »

فأخذت المرضع فى البكاء ، وجعلت تلطم وجهها وتقول : « اقتلونى.. اقتلونى أنا الشقية الجاهلة.. ان المرأة أتتنى فى هذا الصباح وزعمت أنها ساحرة وطبيبة ، وانها تحنك الأولاد فيسمنون .. وسحرتنى بلطفها ، وحملت الطفل لحظة دخلت فى أثنائها لغرض ، فرجعت ورأيت الطفل وحده كالنائم ثم سمعته يصرخ ويتوجع .. ويلاه .. أين هذه الملعونة » وأخذت فى النواح

فقال رامز : « رأيت منذ ربع ساعة امرأة عليها ازار ملون مرت بسرعة من طرف الحديقة لعلها هى .. »

فصاحت المرضع : « نعم هى .. هى .. » وهمت أن تتبعها

فقال فوزى بك : « ارجعى .. انك لن تدركيها .. ولابد من يد آثمة حملتها على هذا العمل » ..

فقال سعيد فى نفسه : « ان مقتل هذا الطفل أنقذ الأمة من حروب أهلية فى التنازع على الملك »

وبينما هم فى ذلك ، رأوا رجلا مسرعا نحوهم ينهب الأرض

نهبا ، فتوجهت اليه الأنظار، ولم يقترب منهم حتى عرف رامز أنه خريستو خادم شيرين ، فخفق قلبه تطلعا الى حبيبته ، ومشى نحوه ، لكن الخادم لم ينتبه له ، وأخذ يصيح : « فوزى بك فوزى بك .. » وهو يلهث من التعب فتراجع رامز وأجابه فوزى بك قائلا : « ماذا تريد .. مابالك ياخريستو ؟.. »

فقال خريستو : « جئت لأنبهـك الى جريمـة يسعى بعض المفسدين فى ارتكابها ، وأخشى أن أكون قد تأخرت لأنى لم أكن أعرف هذا المنزل »

فبغت فوزى بك وتحقق ظنه واقشعر بدنه لضياع الفرصـة بتأخر ذلك الرسول وقال : « نعم .. لقد تأخرت فى تحذيرنا من وقوع هذه الجناية .. »

فصفق خريستو أسفا وقال : « يا للخسارة .. تبا لأهل البغى الأشرار .. »

فقال فوزى بك : « قل .. ماذا جرى ؟.. من هو مرتكب هذه الجريمة ؟.. »

قال خريستو : « انه جاسوس ملعون .. اسمه صائب باشا »

فلما سمع رامز ذلك الاسم وقف شـعر رأسـه ، وصاح : « خريستو .. أين هو صائب اللعين ؟ »

ولم يكن خريستو يلتفت الى أحد من الحاضرين غير فوزى بك ، فلما سمع صوت رامز أجفل والتفت اليه وصاح : «سيدى رامز أفندى .. هذا أنت ؟ » وأكب على يديه وأخـذ يقبلهما

ويذرف الدموع .. ثم تنفس الصعداء ، وقال : « الحمد لله الذى أرانى وجهك سالما .. ما هذه المصادفة ؟.. من لى أن أطير الى سبدتى شيرين وأبشرها هذه البشارة .. »

قال رامز : « أين هى الآن ؟.. »

قال خريستو : « هى فى ضاحية مناستير بالجانب الآخر مع أبيها .. »

فابتدره قائلا : « وصائب .. أين هو ؟.. »

قال خريستو : « تركته فى هذا الصباح هناك ، وفررت لنقل نبأ الدسيسة التى دبَّرها مساء أمس مع احدى النساء كى تسمِّم الطفل .. ولم يكن هذا اللعين يعلم مكان سعادة الاميرالاى الا أمس بعد أن ضعف شأن الحكومة وتحقق ان الجند مع الجمعية ، فأراد أن يتمم مهمته بقتل الطفل خلسة ، فعلمت انه يدبر هــذه الدسيسة فأسرعت لاخباركم ، ولكن سبق السيف العزل .. »

فقال رامز : « نأسف كثيرا لفوات الفرصة » والتفت الى خريستو وقال : « هل صائب هناك الآن ؟.. »

قال خريستو : « نعم .. »

فالتفت الى فوزى بك وقال : « أستأذن سيدى فى الذهاب لعلِّى أظفر بذلك المنافق فأذيقه الموت» وودعه ، ومشى هو وأبوه مع خريستو ، فسأله رامز فى أثنــاء الطريق : « مامعنى وجود هذا الملعون فى بيت سيدك وشيرين هناك ؟.. »

قال خريستو : « أقص عليك الخبر ياسيدى باختصار .. ان

سيدتى لما يئست من رجوعك يوم سفرك الى يلدز صممت على الذهاب بنفسها الى هناك ، واستعانت بى فى هذا الأمر . فسافرنا الى الاستانة ومنها الى يلدز ، كما قد علمت على ماأظن ، فمكثت فى يلدز بضعة أيام بين الخدم كواحد منهم . فلما عزمت سيدتى على الفرار مع القادين . ج ، جئت فى خدمتها ، فوصلنا سلانك بعد مدة طويلة ، فأرادت أن تسأل عن والدتها لأنها تركتها فيها فاستأذنت من القادين . ج ، وسرت فى خدمتها الى بيتها ، فوجدت أباها وحده فرحب بها وأظهر لها كل عطف ، وقال لها : « ان والدتها آتية قريبا » فندمت على مجيئها الى البيت لأن صائب باشا أتى فى الصباح التالى لزيارة والدها ، وقد صار باشا وتوسع فى النفقة والملبس والبذخ . وسمعت سيدى مرة يحبب اليها صائبا ويقول انه صار من أقرب المقربين الى السلطان، وقد عوّل عليه فى أعظم مهامه لمعاكسة الأحرار ، وان رامزا قتل ولا فائدة من انتظاره ، ولا تلبث الجمعية أن تتمزق .. وهى لاتجيب ..

وأخيرا طلبت اليه أن لايخاطبها فى هذا الشأن مطلقا ، وهى الى الآن لاتعرف انك على قيد الحياة ، ولكنها ثابتة فى حبك .. وبعد أيام سافر صائب باشا لا أدرى الى أين . وظلت شيرين مع أبيها وهى حزينة لايلذ لها طعام ، ولا شراب ، تسأل عن والدتها ولا تعرف مقرها ، وقد سمعت من الجيران انها فى مناستير ، فطلبت الى والدها أن ينقلها الى هنا.. فانتقل بها وهو لايأذن بخروجها ،

ولا يسمح لها أن تكلم أحدا ، وقد ضيق على أيضـا وحبسنى فى البيت وأصبح لايكلفنى أن أشترى شيئا من السوق .. فلما جئنا مناستير أنزلنا فى الفندق الذى نحن ذاهبون اليه ، وقال لسيدتى انه بعث للبحث عن والدتها .. وأنا لا أستطيع الخروج ، ولو عرفت انك هنا لهربت اليك . وكان صائب فى أثناء هذه المدة يتردد على الفندق .. يحمل الهدايا ويتزلف ويتملق بكل وسيلة ، وسيدتى لاتعيره التفاتا حتى سمعته أمس يخاطب تلك المرأة عن تسميم الطفل ، ورأيته يدلها على بيت فوزى بك ، وتحققت ان خروجى ينجى هذا الطفل من الموت ، وأخبرت سيدتى شيرين فأمرتنى بالخروج حالا ، لكننى تأخرت عن الوقت اللازم فلا حول ولا .. »

فقال رامز : « تبا لهذا اللعين .. ألا يزال يتعقبنا ؟.. قد انقضى أجله بلا ريب » قال ذلك وأعد مسدسه ، وقد عزم على أن يفتك به حالما يقع نظره عليه ، وأصبح يرتعد من شدة الغيرة والتأثر .. وأعاد السؤال عن شيرين وأحوالها ليلهو بالحديث أثنـاء بقية الطريق .. وبعد مسيرة ساعة لم يجدوا خلالها مركبة يركبونها ، أطلوا على بيت ظهر لهم عن بعد بين البساتين ، فقال خريستو : « هذا هو الفندق » فأسرعوا فى المسير وخاصة خريستو ، فانه عمد الى الركض حتى سبقهما ، فرأياه وصل الفندق ودخله ، فأسرعا نحوه فاذا هو خارج يصفق تصفيق الفشـل ، يقول : « لم أجد أحدا فى الفندق »

فبغت رامز وقال : « أين ذهبوا ؟.. »

قال خريستو : « سألت صاحب الفندق فأخبرنى انهم بعد خروجى فى هذا الصباح .. ركبوا وساروا الى حيث لايعلم .. »

فقال سعيد : « يظهر انهم اشتبهوا فى خروجك ، وخشوا أن تبلغ خبرهم للجمعية فانتقلوا الى مخبأ آخر ، فوقف رامز مبهوتا لا يقول شيئا ، فقال له خريستو : « دع ذلك الىّ يا سيدى ، وأنا آتيك بخبره عاجلا .. أين أجدك ؟ »

قال رامز : « اترك الخبر عند سيدتك توحيدة .. فانها فى بيت أهلها » ووصف له البيت : « واذا اقتضى الأمر مكاتبتى فهذا عنوانى » وذكره له

فقال خريستو : « حسنا .. أتركانى وانصرفا »

فتركاه وعادا وهما لايتكلمان ، والنار تتأجج فى قلب رامز ويتصور بنفسه اذا رأى ضائبا ليأكلنه أكلا .. ولاحظ أبوه فيه ذلك ، فقال : « دع ذلك عنك يابنى ، وهلم بنا الى الجمعية كى نبلغهم نتيجة مهمتنا فى استشارة فوزى بك .. »

فأسرعوا فى ابلاغ الجمعية ان فوزى بك يرى الاسراع فى طلب الدستور ، فأجمعت على تنفيذ قرارها بطلبه ، فأرسلت تلغرافا الى المابين تطلب فيه اعادة مجلس المبعوثان وهذا نصه :

« الى الحضور الأقدس لحضرة ملجأ الخلافة

« نسترحم المساعدة بانفاذ القانون الأساسى الذى منح ، وأحسن الى التبعة والرعية بالارادات السنية المقررة ، وصدور

الارادة السنية بما يجب فى ذلك وقاية لصداقتنا أو عبوديتنا من الخلل ، ونعرض انه اذا لم يصدر الفرمان الهمايونى بافتتاح مجلس المبعوثان الى يوم الأحد ، بديهى أن تحدث أحوال تخالف الرضاء الشهريارى ، وان المأمورين الملكيين ، والوجوه ، والأمراء ، والضباط ، والعسكريين ، والأفراد الشاهانية ، والعلماء ، والمشايخ ، وكل المنتسبين الى الأديان المختلفة كبارا وصغارا الموجودين بداخل ولاية مناستير بلا استثناء تعهدوا بوحدانية الاله وأصبحوا تحت الميثاق العام »

فى ٩ تموز سنة ١٣٢٤   جمعية الاتحاد والترقى
مركز مناستير

— ٧٨ —

عبد الحميد فى يلدز

فلنرجع الى رب يلدز وما كان من شأنه بعد تلك الحوادث . تركناه وقد وقع الرعب فى قلبه لفرار القادين.ج ، وهى حامل ، وتشاءم من فرارها ووجه عنايته الى مطاردة الجمعية والفتك بها ، واعتمد فى ذلك على شمسى باشا المشير .. ولم يلبث أن أتاه تلغراف بمقتله ، فخارت قواه وزادت وساوسه ، ومال الى العزلة للتأمل والتفكير .. وعمد الى استطلاع الغيب على أيدى المشايخ والمنجمين وهم يطمئنونه .. وانما كان تشاؤمه بالأكثر من

وضع القادين . ج ، فبذل جهده فى تعقبها بعد فرارها حتىأخبره جواسيسه انها فى مناستير مع فوزى بك ، وكان قد فوّض الى شمسى باشا الأمر بالقبض عليهما .. فتعجلت الجمعية منيته ، ففوض ذلك الى عثمان باشا ، فقبض عليه واستحث فيلق الاناضول ، ولم يجبه كما علمت فازداد فشلا . وكان صائب باشا يعلم رغبة السلطان فى ذلك ، فرأى أن يخدمه بقتل الطفل اذ يستحيل عليه القبض على القادين . ج ، أو الاميرالاى بعد فشل الحكومة . فعل ذلك من تلقاء نفسه والسلطان لايعلم

فلما تعاظم اليأس على السلطان عبد الحميد ، وتراكمت عليه الهواجس بذهاب القوة العسكرية من يده فى مكدونيا والاناضول تضاعفت وساوسه ، وأصبح يكره أن يرى رسولا قادما نحوه لتوالى أخبار السوء عليه ، حتى غدا لايتوقع خبرا مفرحا ، ومال الى العزلة ، ولم يعد أحد يجسر على مقابلته .. وان كان أثناء المقابلة لايظهر عليه شيء من القلق لقدرته العجيبة على اخفاء انفعالاته .. على انه كان كيفما توجه ، تصور القادين . ج أمامه ، واذا تصور وضعها شعر بخفقان قلبه

وبينما هو فى ذلك جاءت محفظة البريد على جارى العادة ، فوضعوها على الطاولة فى غرفة المطالعة وذهبوا . وأتى هو الى الغرفة فى الصباح ، فرأى المحفظة ولم يفتحها لئلا يكون فيها ما يسوءه .. وحان وقت الغداء ، فلم يتناول من الطعام الا قليلا ، لكنه أكثر من التدخين . فلما جاء الغروب وانقبضت الطبيعة

لفراق الشمس حمله حب الاستطلاع على فتح المحفظة ، وقد أنيرت المصابيح فوق الطاولة ، ففتحها وقلب مافيها من الظروف ، فرأى بينها ظرفا عليه ختم مناستير ، وحالما وقع نظره على العنوان تسارعت دقات قلبه لأنه كان بخط القادين . ج ، فأخذ فى فتحه ويده ترتجف من التأثر ، ولما فضه وجد فيه صورة فوتوغرافية لطفل عار ، ليس عليه من الثياب الا ملاءة بيضاء ، ووجهه يضحك كالملاك .. فحالما رآه أدرك انه ابنه ، فلم يستطع النظر اليه طويلا، فقلب الورقة ليخفى الصورة عن عينيه ، فرأى على ظهرها كتابة هذا نصها :

« هذه ياظالم صورة ابنك الذى كنت تتعمد قتـله وقتل والدته ، خوفا من أن يكون وجوده شؤما عليك يذهب بدولتك. فها هو ذا قد ولد ،وأمه مازالت على قيد الحياة فى مكان لايصل اليه سلطانك .. فاعلم ان تنجيم المنجمين قد صدق ، ولم يبق لك فى السيادة مأرب من هذه الساعة .. اتق الله وارجع عن غيك ..»

ولم يكد يتم القراءة حتى اختلجت أعضـاؤه ، فاستلقى على كرسى طويل اعتاد أن ينـام عليه أحيانا ، واستغرق فى أفكاره وراجع تاريخ حياته وما مر به من الأهوال .. وكم قتل من النفوس ، وأنفق من الأموال فى سبيل حفظ سلطته ، والمحافظة على حياته ، وكان اعتماده على الجند .. فأصبح الجند ضده ، ولم يعد ماله ينفعه ..

ومازال فى أمثال هذه الهواجس ، وقد أخذ التعب منه مأخذا

عطيما ، فغلب عليه النعاس ونام ، فتوالت عليه الأحلام المزعجة ، فتراءت له القادين . ج تحمل طفلها على ذراعها وتقول له : «هذا هو ابنى وابنك ، فقد أفل نجم سعدك .. دع الملك لأهله » . ثم تراءى له ان البوسفور قد جف ماؤه وانكشف قاعه ، وقد نبتت جثث القتلى بين صخوره كالاسفنج ، وكل اسفنجة تشبه واحدا من قتلاه قد حملق بعينيه فيه .. وقد رأى مدحت عائدا من الطائف يدرج على الارض جثة بلا رأس ، حتى وصل باب المابين فاذا برأسه قد تدحرج من مخبئه ، واستقر على الجثة بين الكتفين وأخذ فى توبيخه ، فذكره بأمور كانت بينهما لايعرفها سواهما ، فأجفل واستيقظ ثم عاد فنام وعادت اليه الأحلام

ومازال فى ذلك الى الصباح .. وقد استيقظ على صوت الحاجب وقد جاء ينبئه بقدوم الباشكاتب لأمر هام ، فأمر بادخاله

فدخل وفى يده رسالة « جمعية الاتحاد والترقى » فى مناستير تطلب الدستور ، فدفعها الى السلطان .. فحالما فتحها وقرأها لم يستغرب ماجاء فيها ، لأنه أقل مما كان يتوقعه على أثر تلك الوساوس ..

كان يخشى أن يأتى الأحرار اليه فاتحين فيكون تحت خطر القتل ، وهو يبذل كل شىء فى سبيل بقائه على قيد الحياة .. فاذا هم يطلبون الدستور فقط بعبارة لطيفة جدا ، فأحس بضعفه وعزم على الاجابة ، لكنه دعا وزراءه وذوى الشورى ، وأخذ يباحثهم فيما اذا كان من المستحسن تلبية طلب الجمعية

ولم يكن الأحرار يشـــكون فى اجابة طلبهم ، ولذلك كانوا فرحين وخاصة الفدائيين ، والأبطال المحاربين ، أمثال نيازى ، وأنور .. وبالجملة فان الجميع كانوا فرحين الا رامزا ؛ فانه كان غاضبا بسبب شيرين

– ٧٩ –

شيرين وصائب

أما شيرين ، فقد علمت ان طهماز فرّ بها من ذلك الفندق ، خوفا من وشاية خريستو بعد فراره ، لعلمه انه من حزب رامز . وكان طهماز قد علم من صائب ان رامزا على قيد الحياة وله فرقة قوية من « جمعية الاتحاد والترقى » فى مناستير ، فرجع بشيرين الى سلانيك ، وسبقه صائب الى هناك.. وعاد الى التردد والتزلف الى شيرين ، ولم يخبرها أحد ببقاء رامز على قيد الحياة . وما زال صائب يطاولها حتى خشى من فوز الأحرار بعد مقتل شمسى والقبض على عثمان وارسال التلغراف الى المابين بطلب الدستور وشعر بأنه لم يبق له عيش ، فألح على أبيها أن يعقد له عليهـا ليسافر معها .. فاستخدم طهماز سلطانه كأب ، وخاطبها بلهجة صاحب السلطة الأبوية على أثر مقابلة طويلة معها ، روى لها فيها مزايا صائب باشا ، وما يرجوه لها من النعم على يده ، وان رامزا صار ترابا ، فلم تزد الا رفضا ، فقال لها : « ان السلطة لى أنا فى

زواجك .. وغدا يأتى القاضى ليعقد زواجك على صائب باشا .. اذ لايجوز أن نخسر بسبب جنونك صهرا مثل هذا »

وكانت قد تعبت من تكرار الرفض ، وملت الجدال ، وقد أخذ الهزال منها مأخذا عظيما ، وأيقنت بموت رامز وكرهت الحياة ، فلما خاطبها والدها بهذه اللهجة سكتت ، لكنها أعدّت خنجرا ماضيا خبأته تحت أثوابها ، وعزمت اذا لم تجد لها نجاة أن تقتل صائبا وتنتحر

أما خريستو فمازال يقتص الآثار حتى علم انهم فى سلانيك ، فجاءها فى صباح اليوم المعين لعقد القران .. فلما علم بقرب العقد والسفر خف الى مكتب التلغراف ، وبعث الى رامز أن صائبا هنا فليأت سريعا .. وهو مع ذلك يعلم أن رامزا يستحيل عليه الوصول الى سلانيك قبل صباح الغد ، اذ يكون قد قضى الأمر ، ولكنه فعل مايمكنه . وهو لايستطيع الدخول الى المنزل للوصول الى صائب . وأخيرا عزم على المخاطرة بحياته ، فاقتنى مسدسا خبأه بين أثوابه وجاء قبل ميعاد العقد بساعتين ، وجعل يترقب الفرص للدخول الى المنزل .. فرأى القاضى داخلا ومعه شاهدان ، فأراد أن يدس نفسه بينهم .. فرفسه أحد الشاهدين رفسة ألقته على الأرض ، فاستغرب خريستو اهتمام ذلك الشاهد به وارتاب فى أمره .. فدار من جهة النافذة لعله يستطيع أن يصوب المسدس من هناك فلم يجد منفذا . فرأى أن يخبر شيرين على الأقل ببقاء رامز على قيد الحياة لعل ذلك يفرحها ويساعدها ؛

فكتب كلمتين على ورقة وذهب الى الجيران وهو يعرف خادمهم، وبينهما صداقة متينة ، فسلم اليه الورقة وتوسل اليه أن يوصلها الى شيرين حيثما تكون

فأخذ الخادم الورقة ودخل من باب المطبخ ، فلقى الخادم الجديد الذى جاءوا به للمأدبة فى ذلك اليوم ، فوقف يشاغله ويراقب حركات شيرين حتى رآها أتت الى المطبخ ، لتبتعد عن أبيها وصاحبه ، فأسرع ورمى الورقة فى يدها وخرج

ففضتها فعرفت انها بخط خريستو فقرأت فيها : « ان رامزا على قيد الحياة وهو آت لنجدتك .. لا تخافى .. »

فلم تتمالك أن شهقت من الفرح بغير ارادتها وقالت : « رامز ! » ثم انتبهت وخبأت الورقة ، ولما رأت أهل البيت انتبهوا لشهيقها أظهرت انها أحست بألم شديد فى رأسها ، فلم يستغرب والدها ذلك لعلمه بما لحقها من الغضب ، أما صائب فلمهارته فى التجسس لم يصدق حيلتها ، وحدثته نفسه بأمر طرأ عليها من جهة رامز . وكان جالسا فى الصالون مع القاضى والشهود ، فأظهر انه اهتم بأمر صحتها ، فأسرع الى غرفتها ووقف بالباب وقال وهو يخاطب طهماز : « هل أدخل ياسيدى ؟.. »

فقال طهماز : « تفضل ياباشا .. لعل وجودك يذهب غضبها »

فدخل ، وكانت شيرين قد أرخت النقاب على وجهها لتخفى بكاءها ، فلاحظ أن فى يدها ورقة ، فأصبح همه أن يخرج تلك الورقة من يدها بالحيلة ، فقال لها : « دعينى أجس يدك لأرى

مابك .. » ومد يده نحوها

فاستلت يدها وخبأتها وراء ظهرها ، فمد يده الى هناك فوقفت ونفرت منه ، فتبعهـا وأظهر انه يريد الاطلاع على تلك الورقة عنوة . فتمنعت وصاحت فيه بلهجة الاستخفاف ، وقد عادت اليها قوتها حين علمت ببقاء رامز على قيد الحياة وانه آت لنجدتها ، فقالت : « ابعد عنى يارجل .. »

فصاح والدها فيها بلهجة التوبيخ : «ماهذه الجسارة ياشيرين ألا تعلمين انك بهذه الوقاحة تحطين من قدرى ؟.. »

فقال صائب : « دعها ياسيدى انها متألمة ، وأنا أحب أن أرى الورقة التى فى يدها » فقالت : « مالك ولها .. الأحسن لك أن لاتعلم مابها لأنها توقعك فى اليأس .. » فضحك وقال : « وماذا عسى أن يوقعنى فى اليأس .. ؟ » والتفت الى أبيها وقال : «يظهر انها حتى الساعة لم تعلم من أنا .. فيا لضيعة المحبة .. اعطنى الورقة .. »

فابتسمت وقد ذهب بعض امتقاع وجههـا من ذكرى رامز ، وقالت : « لابد من اطلاعك على هذه الورقة ! .. خذها » وقذفتها وجعلت تتفرس فيه لترى مايبدو منه ، وقد اسـتعدت للدفاع عن نفسها بالخنجر المختبىء فى أثوابها

فلما قرأ الورقة ضحك ضحكة التهكم وقال : « انهم يهزأون بك .. ان رامزا أصبح ترابا نجسا مثل سائر رفاقه المغرورين ، وسترين مصيرهم جميعا .. »

« فصاح ابوهـــا : ما هذه الجســـارة يا شـــيرين ؟ ... الا تعلمين
انك بهـــذه الوقاحـــة تحطين من قـــدرى ؟ ! . . . »

فلم تصبر شيرين على سماع ذلك الطعن فى رامز ، فخرجت عن ارادتها وصاحت فيه : « اخسأ يانذل .. هل بمثل هذا الكلام تذكر رامزا ؟.. عار عليك .. ولكنك لاتعرف العار لأنك لاتشعر ولا ضمير لك .. »

وكان صائب يعلم ان ما فى الورقة صحيح ، وان رامزا لابد أن يأتى اذا علم بوجودها ، وان الأحرار فائزون . وتحقق أنها لم تعد تقبل الزواج منه ، فعزم على الانتقام منها بالقتل قبل أن يأتى أحد لنجدتها ، فأخرج مسدسه وشهره عليها وقال : « ألا ترجعين عن غيك ؟ » ولما رآه طهماز يشهر المسدس حسبه يهددها به ، فأمسك بيد ابنته ليوبخها فقاومته .. وهمّت أن تستل خنجرها وتطعن صائبا ، فرأت باب الغرفة قد فتح بقوة وسمعت طلقا ناريا وقائلا يقول : « هـذا عن جمعية الاتحاد والترقى » وطلقا آخر وقولا : « هذا عن رامز » وصاح صائب صيحة الألم وسقط على الأرض يتخبط فى دمه وسقط مسدسه من يده

فوقع الرعب فى قلب طهماز ونظر نحو الباب ، فلم يجد أحدا لأن الضارب أطلق مسدسه ونجا ، فتناول الورقة التى كانت فى يد صائب وقرأها ، فلما علم فحواها خاف ، لكنه أخذ يصيح : « ويلاه .. من الذى ارتكب هذه الجريمة فى بيتى ؟.. » وهرع الى الدار فوجد القاضى ومعه شاهد واحد ، وهما يرتعدان من الخوف ، فقال له طهماز : « ماهذا ؟.. من الذى فعل ذلك ؟ »

فقال القاضى : « لا أدرى ياسيدى ، ولعل الشاهد الآخر

فعله .. والظاهر انه من أعضاء تلك الجمعية السرية ، وقد تنكر في ثياب شاهد ووقف بباب المحكمة الشرعية ، فلما طلبت شاهدين أتوني بهذين .. وهو واحد منهما » ..

وتوافد الجيران على صوت الرصاص حتى امتلأ البيت بالناس

أما شيرين فلما رأت صائبا مقتولا سرها انه لم يقتل بيدها لأنها تنزه نفسها أن تكون قاتلة

فغطت وجهها بكفيها وخرجت الى غرفة أخرى ، وأغلقت عليها الباب ، وتركت أهل الدار يهتمون بتلك الحادثة . وبعث طهماز رسولا من قبله الى مدير البوليس أن يبعث أحدا لضبط الحادث ، وأوصى الرسول أن ينبه المدير أن المقتول صائب باشا .. ظنا منه انهم يهتمون ويسرعون للبحث عن الجاني من أجله — وصائب الى تلك الساعة ذو مقام رفيع لدى الحكومة طوعا للأوامر الصادرة بشأنه من المابين — ومكث الناس في بيت طهماز ينتظرون مجيء البوليس والجثة مطروحة في الغرفة ، وقد أغلقوا عليها الباب ، وطال انتظارهم .

فلما استبطأوا الرسول أرسلوا سواه وسواه ، ولم يرجع أحد . وبينما هم في ذلك سمعوا ضوضاء في الشارع والناس يصيحون : « الحرية والمساواة والاخاء .. الدستور .. الدستور يحيى الجيش .. تحيى الأمة » فأطلوا فرأوا جماعات الناس يحملون الأعلام ويطوفون الأسواق يهنئون بعضهم بعضا ، ويتعانقون ويتصافحون على اختلاف مذاهبهم وعناصرهم.. وهم

ضاحكون فرحون ، وقد قام الخطباء والشعراء يخطبون وينظمون القصائد ابتهاجا بالدستور ..

— ٨٠ —

الفوز الأكبر

ولم يكن طهماز ولاجيرانه أو غيرهم ممن فى تلك الدار يعلمون شيئا من ذلك . ولما استفسروا علموا ان السلطان عبد الحميد استجاب لطلب الأحرار باعلان الدستور فى ذلك اليوم ، وان الجند ورجال الحكومة مشغولون بالاحتفال والفرح ، وان مدير البوليس وغيره من صنائع المابين هربوا واختبأوا ، وصارت السيادة الى أعضاء « جمعية الاتحاد والترقى » فرأى طهماز ان التستر أولى به ، وأصبح يخشى على نفسه .. فأشار الى القاضى أن يدبر غسل جثة صائب ودفنه بعد أن يخرجه من منزله ، ودفع اليه المال اللازم وأصبح همه مرضاة ابنته لعلمه انها من الأحرار ، وان رامزا مازال على قيد الحياة وهو آت ، فعزم على ارضائها ..

وكانت شيرين قد أغلقت الغرفة عليها لتنسى منظر صائب الأخير . وأخذت تفكر فيما قرأته عن رامز وقرب مجيئه .. ثم سمعت الضوضاء فى الدار ، فلم تعبأ بها لأنها كانت تتوقع شيئا من ذلك ، ريثما تضبط الحادثة .. فتحولت نحو نافذة تطل على

بستان ، فرأت خادمها خريستو يتطلع اليها فأشـارت اليه أن يأتى ، فهرول نحوها وهو يرقص من شدة الفرح فقالت له : « أين رامز ؟ »

فقال خريستو : « ربما يأتى فى صباح الغد » وقصّ عليها مافعله باختصار ، ثم قال : « يظهر ان قتل صائبُ أزال عن الأمة المصائب ، وليس عنك فقط .. »

فقالت شيرين : « وكيف ذلك ؟.. »

قال خريستو : « ألم تسمعى الضـوضاء فى الأسـواق .. والناس يصيحون فرحين بنيل الحرية والدستور ؟.. »

وكانت شيرين خالية الذهن من كل شىء لأنهم منعوا عنهـا الجرائد والأخبار فصاحت : « الدسـتور .. الدستور .. ماذا تقول ؟.. »

قال خريسـتو : « نعم ياسيدتى .. قد طلب الأحرار من السلطان أن يمنحهم الدسـتور ، فأطاعهم .. ولذلك حـديث ستسمعينه من سيدى رامز أفندى .. »

فلم تصدق نفسها لغرابة الخبر ، وقد هبط عليها السرور من كل ناحية حتى ظنت نفسها فى حلم .. قدوم رامز ، ونيل الدستور ، ومقتل صائب .. وهى مع ذلك تتعجب من أمر القاتل ، ولكنها علمت مما قاله انه من أعضاء الجمعية الفدائيين ، وتذكرت فى الحال أمها ، فقالت : « ووالدتى .. أين والدتى ؟.. »

قال خريسـتو : « هى بخير فى مناسـتير ، وربما تأتى مع

سيدى رامز .. اصبرى الى الغد .. »

وبينما هى فى ذلك سمعت قرعا على باب غرفتها ، فسألت : « من أنت ؟.. »

فأجاب صوت : « أنا طهماز والدك .. »

فنهضت وفتحت الباب ، فرأت الدمع فى عينيه .. وقد أكب على ابنته يقبلها ويقول : « أهنئك ياحبيبتى بنيل الدستور ، وببقاء رامز على قيد الحياة .. قرب الله خطواته لنفرح به وبك.. ».

فلم تستغرب شيرين هذا التغيير من والدها لعلمها بضعفه .. وكثيرا ماكانت تغضى عن اساءاته حتى فى ابان ضغطه عليها بشأن رامز ، وكانت تعذره لقصر ادراكه ، فلما رأته داخلا على هذه الصورة نسيت اساءته وقبلت يده وقالت : « احمد الله على ذلك ياوالدى » ثم قالت : « ادع خريستو الخادم انه فى الخارج ».

فأسرع طهماز اليه وناداه ، فدخل .. فقالت له : « دبر أمر هذا البيت .. »

أما رامز فان تلغراف خريستو وصل اليه فى ساعة وصول تلغراف السلطان الى الجمعية بقبول طلبها اعلان الدستور ، وأصبح فى حيرة .. هل يذهب ويترك الناس يفرحون وحدهم ، أم يبقى ؟..

وأخيرا استأذن فى الذهاب الى سلانيك فى أول قطار ، وصحب معه توحيدة ، وكان والده غائبا عن مناستير ، فلم يخبره بسفره . فوصلا فى صباح اليوم التالى ، فوجدا خريستو على المحطة فى

انتظارهما ، وقص عليهما ماحدث ، فتأسف رامز لأنه لم يكن هو قاتله بيده . ولكنه عرف القاتل وهو الفدائى الذى تبرع بذلك فى الجلسة التى ذكرناها ، وركبوا ورامز يلاحظ حركات الناس فى تلك المدينة ومقدار اغتباطهم بالدستور . فلم يكن يجد الا جماعات يتكلمون عن الدستور أو يخطبون فيه ، وفى الأحرار ، ويتبادلون التهانى والشوارع غاصة بالناس ، وقد تعانق الشيخ ، والقسيس ، والحاخام ..

***

وكانت شيرين قد قضت ليلها أرقة من شدة الفرح بقدوم رامز ، فلما أصبح الصباح بعثت خريستو لاستقبالهم . ولما سمعت صوت المركبة أسرعت الى النافذة فرأت والدتها ورامزا نزلا من المركبة ، فأسرعت الى استقبالهما بالباب فضمتها والدتها وقبلتها وبكت بكاء الفرح ، ثم سلمت على رامز مصافحة وقلبها يخفق . فرأى رامز تغيرا كثيرا فى لونها ولم يفته السبب ..

ولم يكد يصل الى الدار حتى استقبله طهماز وضمه الى صدره ، وأخذ يقبله والدمع فى عينيه ويقول : « الحمد لله على سلامتك ياعزيزى .. » وكان رامز مثل شيرين من حيث حكمها على طهماز ، فالتفت رامز الى شيرين عند ذلك كأنه يستشيرها بشأن والدها ، فأومأت اليه أن يغض النظر عما مضى ، فقبل يد عمه ودخلوا الى الصالون وجلسوا يتحدثون ، ودار أكثر الحديث بين رامز وشيرين ، ولو أردنا بسطه هنا لكررنا ماجاء

في هذه الرواية ..

***

وفى اليوم التالى أتى والده ووافق على الاغضاء عن ذنب طهماز لعلمه بضعفه ، وقال : « ان جمعية الاتحاد والترقى شأنها الاغضاء عن السيئات . وليس فى الدنيا من أساءهم مثل عبد الحميد . فلما نالوا الدستور غضوا عما مضى واعتبروه والدهم ، فكيف بوالد الحبيبة ؟.. عفا الله عما سلف .. »

وبعد قليل تكاثر الأحرار فى سلانيك من الضباط ، والمدنيين أصحاب رامز ، وكانوا يحبونه لأنه كاتبهم وشاعرهم . فاحتفلوا بزواجه احتفالا حضره نخبة الأحرار ، وفيهم : أنور ، ونيازى ، والأميرالاى ، وفوزى بك ، والقادين . ج ، والدكتور . ن ، وكان قد انتهى من مهمته فى يلدز .. وجمع كبير من الأحرار ، وكان فرح العروسين مزدوجا بالاجتماع بعد الفراق ، ونيل الدستور بعد اليأس منه ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

Bibliotheca Alexandrina
0356391

مؤسسة دار الهلال